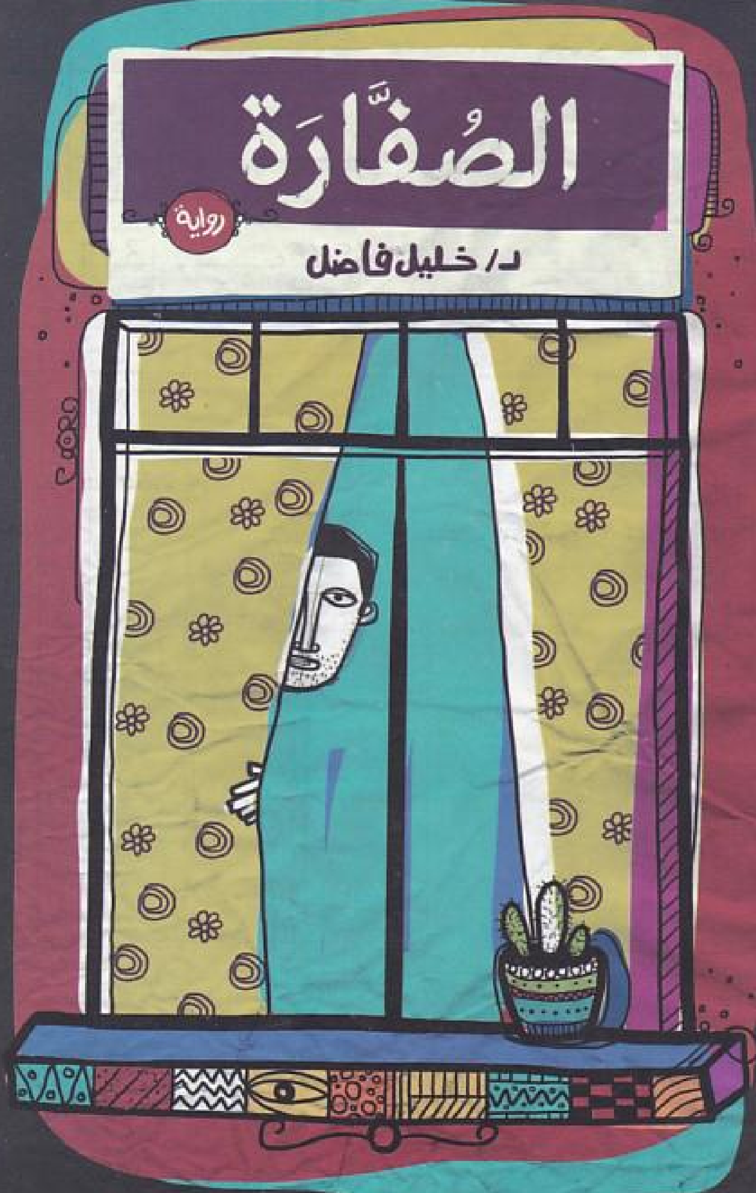
الصُفَّارَة
رواية
د/ خليل فاضل

الصُّفَّارَة

- رواية -

فاضل، خليل محمد   الصفارة - رواية
٢٨٧ صفحة   ١٤ × ٢٠ سم

دار العلوم   ٢٠١٢
رواية الصفارة للدكتور خليل فاضل
الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠١٢

رقم الإيداع: ١٦٠٥٤/٢٠١٢
الترقيم الدولي: ٧-٣٢٤-٣٨٠-٩٧٧-٩٧٨

تصميم الغلاف: الفنان كريم آدم
التنسيق والإخراج: الفنان بيشوي ماهر
المراجعة اللغوية والتصحيح : أحمد فكرى غيث
المراجعة الإلكترونية : هبة جمال أحمد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جميع الحقوق الاستغلال للطبعة العربية بأي طريقة من الطرق محفوظة للدكتور خليل فاضل ولا يجوز بغير إذن كتابي مسبق منه، أو القيام بأي عملية استغلال للمصنف، بأي تقنية معروفة حاليا أو مستقبلا، بما في ذلك النسخ والترجمة والتخزين والتحميل بالإضافة أو بالإنزال على ذاكرة الحاسب او التثبيت على دعامة، أو الإتاحة عبر شبكة الإنترنت، أو أي من شبكات المعلومات، المفتوحة أو المغلقة.

الصُفّارَة

- روَاية -

للدكتـورْ خَلـَيلْ فاضِلْ

القاهِرة ٢٠١٢

إن كنت تبحث عن مسكن الروح، فأنت روح
وإن كنت تُفتّش عن قطعة خبز، فأنت الخبز
وإن استطعت إدراك هذه الفكرة الدقيقة،
فلسوف تفهم:
أن كل ما تبحث عنه، هو أنت.

مولانا جلال الدين الرومي

إهدَاء

إلى روحي البعيدة،
تلك المُرفرفة بين قلبي ولحمى دون هوادة.

توطئِـة..
أوراق أمين الخاصة..

ذكرياته مع مصر والناس بعدما صحى من نومه في السبت ١٢ فبراير ٢٠١١، رزمٌ «هـي مـن الذكريـات، الأحـداث، القصـص» تتدور وتتكوم وتترتـب وتتحلق حول «أمين» بـكل ماله وما عليه، بحيرته ولوعته، عدم فهمه ومحاولته للفهم.

الصـوت الحـاد الضخـم المـدوي المترابط والمتكسر عـلى حواف الأحداث، «الصفارة» وهي تنطلق تستمر، تخرق الآذان، تمتد تقصر، تصمت، تعاود... سارينة النجدة وهي تصرخ علامة الخطر واللهفة صوتها فيه رائحة الدنو من الموت، طلقة الرشـاش وهي تدوي في الهواء تبحث عن جسـد تمزقه، أو عينٌ تقلعها، أو صدرٌ تستقر فيه، دمدمة الرصاصـة وهي تشـق طريقها الآثـم إلى رؤوس

النــاس بلا هوادة، هدير الخرطوش وهــو ينفخ في الهواء كانبثاقة الدم مــن الشريان، دوي القنابل «المُسـيلة للدموع» وهــي تدور وتلف في الهواء كالنحلة.. كالشيطان.. كالعبث، تئز وتنز، دخانًا ورائحة؛ فتضفي على الجو عتامة بيضاء قبيحة، تخنق الأنفس في الصدور.

صوت الغسالة وهي تخرب تخبط تروسها في بعضها، يزعق داخلها الماء والصابون والملابس، تدب عـلى الأرض كالدابة الحمقاء تنذر بشرٍ مستطير.

الثلاجـة وهي تزن كأنها الجاسـوس الذي يحتفـظ بأسراره ما أن تفتحها حتــى تبطل الزن، وكأنها لا تود العمل تحت السـمع والبصر، أزيــز الطائرة وهي تطــرد الحــداءات، تبحث عـن الكتاكيت وتقلق مضاجع النائمين والمرتاحين.

ضجيــج مروحية الهليكوبــتر وهي تراقب الميــدان، محاولة رصد الناس في حلّهم وترحالهم، اخــتراق رصاص اصطياد الكلاب والبلطجية للشرفــاء والأطفال أحيانًا أخرى، صوت البلـْطة في الوسْــط، تتمكن من الأحشاء.. تقطعها وتنام فيها، الفأس في الرأس تكسر صلابة عظامِها، وفي الأرض تنهش أحشائها، قسوة انتهاك العرض، نهارًا جهارًا، دون رحمة أو اعتبار.... آهات النسوة في ليل القاهرة البهيم صراخـًا أو فحيحًا جنسيًا.

عندما ســمع أمين صوت عمر ســليمان المُحَددّ، من خلال صورته المحفوظــة، ووراءه ذلك الرجل الذي وقف يحدّق في الكاميرا وفي عينيّ أمين، قال الرجل الروتيني الصوت، الغريب المُحيّا: (قرر الرئيس محمد حســني مبارك تخلّيه عــن منصب رئيس الجمهوريــة، وكلّف المجلس

الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد).

أمين لن ينتهي من حدّوتته مع انتهاء الرواية، فهو مازال يعيشها مع جموع المصريين، يدخل بها مجلس الشعب، ومكتب النائب العام، وينام معها في شارع محمد محمود، الشارع الأيقونة الذي رضّع الثورة المصرية، ذلك الذي يقع جسرًا بين ميدان التحرير وتخوم وزارة الداخلية، تمتلئ الرؤى بالدخان والصور والبطولات، ترتفع اللافتة المكتوبة بخط رديء (يمكنك أن تدهس الورود، لكنك لا تستطيع أن تؤخر الربيع)، مع رائحة الغاز.. وسط ذلك الجو الضبابي وكأنها الشبورة في المدن الساحلية، وفي أوائل الصباح في العاصمة، وكأنها ماكينات ضَخ الدخان في الأفراح وحفلات الباشوات والهوانم، ما بين وقع دقات الطبول وضرب النار، الرصاص النافذ في البطن والصدر وكأنه الحلم الأبدي للرحلة والأسفار، مسيرات التضامن بأفراد الألتراس يغنون في سخرية من الأمن الرابض والمُتقدم.

يرتفع الدخان أعمدة فوق أعمدة، يدخل البلكونات ويغطي أسطح البيوت.. يكون سحبًا كثيفة كالقطن المندوف، ويبتلع داخله الناس والرصاص.

يستنشق البارود والغاز والدخان وينام على صوت إطلاق القنابل المُسيلة وزخّات الخرطوش والرصاص الحيّ، يصيبه الدوار وكأنه على ظهر سفينة تقاوم موجًا عاتيًا، يكاد يبتلعها فتزداد صلابة، وتصبح ذراعاه ألف ذراع، ويداه مائة ألف يد، وصوت تنفسه ينازع الصبر والدواء والصخر والاحتماء بالسور الطويل.. وبالجرافيتي.

«نَفَــسَ خــروج.. نَفَسْ دخــول، عنـُّه إنتَ مش مســئول، إياك تهندِس المجهول».. هكذا قال الجرافيتي.

يستمد المجهول قوته من غموضه ومن جهلنا به.

وهو لا يُهندَس.

لكن أمين يحاول تأويل ما حدث وهكذا...

هــي إذًا تداعياتٌ حــرة طليقة مبهمة أحيانــًا، وصريحة أخرى، كخيــوط العنكبوت، صلْبة وإن وهن بيتها، طنين النحلة وصفير الأذن، انطلاق الصــاروخ، القذف من أطــراف الدائرة في حركــة مُتعرّجة، أو في خــطٍ مســتقيم، وكأنها الحصــان أو الفيل على رقعة الشــطرنج، أو العســكري المســكين في الليل البهيم.. وما بين هــذا وذاك ألف تقاطع بالطول والعرض، بالمِيل وبالضغط، بالتلامس والانكفاء والانهزام والذلّة والهتاف.. بالحسرة والفرحة.. صوت ارتطام الســيارة بالجســد الممتد، وصوت خبْط الأقدام العارية للرجل العاري في الشارع الأنيق.

المقاومة الشــيطانية للســحرّ والأسرار على مائدة العشــاء الأخير، صوت الملاعق والسكاكين والشوك، غليان الطبيخ وهسِيس بخار الشاي والبليلة.. التقاطع المــوارب.. الصريح والجريء وائتلاف الضوء الخافت المستحي في خطه الشعاعي الآتي من الماضي.

تبــدو ثغــرات إدراك أمين، في تفاقم الحدث وإضرابــه وغليانه.. صدمة المكبوت داخل صدره المتورم المنتظر الانفجار، أحلام أمين وحياته.. رزمٌ مبعثرة أحيانا ومرتبة أحيانا أخرى.. لعلها، في عقلنا وجنوننا، وفي حيرتنا ولوعتنا!

الدَّبّور

كان أمين يسكن في الدور الرابع، من تلك العمارة البيضاء الكالِحة ذات الصفار المُتسِّخ الذي تتسم به أغلب عِمارات القاهرة، عمارة تقع على ناصية الشارع بمدينة نصر على مقربة من الحديقة الدولية.

تمشّى أمين في ردهة البيت، ترنّح قليلًا وكأنه يعاني من بعض الدوخة، اهتزّ رأسه مع الريح الآتية من الشرفة، عبر الستارة «التُلّ» البيضاء شبه الشفافة، ابتسم لنفسِه، ولهزّة رأسه، مُتذكرا الهنود في الإمارات، عندما عاش هناك مع أسرته، تمهّل وتأكد أنه لا يعاير الهنود؛ فهم صنعوا الطائرة والقنبلة الذريّة، ورغم أنها البلد الديمقراطية الأكثر ازدحاما بالسُكان في العالم، إلاّ أنها تمتلك ثاني عشر أكبر اقتصاد في العالم.

المُهِّم.. شدّ أمين الكرسي المخصص للجلوس

على ترابيزة الأكل، شــدّه رغم ثقلِه؛ جرّه فأحــدث صوتًـا مُمّيزًا، تذكّر وهو واقف في محطّة طنطا بعد زيارة جدّه لأمه، وقت كان واقفًا على الرصيف، ســمع اهتزاز القضبان قبل أن يأتي القطار، وقبل أن يلوح في الأفــق، كانت المادّة الصلْبة للقضبان هــي التي تحمل صوت القطار، وكانــت المادة الصلبة، في عظام أذنيّ أمين هي التي تحمل صوت الناس تحت العمارة.

☙ ☙ ☙

جلس أمين على الكرسي ثم قام واقفًا فجأة، دخل من الشباك دبورٌ أحمر له أجنحة برتقالية؛ وكأنه طائرة شراعية زاهية الألوان، طنّ طنينًا قويًــا، انخفض وارتفع صوته مــع دنوه من رأس أمين وأذنه، كان يلـّف ويدور كالطائرة في الاســتعراض، يختفي ويظهــر، يطير على ارتفاعات مختلفة، وأمين يحاول مراقبته ورصد حركة سيره دون طائل؛ فلقد كان الدبّــور ابن الدبّور مراوغًا حادًا، يزداد طنينه وضوحًا مع الوقت، ومع ازدياد درجة انتباه أمين له، ومع مُتابعته لحركاته اللعينة.

فجأة اختفى الدبّور.. لم تنطلِ الحيلة على أمين فهو متأكد تمامًا أن الدبّور مُختبئ ومُســتعد للانقضاض والطيران، اللف والدوران واللدْغ، وبدأ معركة لن تنتهي بسهولة أبدًا.

كأنه ضلّ ســبيله خارج سرب الدبابير، أو علـّه جاء مُرتعدًا يبحث عــن ملاذ، يختبئ فيه بعيدًا عن عينيّ أنثاه المُطــاردة، تمنّى الدبّور ألاّ يضطر إلى الدخول في أي معركة، تمنّى ذلك، وهو يدور ويلـّف في فضاء

الصالة، تتبْعه عينا أمين.

كان أمين يتفاداه.. أحيانًا بحركة رأســه المفاجئِــة، وأحيانًا ما كان يطرده بيده مُتحاشــيًا لسعتُه القاســية، تمنّى الدبّور أن يظل هكذا في لعبته الجديدة، وفي بيتــه الجديد يلعب مع أمين (حاوريني يا كيكة)، همس أمين لنفسه ضاحكًا في سخرية (**دبّور.. وزنّ على خراب عشُه**).. وسمع الدبّور يُجيبُه (**ماليش عِش يا باشا.. الخراب لو طال حدّ هيبقى إنــت.. إنت يا أمين.. هههههاي.. أمين وزنّ على خراب عِشــه**).. انزعج أمين للغاية من تلك المواجهة القاسية المُفاجئة المفروضة عليه فرضًا.

إلاّ أن أمين وجد في المطاردة تسليَة، وفي الهروب لـُعبة وفي الهجوم مُخاطرة، كان وهــو يهمّ.. تـُحرِّكُه مفاجئة غــير متوقعة، يحُطّ الدبّور فجأة على رأســه، يخبْطه بيــده فيفرّ هاربًا، يــدور في الهواء في دوائر غريبة..

كان الدبّــور يحقق ذاته في الهــروب من الموت، وكان أمين يبحث عن معنى في ضرورة قتل الدبّور، وقع كرسي السفرة الثقيل على الأرض؛ فأحدث دويًا.. ضجةً وجلبة وضوضاء، بدَت الأصوات المُزعجة المُختلطة، وكأنهــا قادمة من عالم الرُعب، خلـّف الدبّور وراءه عالمًا من الشــمس والهواء وأسراب النحل والعســل والتراب، الحرّ ومطاردة أنثاه له ونيّتها المُبيّتة لقتله.

أثناء حركة أمــين الاضطرارية العفوية، تعثّر وســقط أمام ترابيزة الســفرة، الخشــب الزان الثقيلة، خبطت رجله اليمنى في أحد قوائمها؛

فارتجّت واهتزّت قليلًا مُحدثة صوتًا مكتومًا ضاع في جوف طنين الدبّور الذي عاد إلى الظهور، تحسس أمين ساقه، أحسّ فيها بألم دفين وصل إلى النخاع، كتم ألمَه ورفع رأسه باحثًا عن الدبّور الذي على ما يبدو كان في وضع ساكن، التقت عيناه بصورة فوتوغرافية تجمع أمه وأبيه.. مع أخته نرجس وأخيه فارس، دارت الصورة وكأنها موجة تبتلع أمين وألمه، تأخذ الدبّور وطنينه في تجاويفها، وتُضيّع الجلبة المفاجئة التي اعترت المكان.

أحسّ أمين بدوخة، وكأن زوبعة هبّت فجأة وعصفت بذهنه، دوامة عصرت أحاسيسه، لم يتمكن من التركيز فحاول أن يفرك عينيه ويهز رأسه يمينًا ويسارًا.

تأمل صورته وهو صغير، كان يحمل من سمات أمه الكثير، لكنه لم يكن يشبهها، كما كانت نرجس تشبه أبيه في جبهتها وأنفها وضيق عينيها، أما فارس فلم يكن يشبه أحدًا، تذكر أن أمه قالت أنه يشبه خاله القاطن قرية في أقصى الصعيد، وكان خاله أيضًا لا يمت بصلة شبه في المُحيا لأي حد، وقالت أيضًا، إن فارس كاد يطابق خاله في السمات والطباع والأخلاق.

صاح (يااااه.... بابا وماما كان شكلهم غريب قوي، ماكانوش بيبصّوا لبعض خالص، واحنا كان فينا عَفرْته وشقاوة، وانا كنت بابُصّ على فارس، وفارس كان بيبُص على نرجِس.. اللي كانت بتعاكس المصورّاتي)..

انتبـه أمـين بعدما نهـض الدبّور فجأة، طـار عموديًـا في الهواء كالهليكوبتر، ثم اقترب من أذن أمين وزاد طنينه، وكأنه صوت الكهرباء المرتعشـة تسري في أوصال الأسـلاك، كاد يلدغه في أذنه وكأنه يتحداه ويـصر على هزيمته، وعلى الفور أحس أمين بالطنين يدخل إلى تجاويف أذنه، يتضخم ويصبح مثل الطبل البلدي.

وسـط الطبل البلدي سـمع زئير الهتافات وأصوات فظيعة كأنها السـاحرات في أفـلام الرعـب، دويّ قنابل، زخّـات الخرطوش وفرقعة القنابل المُسيلة للدموع، دبيب خطى الثوار، وقع الأحذية الغليظة على الأسفلت، رشـق الحجارة في المعدن، ضجيج الهروب وعفار تراب الكرّ والفرّ.

كان طنـين الدبّور الـذي ابتعـد واختفى قد انحـسر، كبرت مع انحسـاره أبواق سرينات الإسعاف والصراخ والألم والشدّة، تزايد غضب أمين واشتعل مع عدم قدرته على متابعة سير عمليات الدبّور في الصالة، هجم الدبّور على رأس أمين فتحاشاه، حاول أن يضربه بيده.. خاف من لسـعته، بحث عن مضرب أو فوطة أو جريدة لكن لم يجد شـيئًا.. كان الدبّور يختفي، يراوغ يختبئ، تناهت إليه أصوات التلاميذ في المدرسـة أثناء الفسحة زمان وهو صغير، تناهت إليه أصوات الكلاب الضالة تنبَح في الظـلام، أصوات الأغاني الكئيبة وقت الهزيمـة، وتلك العبيطة وقت النصر، والبلهاء التي تُمجد الزعيم الفاشل والرئيس اللص المهزوم.

انتبــه أمــين إلى الدبّور مرة أخرى، همس لنفســه: لابد للدبّور أن يرحَل أو أن يُقتل، لن يســتطيع هذا الدبّور الفــكاك منّي، أو فليْهرب ويرتاح ويُريحني.

في أثنــاء هجمــةٍ للدبّــور، تذكر أمــين مذيعه المُفَضّــل ذا الوجه المستطيل والابتسامة الساخرة الذكيّة، تذكرّه وهو يُرتب أوراقه، يُخبـّط بها على المكتب أمامه ويقول **(لا إله إلا الله)**..يقولها في سخطٍ وسأم، لم يكن ليقولها إلاّ للاستنجاد بالله سبحانه وتعالى، في وجه كاذبٍ فاحش.

(لا إله إلا الله).. لا بدّ أن الدبور آتٍ من عند الشيطان، أو علّه هو الشــيطان، إذن فلأقل (لا إله إلا الله) بصوتٍ عال، لابد أنه سيهرب لا.. إنــه دبّور شرس مقاتل، مُصِرّ عنيف.. حتى البســملة والحوقلة والعياذ باللــه لم تؤثــر فيه، يقول الناس أنه ابتلاء، أنــه امتحان، يا له من دبور عنيد يا الله...

اســتدعى أمين صورة المذيع وهو يرمِش بعينيه، يُعيد في نفاذِ صبرٍ فظيــع (لا إله إلاّ الله)... لكن الدبّور لم يرحــل، حطّ ولفّ ودار دورانًا كثيفًـــا كأنه مُحترف، وكان الدبّور بالفعل محترف لدغٍ وطيران، يا الله، كان الدبّــور يُشــكّل حوله دوائــر ودوائر، يختصرُهــا في دائرةٍ واحدة تحميه وتلـُفه، رآها أمين ككرةٍ ملونة، تنزل من عليائها في فضاء الصالة، إلى الأرض، تتدحرج دون أن تنكسِر.

ضحــك أمين عاليًا، وقال لنفســه **(هو إذن الدبّــور الغبي، فاكرني هادخــل ديرته الســافلة.. لأ.. أنا مــش مجذوب، ولا هادّعي بشــكل**

كوميـدي إني بريء، أنـا هاروح أجيب مـضرَب أو عصاية أو فوطة أو ملايـة وأرجع أهاجم الدبّـور).. لم يُحضر أمين شـيئًا، لم يجد أي شيء يُناسـب الصراع الدائر مـع الدبّور.. الدبّور دبّور.. لـه خـُيلاءه وذكاءه وقذارته وحيلته.

كان أمين سـعيدًا في وحدتِه، مُعتلا بالضيق والتبرّم.. ملولًا.. أحدث وجود الدبّور خطرًا لا يُستهان به، وتسلية معقولة، لم يدر إن كان يحب الدبّور أم يكرهه، هل هـو يريده يزنّ ويحوم ويطير ويحطّ، أم يريده ميتًا.. أم يُريده خارج المكان والزمان.

قـال أمين، لنفسـه، **(الدبّور.. دخـل بيتي وعاداني، عمَل دوشـة وضجّة، قلقني وشـغل تفكيري، لازم انشق عنه، لا بدّ أن ألغي وجوده، هابتعد.. وهو يا إما يهرَب، يا إمّا يموت، أو أن أموت قبله).**

تراءت له صورة المُذيعة المُتشـبّهة بسُعاد حسني، تبتسم ابتسامة سـاخرة لا تخلو من دهاءٍ شديد، تميلُ برأسِـها فتضيق عينيها ويصبح وجهها كالعروسـة البلاستيك.. سـألتْه بطريقتها التي فيها بعض التردد والإعادة لبعض الجُمل: **(وناوي تعمل إيه مع الدبّور يا أمين؟.. وخططك لمواجهته إيه.. يا ترى اتدرّبت على المواجهة في أوكرانيا والاّ في صربيا)..** تتغبـش الرؤية، تصير الصورة التليفزيونية الملونة أبيض وأسـود، ومع كثير من التشـويش والخطوط البيضاء والسوداء التي ترتفع وتنخفض، تظهر الصورة الملونة على استيحاء، بوجه المذيعة منبعجًا كأنه انعكاس في مـرآة مقعـرة أو مُحدبة.. ثـم تبدأ في الانكماش حتـى تصير دائرة صغيرة، ثم نقطة في بحر أسـود..تختفي، تصبح الشاشة الصغيرة سوداء

كالكحل وكأنها مرآة قاتمة يرى أمين فيها نفسه ويتأملها.

يضحك أمين؛ فتضحك معه المذيعة أكثر، يبكي لأنه لا يعرف الإجابة؛ فتبكي معه المذيعة، تنسحب الصورة ويختفي الصوت والسؤال، والدبّور مازال في مكانه.

أصبح الموقف جامدا رتيبا مُكررًا.

دخل الدبّــور في دائرة الضوء، كانت الأباجــورة الذهبية الطويلة المفتوحــة الفمّ لأعلى جاذبة، حرارتها عالية، ســقط الدبّــور دائخًـا في جوفهــا واحترق؛ فانبعثت رائحة غريبة، مزجٌ من روائح كثيرة، كالبارود والكاوتشوك والموت والزفارة وتراب الأرض.

ينظــر أمين نحو الدبور وهــو يحترق، مرتاح غــير مصدق، غطّى وجهه العرق، يبتســم محدقًــا في لمبة الأباجورة التــي تظهر لها دوائر ملونــة كقوس قزح، دوائر تحيط بها وكأنها ترســم حرارتها، تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك موت الدبور، تظهر في وسط ضوء اللمبة صورة عائلة أمــين الكريمة وهي تنظــر إلى الكاميرا وإلى الناظر إليهــا.. تتلّون بلون إحساسه مرة، ومرات تكون صائمة عن العاطفة وجائعة للمشاعر.

فاحت الرائحة وانتشر الدُخان، سقطت الكراسي، وتحركت الترابيزة العتيدة، من مكانها وظلت صورة العائلة في إطارها على الجدار تبتسم لكل ما حدث.

حكّ أمين فروة رأســه محاولًا تذكر تفاصيل موقعة الدبور لكنه لم

يتمكن إلا من التقاط بعض شذراتها، أحسّ ببعض الراحة لموت الدبور الخطر الشرير، لاختفاء التهديد لغياب الحركات المفاجئة والنذلة ولعب الثـلاث ورقات، وفجأة بدأ يبتسـم قليلًا.. ثم افتر ثغره عن ابتسـامة عريضـة، ضحك في هـدوءٍ مكتوم، ثم انطلق في قهقهـةٍ مجنونة كأنها بوقع صداها سيمفونية انتصار لا بأس بها.

فتحَ أمين النافذة، مُزيحًا الستارة «التـلّ» البيضاء، خفـّت الرائحة، وظلّ بعض الدخان.. لم يشـأ أن يحرك شيئًا إلى مكانه، تحرّكت الأشياء كما كان مُقدّرًا لها، وسقطت أشياءٌ أخرى.. هكذا.

ضحك أمـين.. وكان يضحك أحيانًـا ليدافع عن مرارتـه واكتئابِه، سـاعات كان أمين يدافع عن نفسِـه بعنفوان ضحكـةٍ كاذبة، لكنّه لم يكن سـعيدًا تمامًا، كـما أنه لم يختلط بأحدْ، ولم يرَ أحـدًا إلاّ قليلًا وفي المناسبات.

جلـس أمين عـلى الكرسي، انطفـأ الضوء في عينيـه، لفَحه الهواء القادم من الشـباك عبر السـتارة «التُلّ» البيضـاء، ودّ لو تمكن من أن ينعس قليلًا، لكنه قاوم الفكرة والإحسـاس، أصاخ السـمع عبر الأدوار الأربعة، تناهت إليه أصوات الشـلّة، وهم يجتمعون على عربة الفول الصغيرة الخشـبية الملونة: أحمر وأصفر وأخضر ومكتوب عليها «سترك يارب».

وقفـت العربـة أمـام العمارة، كان مع الشـلّة كثـير من العمال والموظفين بكامل هيئتهم، يلتهمون أطباق الفول بالزيت الحارّ والبصل

والليمـون في أطباقٍ معدنية، يشربـون الماء من أكواب معدنية كذلك، فـوق العربة تربّعت قِـدرة مملوءة بالفول الناضـج، وكثير من الخبز البلدي، زجاجات الطحينة والزيت البلاستيك، البصَل الأخضر والليمون والمخلّـلات وبعض البيض المسـلوق، كان كل ذلك عـلى ناصية الموقع المعدّ لبناء عمارة جديدة.

لمحَ بطرف عينيه كل أفراد الشـلّة، أطلّ برأسـه قليلًا، تابع حركة جسد بائع الفول المتناغمة الراقصة، وحركات مساعديه مُكملةً الإيقاع، همْهَمتُهم المسموعة بالكاد، مع ضجيج الشارع المُعتاد.

꧁ ꧁ ꧁

وضع أمين يده على رأسـه وكأنه يسمع وابور طحين، تأمّل الستارة المتحركـة للداخل والخارج بفعل الهـواء، تأمل الجدران وما علاها من صور أخرى لجدّه وأبيه، وتلك الصورة الأبدية التي تجمعه هو ووالداه وأخته وأخيه.

بدأ وابور الطحين يدوي في أذنيه، تذكّر أيام الإمارات والبيت الكبير المليء بالناس، ووالده وإخوته مشغولون بالهيصة، تائهون في الضجيج، كان يجلس وحيدا متأملًا مُشوشًا مُحتارا.

زاد الضغط في ذهنه بعد أن سـمع شلّة الأولاد، والناس الملتفّون حول عربة الفول، مع حركة بعض المارة في الطريق.

كانـت الأصوات مـن وضوحها أحيانًـا، وترددهـا وتكرارها على

مسـامعه أحيانًا أخرى، تأخذ صورة العفريت أبو قرنين، الأحمر الوجه والجسـد، وتارةً أخرى تأخذ شكل أبو رجل مسلوخة، وعسكري الدرك الذي يسـلم الأولاد لآبائهم في قسـم الشرطة، بعد أن تلفظهم أمهاتهم طوعًا أو قسرًا، كانت الأصوات تختلط وتتفتت، تتضفر وتتجمع..تسرع وتتأنى، تصبـح كالرُمح تمضي وتمرق، كالريح المُسـتعرة، تنفذ إلى عظام الأذنـين.. تخلق لها صـدى في تجاويف مُخه.. تصبـح بوقًا في يد غول مشـوه الملامح، يصيح بصوت كريه (ها هـم أصحابك، فيم يفكرون يا أمين؟ هل يدبرون مكيدة؟ ها هو حارس العقار ينظر إليهم، يذيع من مذياعـه آياتٌ من الذكر الحكيم)، آياتٌ عن المنافقين، تختلط بالصوت والأصوات وطنين سابق للدبور، وصوت المذياع وضجيج التليفزيون بعد تشوش الصورة، وكأنها تلك الأسطوانة القديمة المشروخة تبتلع في بطنها روح أمين ونفسـه، فتتشـظى وتصبح أشـلاء يحاول جمعها والتقاطها وترتيبها كما يفعل مع قطع البازل.

يتغضّن وجهه، يكفهّر، يضع كلتا يديه على جُمجمتِه ويكاد يصيح، لكنه لا يصيح، يأتيه الهاتِف.. يحاوره في جدليةٍ صعبة:

- **هل كل هؤلاء ليسوا معك يا أمين! من معك إذن!**
- آآه...

صرخ أمـين مُتألمًـا واقفـًـا.. صرخ أمين وهو يرى نـسرًا مُحلقًا له بجناحـين، أحدهما بحجم العمارة التي يسـكنها، والآخر بطول وعرض شـقتهم، منقـاره كالصاروخ، ورأسـه كمركبة الفضاء، عيناه عدسـات

مصوريــن وكاميرات مراقبــة، نجوم ونحاس وبــدلات كاكي وزيتية، لها شــارات حمراء في مواضع مختلفة تطمئنه، وكأنها تود أن تلّفه وتضمّه وتحمِيه، قال مؤكدًا:

- معي المجلس الأعلى..

نعــم هو معي بكل قوّته وجبروته ضــد كل ما يمكن أن يلحق بي ضرر.. أي ضرر.. إذن فلتبدأ المعركة.

دقّ جرس الباب دقـا متتاليًا مُلحًا تميّزت به الست نجية، فزع أمين وقام واقفـًا متوجهًا إلى الباب ليفتحه.

السِت نَجَيّة

ست في أواخــر الأربعينيــات، مــا يظهــر من شــعرها ضربُه الشــيْب، ووجهُها الشــاحب بانــت عليه بعــض تجاعيــد الهموم والســفر، الغلّ والذُل ومرض الــزوج الدائم، عدم رغبته في العمــل. وجهها كان محمرًا بفعل مزيج من حساســية جلدية ابتلت بها، وحرارة الشمس، وكعادة نساء مصريات كثيرات كان نصفها السفلى ممتلئًــا للغاية، يعوق حركتهــا بعض الشيء على الرغم من نشــاطها المستمر ودأبها الذي اشتهرت به.

كان أمين مستغرقًا في كيفية تفسير ما جرى!

وجَد أمين الست نجيّة أمامه مباشرة، قبل أن تدخل من الباب.. بان عليها بعض الانزعاج والاستغراب، ســألت أمين بعد أن صبّحت عليهِ بالخير، ودعت له بالصحّة والسُــعادة، شمّت الست نجية بطرف أنفهــا روائح غريبة، ربما شــمّتها من الطرقة التي

تقع فيها الشــقة مع شــقق الجيران، وأول ما فتح أمين الباب أحسّــت برهبة وخفقة وشعور غريب بأن هناك أمرًا ما مريب وغريب، سألته:

- **إلاّ يا سي أمين.. إيه الريحة الغريبة دي؟**

ضحك أمين، مُفسِحًا الطريق أمام الست نجية لتدخُـل إلى المطبخ، قائلًا:

- **الدبّور اتحرق، دي ريحة الدبّور بعدما اتحرق.**

ضحكت الست نجية ولمعت عيناها وهي تسرق النظر إلى الصالة المُرتبكة المُبعثرة الأثاث، سألته:

- **طب وإيه اللي قـلب الدنيا كده يا سي أمين؟**

سرح أمين بعينيه بعيدًا، دارت في رأســه دوامات تغلي، كالمرجل.. كان ســيناريو موقعة الدبور ماثلًا أمامه، تساءل، بينه وبين نفسه، هل أخبرها بحقيقة ما حدث؟ أم من الأفضل إخفاء الحقيقة، أم من الحكمة ذكر بعض الأمور وعدم الخوض في التفاصيل ؟.. قال لنفســه (**لا... دي الست نجية دي أروبه هتفهَم من شكل الصالة اللي حصل.. ومن إمتى واحنا بنقول الحقيقة عن أي حاجة؟ حتى لو شايفينها ولو حتى الدليل موجــود... بيتهيألي إنها مش هاتصدقني، ويمكــن تفسر الموضوع على طريقة بلدهم، سرّ وسحر وعمل وحاجات؟**).

تنفــس أمين الصعداء، حدث نفســه (**آهيه الســت نجية عرفت**

الفولة، لكنها بلؤم الفلاحين، هاتفتكر إنها قصة من قصصي أو فكرة من أفكاري أو ربما هلوساتي. هههاه... مش مهم).

نظر أمين إلى الست نجيّة، حكّ فروة رأسه وقال:

- **دي آثار المعركة.. المعركة اللي دارت بيني وبين الدبّور.**

ضحكت الست نجية وهي تُمصمِص شفتيها غير مُصدّقة ومُعتقدة أن أمين بدأ ينسج قصصًا جديدة من وحي خياله.

لم تكن سُـعاد هانم «أم أمين قد عادت من الإمارات بعد» وكانت السِـت (نجية) تأتي من بعيد، لتسـاعد وتدبر شـئون البيت مرّتين في الأسـبوع، فعلت ذلك لمدة تزيد على أربع سنوات، حتى عندما تسافر السِـت إلى الإمارات، كانت تأتي لترتيب البيت، وغسيل الصحون ونشر الغسيل، بعد تفريغه من الغسّالة الكهربية، والانتظار حتى لمّه وتكوير الجوارب، ووضع كل شيء مكانه، وإرسال ما يُرسل عادة إلى المكوجي.

وقـف أمين أمام كرسي السـفرة، الثقيل جـدًا، كان أمين يميل إلى الامتلاء، وكان يفتقـد إلى اللياقة ومع ذلك كان يحاول ويجاهد لإثبات عكس ذلك، أمسـك بكرسي السـفرة وحـاول جرّه فوجـده صامدًا لا يتزحـزح، نجح في تحريكه قليلًا؛ فتحرك قيد أنملة، اسـتجمع كل قواه وقبض بكلتا يديه على جانبي الكرسي متخذًا وضعًا خلفيًا ملائمًا يسمح بجرّه، رغم ثقله، تحرك الكرسي قليلًا واحتك بالأرض تاركًا على السيراميك علامة، وصوتًا مُزعجًا، كان يتشـبث فيه بالمكان الأصلي، ويقاوم بشدّة كل مُحاولات الجرّ؛ فأحدث جلبة وضوضاء، وكأنه الزحف المُسـتميت

لجسمٍ خشبي ثقيل أصمّ.

وضعه قرب باب المطبخ بحيث يكون مواجهًا للست نجية دون أن يدخل إلى موقع عملها، كانت تغســل الصحون بعد أن بدّلت ملابسها السوداء، وشالت عنها خمارها، مشمرة عن ساعديها.

كان ظهرُها له، عرفت أنه جالس قبالة فتحة باب المطبخ ليتسامر معها، كما كان يفعل منذ أن كان صبيًا، الآن ما شــاء الله عليه بلغ ٢٤ ســنة، وهي لا تفهم لِمَ لا يزوجوه وهم يملكون، «يعني هو يســتطيع الباءة».

انتــثرت مياهٌ ورغــاوي في الحوض المليء بالأطباق، غسَــلت بقايا الطعام وفنجان القهوة وبعض الملاعق والسكاكين.

سألت الست نجية أمين:

- **إزيك يا سي أمين؟**

- **الحمد لله.. إزيك انتي يا ست نجية؟**

- **الحمد لله يا سي أمــين، الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.**

ഋ ഋ ഋ

تــردد صوت الســت نجية في جنبَــات المطبخ المُســتطيل، ارتطم الصوت بالثلاجة والفريزر وغســالة الأطباق، بغســالة الملابس والرخام

والمطبقية والحائط السيراميك.

كانت الســت نجية مازالــت أمام الحوض تغســل أطباق البيت، تعطي ظهرهــا لأمين، تظهر بدانتها التحتيــة واضحة في ملابس العمل بدون العباية.. رأى أمين ظهر الســت نجية ماثلًا أمامه كتمثال فرعوني جرانيتــي ضخــم، فزع من فكــرة أنها تكلمه من خــلال صدى صوتها المُنعكــس من رخــام المطبقية، ظن أمين أن ميلــه للبدانة يماثل بدانة الســت نجية، نظر إلى جسده، تحسّــس صدره وتأكد أن امتلاءه يكاد يكــون في نصفه الأعلى فقط، إذن لماذا لا تواجهني الســت نجية، هل تظنني أبله أم دميم أم عيّل... يا الله!.

صمتت الســت نجيــة فجأة، ثم بصقت في صدرهــا، لم يكن أمين متأكــدا على الإطلاق -وهو لا يرى وجهها- مــن أنه صوتها وليس رَجْع الصــدى، وهــل الصدى هو رجْع الصوت، أم أنــه شيءٌ آخر، حَكّ فروة رأسه، دعَك أنفه، أطرق هنيهة ثم سألها:

- **ليه الشؤم ده؟**

- **لا شــؤم ولا تفاؤل يا سي أمين، إحنا عايشــين اليوم بيومه، كل أملنا في الحياة دي، إن احنا نطلع منها على خير.**

صاح أمين، فجاءه صوتٌ يرجع صداه من داخل المطبخ، مرتدا من الحائط الذي خلفه:

- **يعني... يعنــي كل طموحك في الدنيا إنــك تطلعي منها على خير... يااااه !**

فوجئت الســت نجية، فزِعت، بصَقت في صدرها، وشــهقت قائلة **(يا رب اجعله خير، بسم الله الرحمن الرحيم).**

- **فيه إيه يا ست نجيّة؟**

- **فيه إيه يا سي أمين؟**

ســألا الاثنان نفــس الســؤال، في نَفْس واحد وفي نفــس اللحظة، ابتسما، عادت الست نجية إلى موقعها أمام حوض المطبخ، وظلّ هو في موقعه، على نفس كرسي السفرة الخشب الزان الثقيل.

- **انتي منين يا ست نجية؟**

- **إحنا من سوهاج.. من أخميم.**

ضحك أمين فجأة، ضحكة طفل، لكنه في نفس الوقت تذّكر ضحكته الأخرى ناحية الشرفة، ضحكة الشيطان.

- **بتضحك على إيه يا سي أمين؟**

- **أصلي افتكرت أن مينا موحدّ القطرين طلع من سوهاج.**

- **سي مينا مفتش التموين؟**

ضحك مرة أخرى، ضحكة مُرّة وقال:

- **مفتش تموين إيه بس يا ســت نجيــة، ده مينا.. مينا اللي من أيام الفراعنة.**

- آآه.. مـا دام قلتـلي فراعنة، يبقى لازم تعرف أن أكبر سـحرة فرعون اللي أسـلم في عهد سـيدنا مـوسى، من البلد الـلي أنا اتولدت فيهـا، من أخميم، وعلى فكـرة دي تحتيها مدينة فرعونية بحالها، وكل الإخميميين عارفين كده.

- عارفين كده؟

- آه عارفين كده، وأكتر من كده كمان! ده فيه ناس بتلاقي الآثار صدفة، وهُمّه بيحفروا عشـان يرفعوا أساس بيوتهم، وفيه ناس بتدور عليها بالقصد.

- يا سلام!

- يعنـي مـش مصدّق يا سي أمين، لأ ده حتى وأنا عندي سـت سـنين.. جه البلد ساحر مغربي، جه عشـان الجنّ، راحت الأرض بالعة البنت اللي معاه، واتقفلت عليها وماعادش ليها أثر، أي أثر.

- هتقوليلي طبعا لعنة الفراعنة!

لم ترد الست نجية، ولم يعقب أمين، فكر طويلًا في «لعبة الفراعنة».. تهيأ له عمر سليمان نائب الرئيس كاهنًا فرعونيًا يمشي في بطء، يتهادى في سـيره مُتقدمًا الجموع ليخبرهم بالنبأ، تتراءى أمام أمين صور الخدم من الفراعنة.. العمال والبناءين.. الموتى والمومياوات.

خرج عمر سـليمان من عباءة الكاهن، طلع من شاشة التليفزيون السـوداء، خرج من نقطة صغيرة لا تكاد تُرى وسـط الشاشـة، نقطة

بدأت تكبر ثم تكبر، حتى صارت ملء الســمع والبصر.. عندئذٍ بدأ يتلو بيان التنحي.

لم تردّ الســت نجية، ولم يعقب أمــين، فكر طويلًا في صوت ووجه عمر ســليمان، جرّ الكرسي الثقيل الضخم إلى مكانه الأول قرب النافذة، رفرَفت الستارة البيضاء التُل بنسيم العصاري الذي لفَح وجهه، استنشق عبير الصمت والسكينة التي لفّ المكان، ثم توجه إلى غرفته لينام.

کان أمين مدرسًــا للغةِ العربية، حرص على الاشــتراك على الفيس بوك في الحملة القومية لاســتعادة كرامة مــدرس اللغة العربية، وكان أيضًا مُســجلًا ضمن منتديات الأصدقاء المصريين، أعجبه شــعارها «إن الذي ملأ اللغات محاسنًا، جعل الجمال وسرّه في الضاد».

كان أمين يضحك دائمًا مع زميله حسّان الحُسيني، وهو يدعو دعاء مــدرس اللغة العربيــة **(اللهم اجعلنى فاعلًا للخــير، مرفوعًا عن الشر، بعيدًا عن النصــب، ومُضافًا لعبادك الصالحين، ومجــرورًا لتقواك)**، لم يكن يحب أن يردد وراءه الدعاء لأن أمين رأى فيه سُــخريةً غير مُحببة باللغــة، بل إنه هاجم بشــدة ذلك الفيلم وذلك المسلســل، الذى كان فيه مــدرس اللغة العربيــة القصير القامة، الممثــل الكوميديان يوازى اللغــة وتعليمهــا بالعصا والعنــف، لكن أمين كان يداعب أمه ســعاد هانم بســؤالها أحيانًا عن جمْع (حليب) و(أخطبوط) و(وحيد القرن) و(كلينيكس)؛ فضحكت ســعاد هانم وقالت مرة **(جمعها مناديل ورق يا أستاذ أمين)**.

صحا أمين من نومه على صـــوت أمّه، ودخول الحقائب، وترحيب الســـت نجية بها، ســـمعها تسُرُّ إلى أمه بخوفها على بنتها صباح التي لم تحمـــل بعد رغم زواجها من ســـنتين، وأن صباح تحلـــم أو تتصور جنيًا يعاشرها بالليل وأحيانًا بالنهار إذا ما غفت، حاولت سعاد هانم طمأنتها غير أن الست نجية صرحت بأنها خائفة من احتمالات حمل صباح من الجنّي، وعن ســـؤالها الدائم لأمها (**هوه المولود هيبقى شكله إيه يامّه، فيه ناس بتقولّي هيبقى مسْخ؟ صحْ يامّه**).

غسل أمين وجهه، أخذته أمُّه في حضنها وسألته عن حكاية الدبّور، فلـــم يُجب، آثر الصمت وفضّلـــت هي التكتّم عـــلى الموضوع، وغلقِه نهائيًا.

سُعاد هَانم

لم تكتسب سُعاد هانم أهميتها فقط من أنها والدة أمين، الشاب الغامِض حديث العائلة، لكن لأنّها أيضًا كانت المُهندسة سُعاد، خريجة كلية الهندسة جامعة القاهرة قسم مدني، زميلة زوجها المهندس سامح، نفس الكلية، قسم ميكانيكا.

لم تُحب سُعاد هانم لقب المهندسة كثيرًا، وكانت تُفضّل عليه لقب الهانم، بصرف النظر عن أنه أصبح مكروهًا، ولأن له انعكاسات اجتماعية كثيرة أضرّت بالرجال، أساءت إليهم فيما يخُصّ الأحوال الشخصية، لكن سُعاد هانم.. كانت هانم فعلًا، ليدي Lady، سيدة عقيلة وزوجة كريمة.

كانت في أواخر الخمسينيات، طِلعت معاش مبكر، حتى تهتم بأمين وإخوته، ويمكن أكثر حتى تهتم بزوجها الذي اعتبرته أحد أولادها،

وربما لتهتم بابنتها نرجس المُثيرة للمشــاكل، إن لم تكن للفضائح، وأكيد فضّلــت ترك العمل، حتى ترتاح من وجَع الدماغ، ولتهتم بنفســها أكثر وأكثر كامرأة شغوفة بمعنى الأنوثة ومفهومها.

عقصت سُــعاد هانم شــعرها للخلف، في تمويجــه وتسريحة غير عادية، تسريحــة فنيّة مُتداخلة مع بعضها البعــض، وكأنها لوحة فيها استرسال وطبيعية، ورونقٌ غريب يُشع من عينيها.

كان لون شــعرها البني الدافئ يزيّنه (هاي لايت) بلون الكراميل والعسل، يناسب بشرتها الزيتونية؛ فبدت محلّ الإعجاب والتعليق من النســاء قبل الرجال، كن يتهامسْــن سرًا بأنها تشــبه جانيت جاكسون، أخــت المرحوم مايكل، الذي أصيب بالبهاق (المرض الجلدي المنتشر في العالم، الذي يزول فيه اللون الطبيعي للجلد، ذلك الخلل في الخلايا التي تنتج الصبغة في الجلد، فتظهر رقعٌ بيضاء على أجزاء مختلفة من الجلد على الجســم)، وكأنه مرضيًا كان يشــتاق إلى اللــون الأبيض فدُفع إليه دفعًا وظنه الناس يتجمّل.

ෆ ෆ ෆ

كانت سُــعاد هانم شديدة الاعتناء بنفســها، والسيدات اللاتي في سنّها يكن محلّ إعجاب الرجال والنساء، خاصة إذا ما احتفظن بلياقتهن الجســدية رغم الحمل والولادة، وبالتحديد إذا مــا تفادين المبالغة أو الرغبة في التصابي.

ارتدت سُــعاد هانم تايير رمادي فاتح (چيــب وجاكت)، وبلوزة

قرنفلي فاتح، وحذاء حريمي خالص، كعبه متوسط الارتفاع، مفتوح من الخلــف لونــه وردي Pink، تحمل في يدها (بورتفيه).. شــنطة صغيرة مستطيلة رمادية اللون، حوافها وردية كذلك، تزيّن غطاءها فيونكة من حبّات الخرز الهادئة اللون.

كانت سُعاد هانم تضع وشاحًا كشميريًا ناعمًا نبيذيًا سخيّ اللون، وبروش يرصّعُ صدرها، كطاووسٍ بألوان قوس قزح، كل شيء كان جميلًا بكل رقة وترتيب.

ꕥ ꕥ ꕥ

لمّع الســايس زجاج الســيارة الأمامي فزاده غباشة، أطلقت سُعاد هانم مياه التنظيف والمسّاحات، مُنطلقة بسيارتها إلى بازار خيري، على متن سفينة عائمة بالحيّ الراقي بالزمالك لصالح سيدات التحرير، لم تكُن تدري - فعلا - إن كان هناك «سيدات للتحرير»! م لا...؟

كانت الأمســية بدعم من محل حُلي ومجوهــرات معروف، ذكَر في إعلانه على الفيس بوك، أن الأســعار ســتكون خاصة لأعضاء جماعة «الإينرويل» Inner Wheel فقط.

كانت هناك مجموعة من المشغولات الجلدية الرائعة، كلها صناعة يدويــة مصرية مُتقنة، منقوشٌ عليها عبــارات مثل (مصريتي كرامتي) و(العاقــل لا يرى ثمنا لنفســه إلاّ الجنّة)، وأســماء مثل (هايدي وعبير وســليم)، ولزوم التحرير كانت هنــاك خواتم وأيقونات، تحمل الألوان الثلاثة للعلم المصري الأحمر والأبيض والأسود، لكن بدون النسر.

تركت سُــعاد هانم سـيارتها بمفتاحها مع سايس السفينة، دخلت بمشـيتها المعتدلة وقامتها المفرودة، في تؤدة وثقة، بابتسـامة طبيعية جميلــة، ووجه يحمــل مكياجًا خفيفًــا، ماكيــاچ اهتم بظلال الرموش والعينين، مع أحمر شفاة قرنفلي.

أطلّت على النيل، وعلى الجزء الظاهر لها من القاهرة... في الضفّة الأخــرى: ماسـبيرو ووزارة الخارجية وبنايات تجاريــة أخرى، تجاذبت أطراف الحديث مع بعضٍ من صديقاتها، تأملّت الخشب الزان الداكن الثقيل المؤســس لديكور الســفينة، تناولت بعض لقيمات من البوفيه وانصرفت.

كانت سُــعاد هانم.. أم أمين، أصغــر أخواتها، ظلّت تنام في حضن والدتهــا حتــى آن أوان زواجها، فنامــت في حضن زوجهــا، وظلّ هو ملاصقًــا لهــا تمامًا، بصرف النظر عن وجود علاقة جنســية من عدمه، لما تقدّم بهما الســن انتابها رعبٌ حقيقي من احتمالات وفاته، وبصرف النظر عن السن (والموت علينا حق)، و(كلّنا لها)، إلاّ أن مشكلة سامح أنه كان دومًــا ما يُشــعر سُعاد هانم بأنه سيموت الآن وغدا وبعد غدّ، ومن ثمّ اعتادت سُــعاد هانم على قراءة القرآن ليلًا، وعند قراءتها تلك تكون مُنتبهة؛ فتصاب بالأرق.

كانت دائمًا ما تكرر لنفسها (**لو الراجل ده.. جراله حاجة.. ماحدّش هايفضلّي ولا هيفضالي.. وهموم الأولاد رغم إنهم كبروا، كتيرة**).

في إحدى المرّات، استخدم المهندس سامح زوج سُعاد هانم، أسلوب (الكُهْن والصَعْبنة).. وقال لامرأته:

- **أنا حاسس بالموت، مش حاسس إني باموت، لأ.. حاسس بالموت جاي مع الريح من الشارع، وكأنه عايز يدخل من تحت عَقب الباب.**

قال كلماته في تمهل مشيرًا بسبابته اليمنى ناحية الباب، سقط قلب سعاد هانم في قدميها، أحسّت بأنها تغرق في لجة موجة مجهولة، بدأت ترى زوجها جثة هامدة تنتظر الغُسل والكفن والصلاة والدفن.. عندئذٍ رأت غيمًا أسود يغطي باب غرفة النوم، وأحست بريحٍ باردة تُثلج قدميها، ريحٌ تُوخزها وتكاد تكسر عظامها، ارتعشت وانتفضت وكادت تبكي، فانتبهت ولمّت شذرات نفسها، بدأت تواجه أحاسيسها بحياةٍ جديدة، قررت أن تناوشه وتنكُشه وتغيظُه؛ قالت:

- **طيب والموت هاييجي من تحت عقب الباب ليه؟ ما قدامه البلكونة والشبابيك مفتوحين على آخرهم؟**

ومرّة أخرى أخبرها أن أيامه قرّبت، صاح كالمسكين:

- **هوّ أنا يعني هاخلّل؟**

ردّت عليه سُعاد هانم ضاحكة:

- **آه هوّ إنت يعني أحسن من البدنجان.**

لم يضحك أبو العيال، ولم يتمكن من الردّ، أطرق رأسه في حزن، ممثلًا أنه مُكتئب وبائس للغاية، ليخرج عليها فجأة بردّ من العيار

الثقيل:

- **سُعاد... أنا عايز اشتري الكفن.**

ضحكت سُـعاد وألقت برأسـها إلى الخلف، همسـت في أذنه في شقاوة:

- **إن كان على الكفن مش هانغلب يا سيدي.**

ولما ذكرت كلمة الكفن بحروفها الثلاثة، رأت القماش الأبيض، يلف سائر أنحاء جسـده ما عدا الوجه، جفلت.. ثم ابتسمت قليلًا، تذكرت كتـاب التاريخ الذي ذكر فيما ذكر، أشـهر الأكفـان في العالم في مدينة تورينو الإيطالية، وكان الناس يعتقدون أنه كفن السـيد المسـيح، وأن البابـا قام بإخفائه إبان الحـرب العالمية الثانية خوفًا من أن يأمر هتلر قواته بالاستيلاء عليه.

كانت تتفوه بكل تلك الكلمات الشـُجاعة الضاحِكة، تتأوه وتتألم، خائفة من الموت وسيرته، ومن أي ذكرٍ للقبور وما شابهها، لكن خلاصة الكلام، أن سـامح أفندي، كما كانت تلقبُه الست نجية **(ماكانش عنده كلمة حلوة يقولها، وإن كان عنده، كان بيستخسر يقولها... مع إنه مش بخيل، هوّ بس كان حريص شوية).**

ᏩᏩᏩ

كانت سُعاد هانم، الباشمهندسة سُعاد، قبل خروجها معاش مبكر، تعمـل في هيئة المجتمعات العُمرانيـة، كانت رئيس قطاع المشروعات،

ومســئولة عن تراخيص المباني والإسكان والمصانع في منطقة العاشر من رمضان.

سُــعاد المديرة دوغري، بالضبط مثل سُعاد الإنسانة دوغري في كل حاجة، حتى في مشــاعرها، أما وقتها الخاص مع أمين، وحضنها الذي لا تســتغني عنه مع أبو أمين، كوّنا الجزء الناعم لقوتها، التي كانت تظهر في اجتماعات مجلس المدينة.

الــكُل يعرف أنها حقّانية، وكانــت إذا تكلمت.. تكلّمت دوغري، وبالتــالي كان أصحاب المصالــح يخرجوها من اللجــان المختلفة، حتى تستمر تجاوزاتهم أو بالمعنى الدقيق فسادهم.

التخطيــط العمراني المنقول من دولٍ أخرى، لا يناســب مجتمعنا الشرقــي، لازم البيت يكــون تحته دكان، أو مينــي ماركت، ومكوجي، ويا حبذا بائع فاكهة وخضار، وســلام لو تعــدّدت المحلات، حتى يزيد التنافس، فتعتدل الأسعار وتتحسن الخدمة.

ولمــا أصرّت اللجــان المختلفة على عــدم الأخذ برأيهــا، انتشرت عشــوائيات فتح المحلات وخلق الأنشــطة (غصب عن عين الحكومة.. وعيني عينك.. والمسألة في جيوب مفتشي الحيّ)، ربما كانت سُعاد هانم تــأبى أن تري القُبــح مفتوح العينين، لذلك لم تنســحِب، لكنها فضّلت تسوية معاشها بدري والاهتمام بأمين ونرجس.

في طريــق عودتها إلى البيت طالعت الأكشــاك والمحلات الصغيرة ومحلات السوبرماركت المُنتشرة في عشوائية، عدّلت نفسها في مقعدها

وتذكــرت اجتماعــات الهيئة العمرانيــة، ولما نظرت في مرآة الســيارة، تأكدّت من أن ماكياچـها تمام، وأن ذاكرتها بخير، غير أن نظرة الحزن في عينيها، أكدّت لها أن البلد ليســت بخير، وأن أخطبوط الفساد له ألف ذراع وذراع.

✿ ✿ ✿

عادت سُــعاد هانــم إلى البيت، لاحظت أن النــور مُضاء في غرفة أمــين، كانــت على يقين أنه نائم أو أنه يرتاح، غير أنها في كل الأحوال لم تشأ أن تزعجه.

الصُفَّارَة

كان أمين جالسًــا على طرف سريره، ســمع صوتًا مدويًا، كمدفع الإفطار في رمضان، مدويا في أذنيه.. لا يملك منه فكاكا: أقتـُل.. أقتل.. فقام واقفًا.

أُقتُل.. فعــل أمرْ.. هزّ أمين رأســه قليلًا علّ الصوت يذهب، يختفي.. لكنه عاد أقوى.. «أقتـُل الذباب».

«أقتـُل الذبــاب» لـُعبة.. أمــين.. لقد تركت النافذة مفتوحة؛ فدخل الذباب..

يرتعش أمين، هيئ له أنه رأى ســكينًا حادة عــلى طبق فارغ، ربما كانت هنــاك تفاحة وأكلها أحــد، يمكن نرجس ويمكن بابا أو ماما أو الســت نجية، لكن فارس.. لا، فارس لا يحب التفاح، فارس يُحب اللحم فقط.

تصور أنه يمد يده ليمســك بالسكين جيدًا من مقبضها ليضرب بها ولدًا في عينه، ذلك الولد الكبير ذو الشعر الكثيف المنكوش، الولد الضخم الذي تعوّد على ترهيبه وإذلاله في المدرسة، رأى الولد الكبير يرتمي على الأرض جثة مُمددّة غارقة في دمها، يحوم حولها الذباب ويلتصق بالعين المخزوقــة، يلعق الذباب الــدم البارد.. ينزعج أمين للمشــهد؛ فينهض مُمسكًا بالطبق والسكين، يحملهما بنفس طريقة الجرسون.. يسير مثله في تؤدة وأدب، ينحني ليضعهما على حافة ترابيزة الســفرة الكبرى، ثم يعود أدراجه إلى سريره في سكينةٍ وهدوء.

ග ග ග

همس أمين لنفســه (**من ترك البلد مفتوحــة من بطنها؛ فدخلت السكاكين والرصاص والسنَج والجنازير..**).

عقب ذلك ضحكة مجنونة عابرة، ران بعدها صمتٌ رهيب ثم أتى الصوت إذاعيا مضحكا «**اضرب الذباب بالماوس!**».

«**اضرب البلطجية بالإعلام والمدفعية!**»..

حاول أمين الاستلقاء على السرير يقظًا متنبهًا..

هههها.. عَلَت ضحكة نسائية، رقيعة، كانت للضحكة أبعادًا أخرى مزّقت صدر المكان، رأى أمين أعداءه في المدرســة، هؤلاء الذين تعودوا سرقة أدواته المكتبية وأكل سندويتشــه المُفضل، ينكمشون ويصغرون ويصيرون كالحشرات المختلفة الحجم والشكل واللون، حشرات تزحف زحفــا بطيئًا مُملًا على جســده، تُغطيه من رأســه حتــى قدميه، وهو

مستسلم للحظة، غير عابئ، أو علّه فضّل السكينة تفاديًا لمعركة أخرى لا يمكن حســاب نتائجها الآن؛ فمن المحتمل أن يأكلوا قدمي وأصير بلا قدم، وبلا عكاز أيضًا، مثل رســم الجرافيتي، لا.. رسم الجرافيتي كان له عكاز، وكانت خلفه امرأة جميلة ترقص الباليه بساق واحدة على البحر، امرأة مرسومة وملوّنة، لها طعم ورائحة الملح والصخر والشاطئ.

أعقب الضحكة النســائية الرقيعة صوتٌ حــاد رفيع يصيح (**انتبه هنــاك حــشرات، حشرات أكبر مــن الذباب تتربص بك يــا أمين، انتبه، أقتــل أو تُقتل**)، لعبة يجب أن تَقتل فيهــا كل الحيوانات والبشر، لكى تسْلم قبل أن يقتلوك، يجب أن تكون حذرًا، طريقة اللعبة تعتمد على المؤشرات وعلى غباء العدو الشــديد وعلى الماوس.. آه إذن هو «الغباء والماوس».. ردّد أمين الكلمتين في ملَل، ثم ضحك ضحكة عبثية:

«**هههاه الماوس مرة أخرى! أم الماوس... والكيبورد كمان!**».

بعدئذٍ أتى الصوت مجلجلًا، فيه خشونة ورعونة (**إذن فهو الذباب والبــشر والحيوانات!.. والســلاح الماوس والمــؤشرات، ما هي المؤشرات إذن.. الله يعلم**).

تردّدت الصور كذبذبات أجهزة الإرســال.. «**سيهديك الله وستعلم كل شيء يا أمين، كل شيء إن شاء الله**».

هزّ أمين رأســه هزًا عنيفًــا.. ســمع صوتًا كفحيــح الأفعى: «**أقتل الكلب قبل الراعي**».

أقتل بيــل Kill Bill.. (صاح أمين لنفســه: آه.. **أقتــل بيل.. أقتل**

الكلب قبل الراعي)..

مسَــح أمين على جبهته، حكّ فروة رأســه وصــاح **«ياه أقتل بيل، كانت العــروس تحمل طفلا قبل دخولهــا الغيبوبة، ولما أفاقت ذهب الطفل، استعاضت عنه بسيفٍ أسطوري لكي تنتقم. نعم لكي تنتقم»**.

كانــت رنّة صفارة فيلم «أقتل بيــل» تـُصفـّر إذا رنّ موبايل أمين، وكان هــذا أمــرا مُميزا جدا وســط رنّــات أخرى وطنيــة ودينية، مثل دعاء الشيخ الشــعراوي (اللهم إني عاصيك)، وأغنية شادية (يا حبيبتي يا مــصر)، ورنّات أخرى كثــيرة، منها رنّة مُضحكة فيهــا صوت الممثل الكوميــدي توفيق الدقن يصيح (آلو يــا أُمم، وهو جرى إيه في الدنيا.. هي الناس كلها بقت فتوّات والاّ إيه؟..).

❧ ❧ ❧

تمشّى أمين في الصالة، ورد على خاطره شعر اللورد بايرون:

« ليكن نورًا قال الله، فكان نورًا !
لتكن دماء قال الإنسان، فكان بحرًا من الدماء..».

❧ ❧ ❧

صفـّــر زكي وماجد وآخرون، كلٌّ بصفـّارته الخاصّة، واحدة من بين الأســنان، والأخرى بِضمّة الشــفاه، والثالثة باســتخدام اليدين، وأخرى بإصبعين في فتحة الفم، كلـّها كانت إشارات للنزول واللقاء عند الكُشك، نزل بعضهم بفانيلاّت النادي الشــعبي، والآخرون بتي شيرت الألتراس،

وناس أخرى عادي بتي شـيرت وبنتاكور أو شـورت وشبشـب بصباع، أو جزمة كاوتش، تجمعهم سـمات خاصة واهتمام خاص، كان شكلهم ذاهبين للنادي لحضور المباراة، لمح زكي أمين وهو واقف عند الشـباك؛ فنـادى عليه، في البداية عمل أمين نفسـه غير مهتم، تظاهر بأن النداء ليس له، أو أنه لم يسمعه، لكن لما ألّح زكي، هزّ أمين رأسه، ونزل وسط الشـلّة التي كانت تحبُه وتراه شـخصا طيبًا، وأحيانـا كثيرة لا حول له ولا قوة.

كان أمـين يرتدي القميص ذي الأكمام الطويلة، والبنطلون العادي الطويل، والحزام المرفوع بالبنطلون إلى البطن، كان لا يدخن السـجائر، وبدا قريب الشبه من عبد الحليم حافظ في فيلم شارع الحُب.

لم يكـن يفضّل الأحضان أو القبلات، لكن حميمية ترحيب زكي به كانت عِوضًا له عن كل ذلك، سأله زكي:

- **ما تيجي معانا يا أمين!**

هزّ أمين رأسه علامة النفي، ووعد بمشاهدة المباراة في التليفزيون.

لم تضغط الشـلّة عـلى أمين، وارتاح هو للقائهـم العابر ورحيلهم السريـع، وبسرعة صعد إلى منزله، جلـس في الصالة مع والدته لمتابعة المباراة.

لم يهتم أمين كثيرًا بأحداث المبـاراة الحقيقية: الكورة يعني، لكنه اهتـم جدا بتراصّ الجمهور الأحمر بصيحاته وهتافاته المنظمّة، بحركته الدائرية نهوضًا وجلوسًـا، مما أشـاع جوًا من البهجة والقوة والتمّكن،

لاحــظ صعود أحدهم أعلى الصفوف ليقــود الهتاف، ركزّ ولاحظ أنهم يحفظــون الهتاف ويــرددّون الأغنية، كانت الأغنيــة جميلة في لحنِها، غريبة على مســامعه، بدأت: بـ هيه..... هيــه هيه هيه... بصوت عال جدًا.. جماهــير غفيرة تهتف في صوتٍ واحد، وجهـًـا لوجه أمام رجال الشرطــة، نجومٌ كثيرة، وخــوذاتٌ كثيرة، وزيّ رســمي معروف، كلماتٌ قويــة هادرة، أقوى مــن صيحات مجنّدي الأمــن، وهم يهجمون على المتظاهرين، كان الضبّاط واقفين منتظرين... وبدأت الأغنية:

(يا غراب ومعشش...)

صاح أمين وقام واقفًا سائلًا أمه عن لحن (يا غراب ومعشش)!؟

ضحكت سُعاد هانم وقالت:

- **والنبــي يا أمين انت تضّحك قــوي، هو اللحن كده قريّب من (يا عريس يا صُغيّر).**

أكمل أمين وهو يدور في الصالة ويدندن:

- **«علقة تفوت ولا حدّ يموت» هههههاي.. هي العلقة دي كانت الطهور يا ماما.**

ضحكت سُعاد هانم مرة أخرى وقالت:

- **أيوه يا أمين إحنا طاهرناك متأخر... على ٨ سنين كده.**

في حركة تلقائية وضع أمين كلتا يديه على أعضائه التناسلية، بانت

على وجهه علامات الخوف والألم، سرح بخياله يوم قادوه لابسًا الجلابية البيضاء دون اللبــاس الداخلي، لم يفهم لماذا يقودوه، ولماذا خلعوا عنه غياره الداخلي، ولماذا ذهبوا به إلى المستشــفى؟.. ولما فاق من التخدير أحس بألمٍ فظيع، نظر تحته فوجد عضوه ملفوفًا في الشــاش، ظن أنهم قطعوه، بكى بكاءً مُرّ أدى إلى نزيفٍ ســخيف، اســتدعوا الدكتور الذي طــمأن الجميع، وحــذّر أمين من الانفعال، قال لــه في أذنه (ماتخافش يــا أمين.. حمامتك موجودة.. احنا بــس وضّبناها من فوق).. ظلّ أمين يتصور عُضوه مُهذّبا بالجراحة، حتى أزالوا الشــاش ورآه، فاستحســنه.. لكنــه ظل يعاني من الوجع لفــترةٍ طويلة، كما أنه ظلّ يتفحصه مُحاولًا معرفة كيف قطع الدكتور الغَلفة بهذه الدقة.

صاح في أمه قائلًا:

- **ليه يا ماما، ليه؟ ليه العذاب ده؟**

ضحكت سُــعاد هانم، وأشــارت إليه بالجلوس إلى جوارها لمتابعة المباراة، دقّق أمين، أصاخ الســمع وركــز، التفت إلى أمه مصفقًا بكلتا يديه في فرحةٍ ونشوة وبهجة، تكاد تقترب من حدّ الهوس:

- **هو سؤال ساذج صحيح يا ماما.. ليه الأمن عامل نِقرُه من نِقر الناس؟.**

ردّت سُعاد هانم ضاحكة:

- **أقولــك إيه والاّ إيه يا أمين، المفــروض شيء والواقع شيء تاني خالص!**

تتابعت الأغنية الهتاف مدوية في جنبَات الإســتاد، موجهة معانيها القاسية إلى رجال الشرطة.

أصبح أمين طفلًا لا يملّ من الأســئلة، وبدَت سُــعاد هانم في حالة نكوص هي الأخرى، لم تكن لديها فرصة لالتقاط أنفاسها، تذكرّت كيف كان أمين في صغره، يســألها **(ليه يا ماما شعرك أسود ومجعد؟ وعينيكي سرحانة في الهوا كده ليه؟).**

أخذت سُعاد هانم وضع الاستعداد وقالت:

- **هه يا أمين، اتفضل اسأل عايز تعرف إيه ؟**

- **همّا صحيح دخلوا كلية الشرطة بالرشوة؟**

- **الله يعلم يا أمــين، كلام الناس كتير، بيقولوا يا إما ولاد ظباط، يا إما دفعوا فلوس.**

رفَّصّ أمــين بكلتا رجليه في الهواء، الواحــدة تلو الأخرى، ضاحكًا راقصًا.

ضحكت سُعاد هانم من قلبها وقالت:

- **أصل الباشا معظم حاجته بلاش والناس بتجامله، ويعني بيعمل مصلحــة هنا ومصلحة هناك. بس للأمانة مش كلهم، إنما مُعظمهم، ده مرة طالبوا مبارك بزيادة الأجور ردّ عليهم بأن جنيه الشرطة بتمانية.**

هــدأ أمين بعد ثورته المُتســائلة، بــدأ يهتم ويدقــق لأن كلمات

الجماهير الكروية كانت قاسية، ولأن الشرطة لم تُمهل الشباب ونزلت فيهـم ضرب وإهانة، خاف على أصدقائه وزملاء حيِّه، وعرف فيما بعد أن بعضهم قد قبض عليه ثم بُرئ لتناقض أقوال الضباط.

مّرت الأيام وسـافر الفريق، وسـافر معه جمهوره والألتراس، ردد أمين في صوت عميق:

« ليكن نورًا، قال الله فكان نورًا
لتكن دماءً، قال الإنسان، فكان بحرًا من الدماء..
ونعم كان بحرًا من الدماء...»

صفر بفمه صفارة القتل اللذيذ في فيلم (أقتل بيل)!

كان بحرًا من الدماء، ونامت العاصمة في كفن.

أتـت إليه بغداد في المنام؛ فلم ينم كـما النوم.. مزجٌ من الهلاوس والخزعبلات والهرطقات (في الحلم رأى نفسه مع أخيه يركبون سيرفيس الميكروباص، وأمامهما عُمر سـليمان، وضع أمين يده على كتفه، وسأله: **هـو مين اللي بيسـتورد الشـماريخ؟، هوّ السـلاح الأبيـض محلّي والاّ مُسـتورد..؟** حلم كذلك أنه كان في عيادة نفسية جرى منها إلى الشارع، ومشى عريانًا إلى الإستاد، ولما أدرك أن الناس يحدّقون في مؤخرته، أحسّ بالمهانـة والذُل تصورّ الناس، كل الناس، يسـخرون مـن منظره، أحسّ بالذنب لأنه لم يحسب حساب الأمور؛ فعرّض نفسه هكذا للسخرية.

شدّ فوطة من السايس المسئول عن (الباركنج)، وغطّى بها نفسه، ولما أحسّ بأنها وسـخة، دخل إلى محل ملابس داخلية مشـهور، توسل

إليهــم أن يعطونه بوكسر، لكنهــم أعطوه لباس دمّــور فلاحي بحبل؛ فربطه...

تلخبطــت أفكاره تمامًا، تعكر صفوه، نهض من نومه مليئًا بالحزن فتح الشباك، فلفحه نسيم بارد).

اتخذ طريقه إلى جانب والدته في الصالة متابعًا باقي الأخبار.

جاء صوت دمدمة الغســالة وقلقلتها، وضجّتها غير المعهودة جليًا واضحًا، أمين وأمه لم يتمكنا من الاهتمام بتلك الغسالة، لأنه من الممكن أن يحصــل لها عُطل، لكنها بعدما ضَجّت، صمتت فجأة، صمتت صمتًا رهيبًا،

غرقــت الصالة تحت أقدام أمين وسُــعاد هانم، بمياه حمراء بلون الدم.. أدركت سُعاد هانم أن فانلة أمين الحمراء، لم يحتمل لونها برنامج الغــلْي القاسي؛ فتفتت اللون الأحمــر، وأن الفانلة صبغت كل الملابس، وأن الطفح كان مُغرقًا.. أما أمين فوضع رأسه بين يديه، وأجهش بالبكاء؛ اهتزّ جسده كله في عصبية شديدة، كان أمين حافيًا، غطت قدميه المياه الحمراء اللون، وتمتم لنفسه:

« ليكن نورًا قال الله، فكان نورًا
لتكن دماء قال الإنسان، فكان بحرًا من الدماء»

دخل في نوبة بكاء هســتيرية ؛ فيها نهنهة وتخشــبت أطرافه.. لم تفلح معه ربتات أمه سُعاد ومحاولًاتها المتعثرة لتهدئته.

رددّ لنفسه :

«من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض؛ فكأنّما قتل النّاس جميعا»
«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً»

صرخ أمين بأعلى صوته.. علا الصوت في أذنيه.

صفيرٌ عال خارق لطبلة الأذن.

انطفأ النــور، خرس التليفزيون الثرثار، خرس كالغســالة، وصمت كالراديــو، حتى الشــارع والعمارة والأروقــة، لفّها كلها ســواد حالك وظلمــة كئيبة حالكة.. لم يميز أي ضوء إلا ذلك المُنبعث من بيت ليلى، ران صمــتٌ رهيبٌ.. إلاّ من صوت صفارة إنذار، ونباح الكلاب أتت من خلف البيوت الغارقة في الظلمة.

ليلى

ولدت ليـلى بنت الجيران، نسـمة صيف هادئة، تدخل القلب بلا استئذان، إذا مـا أطلّت من النافـذة، نـوّرت الدنيا، وإذا خطت بخطواتها المحسوبة خارج العمارة، شاع في الشـارع جوٌّ من البهجة والغبطة، وامتلأ الناس في غدوّهم ورواحهم بالبشر والرضا.

كانـت خمرية قمحية مصريـة فعلًا، طويلة نحيفة وكأنها راقصة باليه تمشي على الماء، جسدها يمتد في الفراغ يشقـُه، ويخطو نحو الهدف المعلوم والمجهـول، في إيقاع يرصد التحـدي والاطمئنان ويؤكدهما.

عام ١٩٨١، تولى مبارك الحكم وبعدها بثلاث سـنوات ولدت ليلى، ربّاها أهلها على أساس أنها سـلحفاة بلا صدفة، كائن ضعيف لا حول له ولا قوة، كائن يحتاج للذهاب إلى المدرسة في أتوبيس

المدرسة، ويحتاج لمن يختار له ملابسه، وممنوع أن يشترك في أي رحلات أو نشــاطات، تتضمن المبيــت خارج بيته، كانت ليــلى تفتقر، إلى حد كبــير، المهارات الاجتماعية، كائن هش بصنــع العائلة الكريمة، وضعتها كالحجر الكريم في علبة المجوهرات، وغطّتها بالقطيفة، لفّتها في ورق سيلوفان.

تبدو ليلى للناظر إليها أقرب ما تكون إلى الملكة الفرعونية الساحرة نفرتيتي، المرأة ذات الوجهين، وكأن النحّات الذي نحت تمثالها، قد أعاد نحته من جديد.

كانــت ليلى رقم أربعــة، الأصغر بين أخواتها، آخــر العنقود، لكن لا أمّها ولا أبوها شــاء أن يرانها ســكر معقود، فالأم عســكرية المزاج، مشــدودة الخطى، لاقت من الأزمــات والصدمات مــا جعلها جامدة الملامح، شــحيحة العواطف، صلبة العود شديدة المراس، لم تشأ لابنتها أن تكون أنثى ضعيفة، ولا بنّوتة حنونة ولا حتى غزال شارد.

أمّا الأب فكان يراها بعيون الذكر المســئول بحماقة عن ولاياه، لا ماكيــاچ ولا تليفونــات ولا خروج ولا تأخير، أخبرتهــا أختها إيمان ذات مــرة على الموبايل (**إوعي يا بت يا ليلى تطلعي البيت كده، أبوكي فوق وهينيّل عيشــتك لو شــافك بالماكياچ**)، ورغم ذلك شدّت ليلى ظهرها، وخففت ماكياچـها.

تقدمت ليلى إلى الأمام قليلًا، ما أن فتحت الباب، وسمعت صريره، أحسّت بيد أبيها الضخمة تهوي على وجهها في عنف، وكأنها لص يسرق البيــت، كان كالحارس اللدود الذي أمســك بالمجرم فجأةً، ظلّ يضربها

بكل قوته وكأنها أحد عساكره أيام كان في الخدمة، كان مختبئًا كالخفير، ينتظرهــا ناحيــة الباب، ضربَها كما لو كان يضرب لصًا، مســح الماكياج من على وجهها بالحائط، ورّم ســحنتها وصاح وصرخ بألفاظٍ نابية حتى انهــارت ليلى ولم تجد بدًا إلا أن تقف أمامــه، عيناها في عينيه، ووجهًا لوجه، صاحت:

- **(كده إنت أب.. كده إنت جــدع.. كده إنت بتربي.. كده إنت صــح... إنت غلط.. إنت مش فاهــم حاجة)**.. ردّدت **(إنت غلط.. إنت مش فاهم حاجة)** ردّدتها بصوت عال سمعه الجيران.

انطلقت إلى غرفتها، تنتحب نحيبًا مكتومًا، حتى نامت وقررت أن تقاطع أبيها تمامًا، لا كلام ولا مشــاركة ولا ســلام ولا أكل ولا سؤال ولا يحزنون، ولا أي حاجة.

في نحيبِها المخنوق، غطّت وجهها دموعها، انبطحت على وسادتها آخــذة وضع الجنين، تراءت لها الأيام والآلام، وتذكرت الليالي الســوداء بعدما ترك أبوها الجيش بمعاش مبكر، وهو عميد، ليبني مشروع حلمه الكبير، ليبني جمهوريته وعساكره في فندق لم يخطط له جيدًا، استدان من البنك ليبنيه في منطقة شعبية قرب أخرى سياحية.

تذكرت أيام خدمته العسكرية، غرابته وكآبته وهمّه وغمه وحزنه، كانت هي وأمها وأختها وأخيها يدركون تمامًا، أنه مضغوط ومحاصر في بزّته العسكرية، في عقيدته وتربيته، في ضبطِه وربْطه.

ولما ترك الميري لم يتركه الميري، لما خلع البزّة العسكرية ظلت عليه،

كانت أمها تقول دائمًا **(يا ليلى أبوكي ساب الجيش والجيش ما سابوش).**

كانت ليلى وهـــي تحاوره، تســـأله دائمًا ولا يـــرد.. وإن ردَّ ردّ ردًا مختلفًا لا علاقة له بالســـؤال، حينها تيقنت أنه أب يُرســـل ولا يستقبل نهائيّـــا، ولما ضاقت بهم السُـــبل، وحُجِـــز البنك على الفنـــدق الذي لم يكتمل، هرب الأب إلى أقاصي الصعيد، مرةً ليختبئ بين عشـــيرته، ومرةً خارج البلاد إلى السودان.

اضطرّت أم ليلى إلى العمل بيديها وأســـنانها، اســـتلفت من طوب الأرض حتى تفك الديْن، وحتى يعود الأب إلى حظيرته سالمًا، ظنت ليلى أنه ســـيعود منكسرًا أو حافظًـا للجميل، أو حتى متغيرًا لكنه عاد أسدًا جريحًا مُثخنًـا بالجراح، رجلًا عســـكريًا مهزومًا، لا يطيق النظر في عيون من لهم فضلٌ عليه.

مرة وهو نازل يتمشى، كلمته إحسان زوجته، أم أولاده، طلبت منه أن يحضر معه في طريق الإياب خبزًا، كانت مكالمة موبايل قصيرة، صرخ بعدها في الشـــارع **(انتي يا هانم بتطلبي من سيادة العميد عبدالقادر زكريا إنه يجيبلك عيش؟)**.. أغلق الخط في وجهِها ونزلت إحسان يومها لتشـــتري الخبز، ولتقف مع الناس في طابورهم، دون أن يهتز لها طرف، لكن حلقها طفح بالمرارة.

مسَحت ليلى دموعها، ورتبّت شعرها كيفما اتفق، حاولت النهوض من سريرها، والتخلص من وضعها الجنيني.

اعتدلت وقامت وقالت لنفسها:

- **عندي أصحاب بيشوفوني مُهمّة، قِيمة وصحبة حلوة، وأصحاب تانيين بيشوفوني الساحرة الشريرة في حياة الناس كلها!**

تمتمت ليلى لنفسها ما تمتمت به، فتح أبوها الباب، فصاحت في وجهه قبل أن يطل بطلعته الجهمة:

- **الدين بيمنع إنك تُخش على بنتك كده من غير ما تستأذن.**

قال في هدوء:

- **ما هو أنا ماخدتش بالي.**

أدركت أن لحظة الإحساس الزائف بالذنب قد انتابته، وأنه ربما جاء ليخطُب ودّها طمعا في أن توافق على عريس، أو منعًا لمقاطعتها الشرسة، لكن ليلى وقفت قبالته بكل صلابتها وقالت:

- **لو سمحت إطلع من الأوضة عشان عايزة أغيّر.**

خرج الأب عن طوره سريعًا، ونسى لحظة الاعتذار ولحظة الذنب، صرخ في وجهها رافعًا يده في الهواء ليضربها.

استجمعت ليلى كل قواها، لملمَت نفسها، وكررّت طلبها له بالخروج من غرفتها فورًا، لأنها ستغيّر ملابسها وأعقبت:

- **حضرتك لازم تعرف إن أنا مش هاتحمّل أي إهانات بعد كده... أبدًا..**

خرج الأب متنمرًا، يصفق الباب خلفه في حنق وعصبية، مضى وهو

يبرطم ويرطن، يسـب ويلعن كل شيء، وأمامه كانت الست إحسان تنظر إليه في حنق وغضب شديدين.

غيّرت ليلى ملابسها، خرجت إلى الصالة في بيجامة قطنية، وهي تلم شعرها إلى الخلف في ديل حصان.

رفعت رأسها عاليًا.

كانت هناك محطات كثيرة في حياتها توقفت عندها وراجعتها، باتت مقتنعة أنها لن تتحمل أي إهانات بعد الآن، لم تعد هناك ضرورة لذلك التبجيل الوالدي «المزيف»، أو الرضوخ لعبودية رجل شرفه ينحصر ويمتد إلى ابنته صورة وشكلًا.

كان أهلها دائمًا ما يضعونها محل مقارنة، مرة مع أختها إيمان، ومرة مع زوجة أخيها آمال، نظرت إليها أمها وهي تتأملها وقالت لها:

- ليه يا ليلى انتي مش طالعالي، ليه مش ضاربة الدنيا صرمة، أختك هي اللي زيي.

أخذت ليلى نفسًا عميقًا، أخرجته ببطء من صدرها وردّت على أمها في هدوء:

- أنا بكره هابقى أحسن منكوا انتو الاتنين.. هابقى جريئة وفنانة وواثقة من نفسي.. وجميلة في كل حاجة.... أنا دلوقتي أحسن منكو انتو الاتنين.

لم تصدم الست إحسان من لهجة ابنتها، كان رد ليلى هادئًا مُتمكنًا

واثقًا مليئًا بالإحساس، همهمت الست إحسان وتمتمت لنفسها قائلة:

- **يا رب...**

ثم ابتسمت ودمعت عيناها.

في اليـوم التـالي خرجت ليـلى، وأبوها نائم، لم تخـف ماكياچـها وأصرت عـلى أن تضع كحلًا، وأن تسـوّي حاجبيها، وأن تظهر حُسـنها قدر إمكانها، تمشـت في نفس الشارع الذي قطعته في ذلك اليوم الذي لن تنسـاه أبدًا، ذلك الشـارع الضيّق بين بيتها والمدرسة، كانت أربعة عشر سنة وقتذاك، حينها كانت قد بلغت منذ عام تقريبًا، فار جسدها وناداها واختبأ خلف المريلة الكُحلي، والشنطة التي حمت بها صدرها، وخبأته من نفسها ومن عيون الذكور.

كان الصباح باكرًا، لا أحد يسير في ذلك الطريق، تخيّلت نفسها فوق مُرجيحة، ودّت لو كانت حرّة، حرّة فعلا بجدّ، همسَـت لنفسها (**عايزة أتمرجح على طـول، عايزة أصحى وأكسر الخـوف وأطلع من الحلم**).. كانـت في بـزوغ مراهقتها، تفاحة على غصن شـجرة يحملها عنقها في تعب، كانت رغم صغر سـنها يزدحم عقلهـا بالأفكار، وتمتد دنياها إلى الفانتازيا اللانهائية وكانت تمشي في لاوعيها، وعقلها كله مشاعر.

قالـت عواجيز العائلة من النسـوة الحيزبونـات (**ليلى معضّمة وسـمرا، مش بيضا ومليانة زي بنات العمدة**).. ضحكت ليلى لنفسـها مستهزئة وقالت (**أنا باحب شكلي، لوني، بشرتي، باحبّ وشّي..**).

كانــت وهي في الرابعة عشر من عمرهــا، في طريقها المعهود من البيــت إلى المدرســة، والأرض فضاء والشــارع خلاء، لمحت شــابًا يكاد يكبرها بعشرين ســنة، ذا ملامح أوروبية، عينان زرقاوان، شــعره أشقر وبشرتــه بيضاء محمرّة، نظرت في عينيه مباشرة؛ فبادلها النظرة في مركز صدرها مخترقًا الشنطة والمريلة الكحلي، أسرعت الخطى؛ واقتربت من مدْرستها، انحرف الشــاب يسارًا ناظرًا خلفه، ولما دخلت فصلها سألتها مُدِّرستِها عن ارتباكها، فتحلقت البنات حولها في فضول عظيم، غير أنها هزّت رأسها، وأراحت صدرها من ثقل شنطتها، فردَت ذراعيها في الهواء واستنشقت هواءً حرًا عميقًا إلى صدرها، وقالت كما تقول البنات:

- **عادي... عادي يا مِس.**

لما عادت ليلى إلى بيتها، شــغل الشــاب الأوروبي الشكل تفكيرها، ظنته أجنبيًا ســائحًا، أو خواجة عابر ســبيل، ولمــا صحت من نومها في اليوم التالي ابتســمت، لأنها حلمت به يبتســم لها ويمسك يدها في رقة شديدة، أخذت شــنطتها في حضنها، نزلت في الشارع الخالي المُمتد بين مدرستها وبيتها، وعند المنتصف فاجأها الشاب الأوروبي الملامح، اقترب منهــا بُغتة؛ فواجهته متصدية له بشــنطتها، وكأنهــا حارس بدرع يصدّ العــدو المهاجم، نظر في عينيها في عمق ومدّ يده بين فخذيها فصرخت، ضربته بالشنطة على وجهه؛ فضحك متأملًا غضبها، الذي زادها جاذبية وجمالًا، قال لها في وقاحة بالغة:

- **ما هو انتي اللي عايزه كده.**

اهتزت قدماها وارتعشــت، كادت تسقط، لكنها تمالكت نفسها..

وفجأة وجدت نفسـها تجري تسابق الريح، ولما وصلت مدرستها، رأت الفراش واقفًا علي الباب بعمته وكرشه وجلبابه.. اطمأنت، ومرة أخرى تحلقت البنات حولها، وسـألتها المدرسة المشرفة على طابور الصباح في حزمٍ وإصرار:

- **مالك يا ليلى، وشّك مخطوف ليه؟**

- **أبدًا يا مِس مفيش حاجة.**

صاحت بنت من خلفها:

- **يمكن بتحب جديد..**

واستغرقت البنات في كركرة متداخلة الأصوات، وكأنهن يزقزقن أو يوشوشـن الودع، أو علهن فرحات بإمكانية أن تحب إحداهن ولدًا أو شـابًا فتحظى بمشـاعر الوله والغرام، وتستمتع بالفراشات التي تشغل مُحيـط بطنها وتنتشر من سرّتها، تطفو عـلى جلدها وتناوش صدرها؛ فتنتفض مخيلتها ويتورد وجهها ويحمر خجلًا وغبطة وسعادة.

ظلت ليلى، طول النهار شـاردة، تجمعها أحاسـيس مختلطة من الغبطة والغضب، التوتـر والقلق الراحة والترقب، لكنها في كل أحوالها تلك، كانت في منتهى الغضب من كلمة ذلك الأوروبي الملامح **(انتي اللي عايزه كده)**، **(آه يابن الكلب.. أنا اللي عايزه كده!)..**

حاورت نفسـها وهي في الفصل غير منتبهـة للدرس، وهي تمشي من المدرسة إلى البيت، وفي البيت وهي تأكل وتسير، وهي تدفن رأسها

في الوســادة، لتبكي وتسمع صوت تنفســها، وصوتها وهو يتساءل **(هو أنا ممكن فعــلا.. أكون عايزة كده؟)**، ولما تعبت من التفكير والسرَحان نامــت، ولم تصحــو إلا في الصباح، لم تتذكر أحلامًــا، ولم تتألم ولم تفرح، انكفأت على ذاتها وصارت بلا ملامح.

لم تكن ليلى تبكي لما حدث، لم تشحب بسبب إلا لأن أمها لم ترَها، كانت تعاملها كشيء، تعلم هي أن حمل أمها فيها لم يكن مرغوبًا؛ كما أخبرتها أختها.

سمعت أمها تحكي لأحد أقاربها:

- **ليلى شاطرة وذكية، مجتهدة ومؤدبة وبتسمع الكلام.**

وقفت ليلى أمام أمها وقالت لها:

- **مــش مهم كل الصفات الحلوة الــلي بتقوليها دي، المهم أكون مِتشافة صح، ومسموعة أكيد.**

أخذتهــا أمهــا في حضنها، فلم تحــس ليلى بالــدفء، ولم تتمكن مــن الضمّ كما يجب أن يكون بين البنت وأمها، غمرها إحســاس قاتل بالتفاهة، إحســاس قاس بالأنانية، كيــف لأم تتمنى لابنتها التخلي عن أنوثتها، أن تكون عسكري.. نسخة منها.

كبرت ليلى وتخرجت فنانة تشــكيلية، ظل جسدها حبيس فكرها، ســألت نفسها كثيرًا **(كيف ســأكون إلى جوار جسد زوجي في الفراش؟ من أكون؟ أنا حتى لو كنت حبيبته، أنا لســت أليسا ولا هيفاء وهبي،**

ولن أكونهما، إنهما مجرد موديلات للفرجة، لعب في جسـديهما جراح التجميل، لِمَ أفكر بهذا الشكل؟) ظلّ جسدها نائمًا مترددًا، تتأمل وجوه النـاس المهمومة والمرايا العاكسـة للضوء وللظـل في الفنادق الفخمة وترسمها.

في صالـة العـرض الفنية (الجالـيري) رأت ليلى لوحـة لرجل من القرون الوسطى، يرتدي بزة الحكم والقتال، رجلٌ يحمل في يده سوطًا، يرفعـه ليهوي به على إحدى الجواري الحسـناوات، كانت اللوحة على درجـة من الدقة والإتقان، ظهرت فيها نظرة الرجل مليئة بالشر والنار، كعيني أبيها وكانت يده المرتفعة بالسوط قبيحة الشكل والمعنى، كانت البنت في اللوحة تمتلئ بالخوف، وعلى الرغم من ذلك بانت أكثر جمالًا، جمالهـا الصـارخ كادت تنطق بهـا اللوحة، انتقلت عيناهـا إلى لوحةٍ مجـاورة مماثلة، لكـن البنت فيها تُمزق حبلًا يربطهـا إلى جذع نخلة، تمزقه قطعًا بأسـنانها، فلـم يبق فيه إلا فتيل واحد، تنفسّـت بسرعة، ثم هدأت، انسـحبت دمعة في عينيهـا، أدارت وجهها الناحية الأخرى لصالة العرض فوجدت محمود، أحد زملائها في الكلية، كانت هي وهو واللوحات ذات الأشـكال المعوجة فقط، أحسّت للمرة الأولى أنها بشر.. إنسـانة، بني آدمة، تسـتقبل مضمون اللوحة وإضاءاتها وعتمتها، قبل ألوانها وأبعادها، سألها زميلها محمود:

- **انتي اتغيرتي قوي يا ليلى؟**

- **وانت كمان يا محمود، هو فيه حدّ بيفْضل على حاله إلا البليد.**

- **لأ عاجبني فيكي إنك بقيتي تغلطي وتهزّري وتسبّي، تنتقدي،**

وتتهكمي.

أكملــت ليلى الجُملة وهي تنتقل من لوحــة لأخرى كانت لامرأة ذات عنقٍ مشرئب، وكأنها تشهق رغبة، أو تتأوه غرامًا، يطلوها الأزرق والأحمر القاني:

- **لأ.. وكمان بقيت أدافع عن نفسي، وأبالغ في ضحكي وسخريتي زي ما أنا عايزة.**

ضحك محمود عاليًا وراح إلى آخر صالة العرض.

رأى ليــلى مُتكونة في اللوحات، تقف مشــدودة القامة مبتســمة الوجــه، فيها نضارة وحلاوة، وكأنها الجزء الحــيّ الجميل المُتمثل بشرًا وسط حلاوة المكان، جاءت وسط لوحة مزدحمة بوجوه نسوة شعبيات يتسلقن الحوائط ويملأن الجراكن بالمياه، يشدّون أطفالهن إلى جوارهن، والمياه تنزل شحيحة من صنبور أعلى السور.

كانت ليلى كالماء المنهمر، كالسور المكسور، وكالسماء الزرقاء.

ليــلى فقط يهمُّها في المقــام الأول ماذا تريد هي، مــاذا تودّ، ماذا ترغب ما تريد أن تلمس، أن تشــعر داخلها بأنها أنثى حقيقية؟، أنثى لا تبالي بتهم الاســترجال الممســوخة، غصن أخضر يقف في وجه الريح، مداعبًا نسائم الصيف دون خوف.

ولما انتبهت من شرودها كان محمود قد اختفى.

نعــم هرب محمود قبل أن تتذكر ليلى أنها تســتطيع أن تســبّ،

فهذا الحقير تخلّى عن صديقتها وتوأم روحها بعد ثلاث سنوات ونصف من الارتباط والرباط والعاطفة وفائض الرومانسـية من طرفها، وفائض تمثيل الرومانسـية من جانبه، تركها لكل الأوغاد قاتلي النسـاء، قالتها بالإنجليزية Lady Killer.. تركها الحقير لأنها ابتعدت عنه حياءً وتمنعًا وموقفًا، عندما حاول تقبيلها، كانت مجرد ذريعة، المهم راح وراح معه شرّه وسفاهته وغطرسته.

توفت جدة ليلى، أم أمها في آخر سـبتمبر قبل الثورة، كانت سيدة مصريـة بامتياز، وقـت أن كانت أم ليلى مشـغولة بعملها ومحاولاتها المُستميتة للملمَة أطراف مشكلات زوجها المُتفشية، كانت الجدة تقوم بتربيـة ليلى وأخواتها، وبذلت مجهودًا كبيرًا مع ليلى تحديدًا، لأن وقت ولادتهـا كان عصيبًا، وكانـت أم ليلى تتمنى لو تفرّغـت، فتفرّغت لها الجدة.

تأثرت طباع ليلى بجدّتها إلى حدٍ كبير، ولم تسـتطع ليلى أن تغفل سـيرتها، وأن توثقها ولو في مدونة بسيطة (على قدّها) فكتبت: **(جدتي أم أمـي.. كانت تموت في الضحك، الله عليهـا، وتموت في صحبة الناس الحلوين، كان كل ما حاجة تتلخبط، أو ناس تحكي عن مشكلة حصلت، ترد جدتي وتقول: وإيه يعني؟ لكل عقدة حل وحلال، ممكن المشـكلة دي تتحـل بكذا وكـذا.. جدتي دي كانـت أكبر وأجمل مولـد للطاقة الإيجابية لكل اللي حواليها وأولهم أنا. عاشـت مبسـوطة عشان عايزة تكون مبسوطة، مش عشان الحياة كانت مثالية).**

تعلمت ليلى منها كيف تخلق سعادتها بنفسها، لأن الحياة بطولها وعرضها لن تخلقها لها. حزنت ليلى لفراق جدّتها حزنًا قاسيًا أليمًا، وفي كل أزمة وفي كل لحظة يأس أو فرح أو حيرة تذكرها بالخير، تترّحم عليها وتبــكي في نهنهة، تنخرط في نحيبٍ عال، كلما تذكرتها وكلمّا وحشــتها.. تلك الجدّة العظيمة.

بعــد ثمانية أشــهر من وفاة جدّتها الأولى، توفــت الثانية أم أبيها، كانت تُحبها بشــكل غــير عادي، كانت ليلى هــي المفضّلة و(اللي على الحِجْر).. و(اللي على راســها ريشة).. (ونني عين جدتها)، كان هذا يثير غيــظ وخنق أطراف كثيرة كبيرة وصغيرة من عائلة الأب، لكن الجدّة لم تأبه ولم تتأثر، ولم تلق بالًا لأي شيء، صرحت تلك الجدّة تصريحًا غريبًا، لم يكن صحيحًــا، لكنها أرادت له الصحة، وأعلنته، وأكدت أنه لا يجوز النقاش فيه، قالت (**ليلى بنت من طراز خاص، فنانة مبدعة من صغرها، لها تفكير محدد وشخصية ذات اتجاه مشرف، صحيح (لاسعة) وغريبة الأطوار، لكنها مقدامة وجســورة؛ ومن ثمّ فهي أول حفيدة تحمل اسم العائلة**) ساعتها ضحكت ليلى وقالت لأبيها في لحظة صفاء، وقت شربه لشاي العصرية في البلكونة: (**قال يعني عيلة محمد علي باشا هاهاها..**).

ولما ضحكــت ليلى وقالت تلــك الجملة الســاخرة، غضب أبوها ونحّى كوب الشاي جانبًا، ثم قام واقفًا في صمت متوجها إلى غرفته.

لم تهتــم ليلى بمصالحة أبيها، لكنها اســتمرت في اجــترار ذكريات جدتهــا، وكيف كانت ترســخ في عقيدتهم، أن الأسرة تتخذ اســمها من

الفعل (يـأسر) أي (تأسر أعضاءها إليها)؛ فـلا تكون أسرة إذا تفككت لُحمتهـا أو فقدت وظيفتها. (لازم الناس تكون قُريبة من بعضها ولازم تحـب بعضها).. تلك الجدة غير العادية، علمّت ليلى ألّا تعتمد على ما تتلقاه من تعليم في المدرسة، وأن تتجوّل في المكتبات العامة، وأن تفتش في مصـادر المعرفة، فرّحت ليلى جدتها بعد اختراع الإنترنت وانتشـاره وقالت لها (**عارفة يا نينـه، ربنا يخليلنا جوجل**)؛ ضحكت جدتها حتى دمعت عيناها وسألتها (**مين جوجل ده يا ليلى، اسم غريب قوي**).

حكت ليلى فروة رأسـها بطرف أصبعها، محاولة تبسيط المعلومة، ولما غلب حمارها قالت لها:

- **ده حاجة كده زي مصباح علاء الدين على الكومبيوتر، تكتبي فيه الكلمة تطلعلك عنها كل حاجة.. صور وفيديو، حتى أمهات الكتب.**

هزّت الجدة رأسها في إعجاب، مصمصت شفتيها وأشارت إلى ليلى:

- **برضه الكتاب الورق ده له ريحة وطعم خاص، إوعي تستغني عنـه أبـدًا، اجري ورا العلـم، في الشـارع، في الجحـور، في القبور.. في التليفزيون، ومع عمّك جوجل.**

ضحكـت ليـلى وضحكت جدّتها، استرسـل كل منهـما في قهقهة طويلـة، ما أن يتوقفا حتى تقول إحداهما للأخرى (**عمّك جوجل**).. ثم يسترسلان مرة أخرى، في ضحك هيستيري مجنون عذب له حلاوة وفيه صدق.

لما توفت جدة ليلى لأبيها تحول الضحك المشـترك إلى غضبٍ عارم

عنيـف، لم يكن حزنًا على إطلاقـه، لكن صارت ليلى عصبية، خلاص.. لم يعد لها جذور ولا جدود، إحساس مخيف سخيف للغاية، كأنها نفسها أصبحـت كبيرة وعجوزة وفي الطريق لأن تكون أمًا وجدّة، (لأن الواحد طول ما عنده جد أو جدة، بيحس معاهم إنه صغير).

أحسـت ليلى بترهّل نفسي، حتى مشـيتها تغيّرت ثـاني يوم وفاة جدتهـا، ولمّا التقت العائلة في العزاء فتحت ليلى تويتر Twitter..قرأت خبرًا عن قبض الشرطة على «نشطاء» من غير تُـهمٍ محددة.

كانت ليلى، من خلال عملها و من خلال بعض الندوات التي كانت منتظمـة على حضورها، ومن خلال تواجدها الكثيف وتفاعلها الحميم على مواقع التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) و (تويتر)، فهمت وأدركت يقينًا أن القبض على الشـباب (النشطاء) غلط.. وأن هناك قهرًا وظلمًا وأحذيـة غليظة وبيّادات وقانون طوارئ، ولما سـلمت شرطة الداخلية الشـباب إلى الشرطة العسـكرية ببزاتها المميزة وقبعاتها الحمراء، تلك التي صارت لها اليد العليـا والكلمة الطولى والعصا الكهربية، ووراءها معسـكرات الاعتقال والمسـتقبل المجهول.. نعم سلم عساكر الداخلية باسـم قانون الطوارئ (النشـطاء) إلى الشرطة العسكرية سيدة المكان والزمان، كانت ليلى غاضبة لموت جدتها، يخنقها الفقد والفراق، وكانت أيضًا شـديدة الانفعال، صرخت وسـط الصالة بعلو الصوت (ليه... ليه **اتقبـض على دول ليـه؟**)، كانت ليلى عرفت كذلـك أن الحقيقة على الأرض، غـير تلك في الإعلام الفاسـد، وأن الغبار والدمّ والدخان واللحم الحيّ والرصاص والقنابل، غير الصـور الملونة والبذلات الأنيقة وأربطة

العنق المشـــكلة اللون، وغـــير الأحاديث المنمّقـــة.. وأن الأرض وعبقها وصوتهـــا ودمدمتها، مختلفة عـــلى الإطلاق، عـــن الأرض المتخيلة على النت، عـــلى توتير والفيس بـــوك.. لهذا قررت أن تنزل بنفســـها لتفهم والتعرف عن قرب، لتتعرف وجهًا لوجه على هؤلاء (النشـــطاء)، لتدرك من هم؟ وما قاموا به؟ وما هي تهمتهم و(شكلهم إيه أصلًا).

أحسّ بها أبوها، وقف بجســـده الضخم يسدّ الباب، وصاح في زئير سبق أن عرفته وسمعته بل وحفظته.

- **رايحه فين يا ليلى؟**

- **نازله.**

- **رايحه فين يا ليلى؟**

- **نازله يا بابا أشوف أصحابي.**

مدّ يده عليها، اتهمها بالزندقة والسفالة.

لم تخـــفْ، واجهته وأصرت من بين أســـنانها على حريتها، أمرته ألاّ يلمسها مرة أخرى، صرخت في وجهه:

- **أنا مش كلبة... ومش قاصر وعيب اللي انت بتعمله ده.**

تنحى الأب عن صدر الباب، خرجت ليلى لتتنفس هواء الشـــارع، ولتملأ عينيها وذاكرتها بالجرافيتي وبالناس.

على السور المقابل لســـور الجامعة الأمريكية بالقاهرة كان هناك

شاب بساق واحدة، يدكّ الأرض بساقٍ خشبية، ويخطو بالأخرى في دأبٍ وعزّة، رُسِــمت خلفه على الجدار لوحة ملونة بديعة، لوحة مرســومة بدقــة لراقصة باليه ترقــص، أمامها في الفضاء وخلفهـا البحر ورائحته الخاصة، الوشــم والودع والسمك والفريســكا وصوت الآذان الآتي من مئذنة عمــر مكــرم، ورائحة الضــمادات والدواء ترتفع مــع الأنفاس والدخان معه نحو السماء.

بعدمـا نزلــت ليلى إلى وســط البلد إلى مــسرح العمليات، لاقت أولادًا وبنات شــكلهم عادي، لا يتعدّى أكبرهم الخامسة والثلاثين، لكن أغلبهــم كان أصغر منهــا، كانوا فاهمين وواعين لــكل ما يحدث، كانوا متمرسّــين.. وواضح أنهم عاصروا الكثير وعاشوا، كانوا مثل كل الناس لا شعرهم أخضر ولا لابسين أسود (مثل غرباء الغرب)، ولا أنوفهم بثلاث فتحات، كانوا شــبابًا طبيعيًا، لم يكن أحــد منهم معوز ماديًا، وليس له غرض شــخصي يريد تحقيقه بتواجده هناك، وبفعله هنا وبإصراره ذاك كان الهدف الأهم والغرض الأشــد، هو الإفراج عن زملائهم.. لم تكن في ســلوكياتهم نعرة ولا صلف ولا غرور.. ولا حتى لهم هيئة ثوار أمريكا اللاتينية.

كانت هــي المرة الأولى التــي تلتقي فيها ليلى بهــم وجها لوجه، بعضهــم كان يعرفها من تويتر ومن مدونتها الخاصة، ضحك منهم ولد ذو شــعر أحمر بذقن حمراء نابتة، يميل إلى القصر ويشــع منه الذكاء، سألها مداعبًا:

- **منين على مدونتك فيه أرانب وفراشــات، ومنين جايّة تَقفيلنا**

..ام الشرطة العسكرية؟

ابتسمت ليلى ابتسامتها المعهودة وهي تطرق رأسها، لم يكن لديها أي رد، فباغتتها بنت بسؤال:

- **انتي جاية لمين هنا ؟**

قالت ليلى:

- **أنا ماعرفش حدّ، بس مش عاجبني اللي بيحصل.**

ضحكت البنت ذات الشعر الأسود الناعم الداكن والحاجبين ..وسين شديدي الكثافة، ضحكت عاليًا وقالت لها:

- **طيب تعالي اقعدي معانا، إحنا بنحاول نتصل بإعلام شريف شوية، وكمان مُحامين.**

ولم تكمل البنت جُملتها حتى سرحت ليلى ببصرها بعيدًا، كان هناك شاب تعرفه جيدًا، جارهم الهادئ الطلعة السمح المُحيّا.. أمين، يخطو وكأنه يمشي على الجليد، التقت عيناه بعينيها، استغرب وجودها هنا واستغربت وجوده هناك، وما أن استقرّ به المقام في الدائرة، جلس وعقد ذراعيه على ساقيه، أطرق رأسه إلى الأرض ثم رفعهَا وقال:

- **إزيك يا ليلى.. انتي وصلتي امتى؟**

ضحكت البنت ذات الحاجبين الكثيفين والشعر الأسود لليلى وقالت:

- **بتزاوليني يا ليلى وبتقولي إنك مش جاية عشان حدا!.**

احمرّ وجه ليلى وقالت مدافعة عن نفسها:

- **والله ماكنت أعرف أن أمين بييجي هنا.**

قالت البنت:

- **أمين بييجي ويـروح، زي الطيف.. مش مُنتظـم، مفيد قوي، هدوءه خطير.. وإحساسه المخابراتي هايل.**

جاء الشـاب ذو الشـعر الأحمر بنبأ الإفراج عن المقبوض عليهم، قامت ليلى وقام أمين، نظرت إليه وكأنها تراه للمرة الأولى، قالت له:

- **كده انا ارتحت انهم خرجوا.**

قال أمين:

- **اللـواء أبو كرش ونحاس كتير طلع بيهـم وطمّنا، قالهم عيب كـده يا ولاد ما توزعوش ورق تاني.. الورق اللي عليه رأيكم خليهولكم، بلّوه واشربوا ميّته.**

ابتسم أمين، نصف ابتسامة، ولم يعقب.

مشيت ليلى ومشى أمين، سألته:

- **اليـوم ده علّمني أن أهـلي ما فهّمونيش حقوقـي وواجباتي السياسية.**

رد امين في اقتضاب:

- طبيعي.. بس ده معناه إننا لازم نعلّم أولادنا يعني إيه سياسة وحرية وحقوق إنسان... هاتروَّحِي؟

هزت ليلى رأسها بعلامة الإيجاب.

اتجها ناحية المترو.

غابا تحت الأرض.

ركــزّ كل منهما في صوت عجلات المترو داخــل الأنفاق، مُحركاته، أبوابه، ناســه، أنفاسه، اصطداماته، بياعينه، دنياه، كل ذلك العالم تحت الأرض... ولما خرجا من تحتها، فوجئا بسيارة بورش حمراء تمرُق بسرعةٍ خطــيرة هددّت المارة والواقفين، تخيل أمين نفســه على مقعد القيادة وهو بســيطرته على الســيارة البــورش وعلى الطريــق والدنيا والمارة أجمعين.

أما ليلى فلقد دققت النظر في سائقها، تأكدّت أنه ذلك الشاب ذي الملامح الأوروبية، ذلك الذي تحرش بها منذ حوالي عشر سنوات.

ليلى وأمين

بدت مـصر كامرأةٍ حُبــلى وضعت وليدها وســط النار والغضب، وسـط الموت والرصــاص، أغلق الحاكم الهواء وقطع كل ســبل الاتصــال؛ فتعمق التواصل بــين الناس، كان بطن الأرض يرتفع إلى عنان الســماء، ماءٌ من الخراطيم المرتبكة، شهداء تحت عجلات السيارات المجنونة، ورصــاص يلعلع في الســماء وفي الصــدور.. زنابق حمــراء وبيضاء تنبــت على أســطح البيوت وفي شرفاتهــا، تــزدان بقلــوب البنــات والأولاد وهم يلـّفون أوشحتهم على أنصاف أوجههم اتقاءً للشرِّ والغاز، يصرخون بعلامة النصر، يتحدّون شــيوخًا ونسوة.. أطفال وعجائز وباعة شايٍ وأعلام.

ارتقت مصر بوساختها؛ فظهر بياضها ونقاؤها كاللــبن الحليــب وابتســامة الوليــد، نامت مصر على علــم، وزغردت على كفــن، ورددت أهازيج وأناشــيد، هتفت وغنّت بلادي كما لم تغنيها أبدًا،

أراد الشعب وأسقط النظام من رأسه، حقق على الأسفلت أمنية، يثبت تلك القدرة الفائقة على تحقيق الأحلام والتغريدات.

كان الأمــر تلقائيًا.. مُنظّمًا جارفًا، مُنســابًا كلوحــةٍ سريالية، تبلور مفهــوم الوطن الذي بدا للبعض كســمكةٍ مملحة، ولم تعد البلد زنخة كما تصور آخرون.

ꕥ ꕥ ꕥ

بعدما مرت الســيارة البورش الحمراء، بنفس درجة لون بيريهات الشرطة العسكرية، تجهمت ليلى، وأســودّ وجهها من الغضب، التفت إليها أمين، مال عنقه قليلًا ناحية اليســار، مال ناحيتها محاولًا تهدئتها بابتسامة لم ترها، رفعت وجهَها إليه وسألته:

- **المســافة مش طويلة ومش قصيرة تحب نمشــيها.. والاّ نركب مواصلة؟**

لم يحتمل أمين نار الغضب الطالعة من عينيها، فتمتم:

خشب المراكب من الصَنْد.. في البَحر ياخد مهاجُه
واجب على الحُرّ يتبع الصَمْت.. لما النَدل ياخد مهاجُه

انفعلت ليلى أكثر وصرخت في وجه أمين، فعاد خطوة إلى الخلف، قالت في صرختها:

- **وده مكانه من الإعراب إيه؟.. إيه لازمته دلوقتي؟**

- ده ابن عروس!

- **ما أنا عارفة إنه ابن زفت، أنا مش باسأل على الشاعر.**

لم يُمهلهـا أمـين امتصّ غضبهـا بهدوئه غضبًا عنهـا، تأمل صفحة وجهها وقال:

- **أنا فاهم كويس إنك مبتسأليش على الشاعر، انتي غضبانة من المعنى: واجب على الحُرّ يتبَع الصمت، لما النذْل ياخد مهاجُه.**

صمتت ليلى وهما يسـيران جنبًا إلى جنب، وبعـد أن قطعا جزءًا يسـيرًا من أول الطريق، كانت بالفعل قـد هدأت قليلًا، غير أن وجهَها المائل إلى الحمرة بفعل الغضب، كان قد ازداد تغضنًا وألمًا:

- **ليـه الحـُـرّ.. أي حـُرّ يتبَـع الصمْت لما النـدل ياخد مهاجُه؟ الحُرّ مايتبعـش الصمت أبدًا.. ولا من باب المِطاطِية للريح العاتي، أبدًا ماينفعش، شفت الولاد اللي اتقدّموا الصفوف في مجلس الوزرا ومحمد محمود والقصر العيني.. كانوا عاملين إزاي؟**

تعـثر أمين قليلًا.. حاول أن يغير من مجرى الحديث، غير أنه وجد نفسـه في قلب الحدَث، كانا قد قطعـا الطريق الطويل بالعرض وصارا بمـوازاة عمارات متشـابهة، تحتها يسـير أولاد الديلفري.. المتسـولون واللاهـون، ينظر إليهم من أعـلى صُيّع البلكونات، النسـوة الخالياَت البـال، والرجال ذوي الفانيـلاّت بالحمالاّت، يطلعوا بشـعر صدورهم يتأملوا الصباح في أرض مصر، قال أمين:

- **أنا عاشق لأغلفة مجلة التايم الأمريكية، كل غلاف حكاية، كل غلاف تاريخ.**

ردّت ليلى:

- **أنــا فاهمة قصــدك كويس قوي، بــس انت تقصــد أي فترة تاريخية بالظبط؟**

كاد أمين يتعثر بقدمه اليمنى وهو يركل الرصيف، تمّهل، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- **أنــا باتكلــم عــلى ١٩٥١ و ١٩٥٢، محمد نجيــب أول رئيس لجمهوريــة مصر على غــلاف مجلة التايم، يملاه لوحــده، وقبله صورة محمد مُصدّق، ووراه برج حفار بترول بالنار مشتعلة فيه.**

اهتزّ جسد ليلى منتفضًا، دقت الأرض بقدميها وصاحت:

- **أيوه وصورة محمد نجيب وهم بيشــدّوه مــن دراعه اليمين عشــان يحطّوه في الإقامة الجبرية ٢٠ ســنة يا ولدَاه، ومُصدّق من ٥٣ لـ ٦٧.. ١٤ سنة، نفس طريقة الشدّ والعزْل والجهْل. تفتكر يا أمين مين اللي رافض يسمح لحَد، أي حدّ، بتأسيس نظام ديمقراطي في بلده.**

ضحك أمين عاليا، زرّر زرار قميصِه من عند الرقبة، ثم شدّ الأكمام وأغلقها أيضًا، اندهشت ليلى تمامًا من هذا الفعل المُفاجئ، وندّت عنها ضحكة مكتومة وسألته:

- **أمين.. انت بتعمل إيه يا أمين؟.**

بدأ أمين يغني مُخنفًا صوته:

- «لو بتحبّوا البلد دي خلّوا عيونكم عليها»

انفجرت ليلى في الضحك ولم تدرِ ماذا تقول، وقفت وكأنها تشاهد مسرحية بممثل واحد ومن فصلٍ واحد:

- **تعرف يا أمين؟ انت زيّ السُكّر.. دمّك خفيف بطريقة عجيبة، إيه يا واد المواهب دي؟ ناقصك ساقية وشجرة وتليفزيون.**

ضحك أمين، وراقه أن تُخبره ليلى بإن دمّه مثل السكّر، ربَت على كتفها وقال:

- **شوفي، التليفزيون المصري تقريبًا مابيذعش غير الأغنية دي، وأغنية شيرين عبدالوهاب (ماشربتش من نيلها)، طيب يا عمّ الأستاذ أدينا خلّينا عينينا عليها، خدوا حبّات عينينا وطيّروها بالرصاص، بُصّ بقولك إيه في آخر الأغنية (بلدي كريمة وأصيلة، لو دقّ أبوابها مين).**

ردّدت ليلى:

خلاص يا عم أمين دقوا أبوابها كتير.. الغجَر والوطني والأمريكان والإخوان.. حتى البدو الرُحّل... وهي كريمة وأصيلة، غيّر المشهد يا أمين.. غيّر خلاص.

حاول أمين أن يسير معتدلًا، وأن يكون جادًا، نظر إلى ليلى وهما يسيران جنبًا إلى جنب:

- **عارفة يا ليلى كتبوا إيه عنك في الفيس بوك؟**

تنهدّت ليلى مُتأمّلة وجه أمين وهو يحاول أن يكون جادًا؛ فتنفرج شفتاه قليلًا بالطيبة، وقليلًا بالمزاح، تُشّع عيناه بالفرحة والبراءة.

- **كتبوا إيه يا أمين؟**

- **قالو: (ليلى صارت رفيقة الميادين تاج الراس وكحل العين).**

فتحت ليلى فمها في دهشة وابتسامة، ثم أطرقت رأسَها وقالت:

- **يا سيدي كتّر خيرهم، أنا مش عارفة يا أمين منين بتجيلي دفقات الطاقة المتابعة دي، بتسري في سلسلة ضهري، بين أكتافي وفي آخر رقبتي، ماباقدرش أركز ولا أهدأ ولا أستقر في أي وضع، طاقة بتدفعني لفوق في دفع متتابع ماباتحكمش فيه، كإنه مش جِسمي.**

تأمّل أمين كلماتها، لكنه لم يملك جرأة التعقيب، صمت.. ثم راح أمين يسأل:

- **مش عارف ليه ساعات ما باتحكّمش في غضبي، بيبقى عندي رغبة أكسّر الترابيزة الرخام اللي قدّام مذيعة التوك شو، بابقى عايز آكل الديكور واقرقشُه حتت، كإني باشتهي أمضغ حتّت من الخشب، عايز أجيب الكدّابين اللي بيرغوا في التليفزيون من قفاهم وأعضّهم من رقابيهم، ادخّل راسي جواهم، أجيب قلوبهم وأفرّج عليهم العالم.**

بانت الدهشة على وجه ليلى وظنّت أمين صار واحدًا آخر غير الذي تعرفه:

- **إيــه ده يا أمين؟ إيه الشرّ ده كلُه، محمود المليجي والاّ توفيق الدقن.**

صرخ أمين من بين أسنانه وقال:

- **لااااا... الرجل الأخضر.... آآه..**

ضحكــت ليلى مرةً أخــرى، انحنت بجسِـــدها متوقفة عن المشي، دمعت عيناها وانهمرت دموعها مِدرارة:

- **أمين إنت كوميدي جدًا النهارده.**

رد أمين بسرعة:

- **بُصّي على البيريه الأحمر هتلاقي فيه كتير من دلالات السلطة.**

ردّت ليلى:

- **أيوه.. وشوف الطماطم تعرف أدّ إيه هي مجنونة.**

قاطعها أمين قائلًا:

- **وتِلت علمنا أحمر والبطيخ الحلو أحمر، والدم أحمر، وتشيرت الأهلي أحمر، والغولة عينها حمرا، ومؤخرات القرود حمرا... بس سيبك من كل ده يا ليلى تعرفي إنك حلوة قوي.**

وعلى الرغــم من أن ليلى وأمين كانا قد قطعــا طريقًا طويلًا من الشـــارع في الظل والشـــمس، وفي الدخول إلى أعماق الآخر.. إلاّ أن كل منهما أدرك، أن أجْمل الوجوه في الصباح ليس أحلاها خِلقه لكن أكثرها

ابتسامًا.

اعتــبرت ليلى أن مُجاملة أمين كانت ردًا على مجاملتها له بأن دمّه خفيف ومثل السُكر، ران بينهما صمتٌ طويل قطعه أمين قائلًا:

-   حلمت امبارح بدمّل في رأسي، الدمّل خَد مســاحة راسي كلها، ظهر على دماغي من فوق، وبقت جُمجمتي كلها نقط كبيرة حمرا.

ضحكت ليلى في هيستيرية وقالت:

-   حمــرا برضه؟ مش ممكن يا أمــين!.. تعرف يا أمين أتمنى إنها تكمِّل على طريقة شكســبير، وكل المجرمين في النهاية يموتوا، ويسيبوا الناس تعيش في هوْل الصدمة.

قاطعها أمين في إصرار وقال:

-   تيجي نعمل فيلم نسمّيه (شكسبير يمكنه أن يطلقكم أحرارًا) يهرّبوا فيه المساجين بدماغهم بس من زنازينهم.

ابتسمت ليلى وأعقبت:

-   طيــب ما هــو الفيلم شــغـّال يا أمــين.. كل مســاجين طره -بعــد الثورة أحرار ذهنيًا- يا أمين أنا طول عمري باحترم الشرير الذكي، وباحب استفان روستي أكتر من حبّي للبطل المثالي.

بدا أمــين مُهتمًا بليلى وبــدت ليلى مُهتمّة بأمــين، ليس من باب الجــيرة والعشرة واللعبــة والصحبة واعتياد الرؤيــة، لكن من باب أن

هناك رابطًا غامِضًا يجمعهما، يشدّ كل منهما إلى الآخر بقوة.

كانا قد اقتربا من شارعهما، قالت ليلى:

- **هه.. أدينا وصلنا أهه، ما تشيلش همّ البلد كده.**

رد أمين بسرعة:

- **يعنـــي انتي اللي مش شـــايله الهمّ، أنا حاســـس بحياتي شـــبه ترومان شو Truman Show.**

هزّت ليلى رأسها وقالت:

- **آه جيم كاري، حياة ترومان بالكامل ســـيناريو كبير، كان موت أبوه خدَعة عشان يبتعد عن البحر والإبحار.**

أكمل أمين:

- **قصة حبـــه اتقطعت، حبيبته كانت ممثلـــة عايزه تِفـهّمه إن حياته كدبة.**

قالت ليلى:

- **البحـــر مُزيّف، الشـــاطئ مزيّـــف القمر والشـــمس والنجوم مُزيّفين، حتى السما مزيفة.**

قال أمين:

- **كان ترومـــان بيعيـــش أكبر وهـــم في التاريخ، حياتـــه برنامج**

تليفزيوني اســمه (ترومان شــو)..مصر يا ليلى بقت اســتديو ضخم، أنا ترومان، وانتي ترومان، والشــعب الطيب الغلبان اللي ســاعات بيحب قوي يِصدّر العبيطة ترومان، طـُظ في الأشرار، أمّا الطيبين فربّنا معاهم.

انســحبت ليلى في هــدوء من دائــرة الحوار مع أمــين إلى داخل عماراتهم مُحيية أمين، لم يتواعدا على لقاء، نظر هو إلى أعلى فوجد أمه تنظر من الشــباك، تأمّلها وتأمل الســماء والهواء والعصافير ودخل هو الآخر إلى مدخل العمارة واختفى.

النباح

حاول أمين أن يرتاح قليلًا في غرفته، لكنّه فجأة سمع صوت صرير الباب وهو يُفتح، بعد صوت الجرَس وهو يرّن، ثم تناهى إلى سمعه صوتُ أمِّه وهي ترحب بجارتهم إيناس التي تسكن في نفس العمارة، إيناس أتت لتطمئن على سُعاد هانم بعد عودتها من السَفر.

ميّز أمين صوت كلب إيناس اللولو الأبيض أو «الأوف وايت Off White» تحديدًا، لمحها وهي تدخل حاملة كلبَها الصغير بين يديها؛ فسارع إلى غرفته، أوصَدها بالمفتاح تمامًا، ثم أجهش في نوبة بكاءٍ عنيفة، نوبة بكاء طالعة من القلب، أعقبتها هُنيهة صمت، ثم استرسل في نوبة ضحكٍ عالية من البطن تعلو وتنخفض، كان صوت البكاء.. كالنحيب، أما صوت الضحك فكان قهقهة، الأمر كله كان مثيرًا لفضول من يسمع من قريب أو بعيد، ومثيرًا لفضول إيناس التي فضلت ألا تسأل

سُـعاد هانم عن أي شيء، ورأت أن من الكياسـة الالتفات إلى مداعبة كلبتهـا (توبسي) دون النظر إلى وجه الهانم سُـعاد، والانشـغال معها بكلام فارغ عن أي شيء وكل شيء.

لما جلس أمين على حافة سريره، وضع كلتا يديه على رأسـه مُخفيًا وجهه عن نفسـه، في نفـس الوقت تذكر وهو في الخامسـة عشر من عُمـره، كيف كان يحب الكلاب جـدًا، ويعرف أنواعها دون أن يقتنيها، يتذكر بالكاد تصنيفًـا عامًا لها: كلاب الصيد والحراسة والرعاة والحقول والبوليـس والشـوارع، وكان يُنصـت إلى صديقه زكي الخبير في شـئون الكلاب، الذي يحكي عنها سـارحًا شـاردًا كأنه الهيمان المُشـتاق، يخبره بتفاصيل رعايته الطبية لكلبته الدلميشن Dalmatian التي كان يبحث لها عن زوج ولم يُفلح، وكيف وهو يفَسّحها ذات يوم، التقى بفتاة ذات ملامح أوروبية، تُفسّح كلبها في نفس المنطقة التي يقطعها في المنتصف مسـاحة طويلة مُستطيلة من البلاط الفاخر ومناطق خضراء من إنشاء القوات المسلحة، كان كلب البنت من النوع «الدوجو أرجنتينو» ممنوح شهادة اعتراف وتميّز من ألمانيا.

حكت له البنت كيف يسـتطيع كلبَها الصمود في الطقس المصري الحـارّ، لكنها لم تشـأ أن تتطرق لموضوع الهجـين، واكتفت بأن توضح لزكي أن كلبها لا يفضّل إلاّ معاشرة الأجانب، وتحديدا الكلب الإنجليزي «بونتر» حتى يكون أنفه جميلًا، تلقى زكي الرسالة وآثر السلامة، مبتعدًا بكلبته «الدلميشن»، ولما نزل يتمشى في اليوم التالي، كانت البنت وكلبها قـد اختفيا، حكى زكي لأمين هذه الحكاية و عيناه تدمعان، لم يكن أمين

..تأكدًا، هل زكي حزين لعدم قبول البنت الأوروبية الملامح صداقته، أم لأن كلبته لم تتمكن من الحمل من كلب فخم مثل «الدوجو أرجنتينو»، ...وما هذه ليست المسألة الآن.

تنفّس أمين في عمق، قام من قعدته على طرف السرير وراح ناحية الشرفة، لفَحُه الهواء الآتي منها فأنعشه قليلًا، استدعى إلى صيوان أذنيه أ..رات الكلاب المُختلفة، واستدعى قدرته على تمييزها حسب حالتها المزاجية ووضعها في ذلك المكان أو ذاك.

تذكر ذلك النباح المصْحوب بزمجرةٍ أولى، وعرف أنه بداية مشاجرة، وذلك النباح السريع القوي علامة على استشراف الكلب بشيء ما في الأفق، إنسي أو جنّي أو حيوان، وذلك العويل دليل الإصابة والخوف، والنباح المتقطع العادي غير الحادّ، كان سمعه مرة عندما كان بصحبة زكي وهو يدلل كلبته.

مرّت على ذاكرته أصوات كلاب الحرس الجمهوري، عندما كان يبيت عند جدّه في عمارات العبور، وقت آذان الفجر بعد صخب انتهاء عربة جمع القمامة من عملها، وصياح عمالها وسائقها، ساعتها سأل أمين عمّ علي البواب في صورة خطابية:

- **ليه يا عمّ علي بيعلا صوت الكلاب بالنباح عند آذان الفجر.**

مسح عم علي ماء كان على رسغيه وجبهته من أثر الوضوء، حَمحَم ثم قال:

- **الكلاب بتحسّ بالشياطين، وبتشوف بعضها، آه الشياطين**

بتنشط وبتتفسّــح وقت الفجر، بتسيب الناس نايمة، تقوم قاعدة على راس البني آدم، تربط على رأسه العقـْد عشان ينام عن صلاة الفجر.

هزّ أمين رأســه ولم يعجبه الكلام، مــشى بعيدًا عن عمّ علي ملوحًا بيده اليمنى.

راح أمين إلى حافة سريره مرة أخرى واضعًا رأسه بين كتفيه، انتابته مــرة أخرى نوبة ضحك كأنها البكاء، أعقبتهــا نوبة بكاء كأنه الضحك، اهتزّ لها كل جسمه وترجرج.

تذكر يوم كان ذاهبًا إلى مدرســته وعمره خمســة عشر عامًا، كان الجوّ ضبابيا مُخيفـًا، والمسافة بين المدرسة والبيت قصيرة، لكن لم يسمع ولا حتــى صريخ ابن يومين ولا حتى رنّة الإبــرة.. طلع كلب بلدي من تحت الســيّارة التي كان يســير إلى جوارها، وكان هناك كلب آخر على الناصيــة، جرى الأول عليه، فهشّــه أمين، اقترب منه الثاني فهشّــه، كان كلّما هشّهما نبَحا أكثر، وقرّبا منه أكثر.

بــدأ الرعب يســيطر على أمــين، وبــدأ يفكر في ســلاح آخر غير الهَش؛ فانحنى والتقط طوبة، ضرب بها أحد الكلبين؛ فاســتمر نباحهما واقترابهــما، بل وانضمّت إليهــما كلاب كثيرة، أتوا مــن وراء العربيات البعيــدة الرابطة وعملوا عليه دائرة، تحلّقوا فيها حول أمين وحاصروه، اشرأبــت أعناقهم وامتدت أنوفهم وانفتحت أفواههم، في منظرٍ بشــع وحملقة غير عادية، علت الزمْجرة، وعلا النباح.. بدأ جسم أمين يرتعش وارتعدت فرائصه، رجع بظهره إلى الخلف، إلى حائطٍ وســور ممتد معه صف شــجر أمامــي.. زاد النباح وعلا، غمَر العرق وجــه أمين المُمتقع،

وكأنه يموت الآن، لم يتمالك نفسه، وأحس بدوخة شديدة وكأنه سيهوي إلى الأرض، وستلتهمه الكلاب. أدرك تمامًا أنهم لم ينهشوه ولم يعضّوه ولم يؤذوه، لكن كان المشهد أقوى بكثير من عملية الهجوم.. ولما سمع صفيرا في آذانه، غامت عينيه ولمح في الأفق سيارة تقودها امرأة اقتربت في هدوء إلى نصف دائرة الكلاب، كان أمين يقترب من الموت هلعا، يصرخ ويزعق فيشرخ صوته الهارب صمت المكان المُرعب، انزاحت الكلاب بعيدًا، أشارت المرأة إليه بأن يركب؛ فركب بجوارها والعرق يغطيه من (راسه لساسه)، تحولت بوجهها ناحية اليسار؛ فبانت صورة السيدة الأولى، التقط نفَسه وحدّق فيها قبل أن تسأله عن وجهته؛ فلمح صورة أخرى، ولما فتح الباب لينزل رآها تتمثل له في صورة السيدة العذراء، همس في صوت مبحوح:

- **ألف شكر... مين حضرتِك؟**

ابتسمت في وجهه، ابتسامة غامضة، ثم مضت مُختفيةً خلف العمائر، قالت له قبل أن تمضي:

- **ما تسألش كتير يا أمين!**

صحيح، لازم ولابد أن التزم الصمت حتى يختفي نباح الكلاب، حكى له أبوه الذي تربّى في مدينة الفيوم، كيف كان نباح الكلاب البلدي يكاد يصمّ الآذان عند الفجر، لتبدأ رحلة تلك الكلاب البلدي الضالّة، تحوم حول العمارات، تدور وتلّف حول السكان، كانت البلدية وقتها نشيطة، حيث تأتي مجموعات من الخفر ببنادق لتطلق عليهم النار وتقتلهم بدم بارد، وبعدها تأتي عربات البلدية لتجمع الجُثث، لم يعرف

أحـد إلى أين كانت تذهب، ولم يكن أحد يدري إن كانت هناك مدافن خاصة للكلاب، أم أن مصلحة الطب البيطري كان لها رأيٌ آخر.

كان أمـين بين اليقظة والنوم، وكانت الذكرى ككابوس، فتذكر على الفور كلمات أحمد مطر:

الكابوس أمامي قائم
قال
قمْ من نومكَ
قلت
لست بنائم
ليس، إذن، كابوسا
هذا وجه الحاكم

كانت جارتهم إيناس قد رحلت.. نادت أمه عليه فلم يردّ، اعتقدت أنـه نـام.. لكنـه كان يفتش في أوراقـه القديمة، قـرر أن يكلم زكي في التليفون، كان زكي يغفو بعد الظهر، ولم يكن ينتظر تواصلًا ما من أمين، استغرب واندهش ورحب به، سأله أمين:

- **إيه أخبار الكلاب؟**

ضحك زكي ضحكة الذي يصحو من النوم وقال له:

- **قِشـطة! العملية ماشية فُـل الفل بعد الثورة، كل الناس عايزة كلاب، بالتحديد كلاب الحراسة القوية العفيّة. انتعشت تربية الكلاب،**

وعاشرت معظم الكلاب بعضها، و ظهر جيلٌ جديد يحمي البلد، أسعار الكلاب زادت، والأشية أصبحت معدن في بيزنيس الكلاب والسلاح.

سادت هنيهة صمت بينهما؛ فصاح زكي:

- إنما انت بتسأل ليه يا أمين؟

وعلى غير عادته صرخ أمين في سماعة التليفون:

- باسأل وخلاص يا زكي، عادي هو السؤال حُرُم؟

- لأ ما حُرمش، إنت فاكر البت سونيا؟

- آه مالها دي كمان!

- سـونيا اتعرفت على ظابط شرطة مسئول عن الكلاب، مُدرِّب ومـربِّي يعنـي، وهي انت عارف كان ليها في الموضـوع ده؛ فعملوا مع بعـض مصلحة، وبعدين اتجوزوا، وبعدين اتطلقوا، بس الشـغل ماشي بينهم، بيربّوا كلاب بالهَبَل في مزرعة خاصة في طريق مصر إسكندرية.

صمت أمين وتخيّل مزرعة الكلاب تعجّ بهم، أغلق السـماعة، قفل الخط دون أن يُنهي المكالمة.

لم يسـتغرب زكي الأمر، فلقد تعـود من أمين على المفاجآت، غطّى رأسه باللحاف وغطّ في نوم عميق.

قام أمين من نومه منتعشًا وقرر الذهاب لزيارة جدّه.

فين الدبابة؟

تمشي أمين في شـقة جـدّه، ذرعها شـمالاً وجنوبـًا.. يمينًـا ويسـارًا، طالع من النافذة في مرمـى البصر البعيد، مُنتهى المشـهد البـصري وآخـره، أول مباني مـصر الجديدة من ناحية روكسي، تلك التي تُحدّ آخر معسـكر حرس الرئاسـة، اشـتكت له صباح من أنها، وهي تنشر ملابس جدّه، عاكسها أحد الجُند اللذين يتمشون فرادي أو مع كلابهم، عاكسها بحركاتٍ جنسية لها مغزى المعاشرة، كانت صباح تحكي الواقعة بالعين والحاجب.

حاجبـا صباح كانا محفوفان جيـدًا، خطّان مرسومان بعناية، على طريقة حبيبتها ونور عينها غادة عبد الرازق، تحتهما عيناها الضيقتان، بنظرةٍ صارخة تفلق الحجر.

احمرّ وجه أمين مرة ثانيـة وتوجه إلى جدّه

وأخبره بالموضــوع، كان الجدّ يكره المكان بســبب روائح روث الخيل، الذي خفّ قليلاً بعد شكاوى السكان، وبسبب إزعاج التدريب اليومي، لكــن مثل هذا الأمر لا يمكن الســكوت عليه، اتصــل بأحد معارفه في المخابــرات، الذي بدوره خاطب قائد الحــرس، لكن الأمر تطلب بعض تفاصيل الحدث، الســاعة والمنطقة تحديدًا، وبالفعل بعد تلك المُكالمة، توقــف الجُند عن تطلعاتهم لكل نســوة العمارات في الشــقق المُطلة عليهم، راح أمين إلى جدّه وسأله:

- طيب ليه ماحدّش اتصل بحد لما الجُند عملوا حركات جنسية مــن على ســطح مجلس الوزرا في الواقعة المشــهورة، الــلي اتبول فيها العساكر على الناس.

- لأ يا أمين، هناك فرق، الواقعة اللي بتقول عليها دي، القائد هو اللي كان باعتهم يحموا المنشــآت، ويبدو إن المتظاهرين اســتفزّوهم.. خاصة أن العســاكر مش متعودين على الاختلاط بالناس، والمتظاهرات كمان كان كلهم جرأة وتحدّي لدرجة جرحت ذكورة المجنّدين.

ضحك أمــين في قهقهة مُتصّلة، كأنها تأتي من البطن وســأل جدّه مرة ثانية:

- طيب ليه كل المعســكرات والمباني العسكرية المُهمّة، هنا كده وسط الناس؟

- لأ لأ.. يــا أمين هيّ الــلي كانت موجــودة الأول، والناس همّا اللي جُم وحَوّطوها، عارف الشــقة اللي أنا عايش فيها دي، أنا اشتريتها

من جمعية الإسـكان بالقوات المسلحة، اشتريت هوا، الأرض لسّه ملك الجيش، شفت بقى!. شفت يا أمين؟.

- شفت يا جدّي، شفت!

مَصمَص أمين شـفتيه وتوجه إلى الحمام ليتوضـأ.. توضأ، وتهنْدم وتعطرّ، ثم نزل.

كان ما زال هناك وقت حتى موعد الصلاة، تمشّى تحت العمارات، لاحظ التطور النوعي الرهيب في موارد الرزق؛ فمحل الأدوات المنزلية، أصبـح محلا فخما بديكـور أجنبي ويافطات باللغـة الإنجليزية، يبيع الموبايلات ومسـتلزماتها، والسـوبر ماركت الشـعبي بمكتبته في الدور الأول، ومقدمته التي كانت مطعم شـاورما ومكرونة فرن، باعه صاحبه أو أجرّه بمبلغ ضخم إلى محل ملابس داخلية اكتسب شهرة عالية بسبب حملاته التليفزيونية التي فاجئت الناس بعد الثورة، تذكر أمين أسـماء أروقة البيوت العالمية في هوليود «بوليفارد» وفي «شـانزليزيه» باريس، المحـلات أخذت أسـماء تلك البيـوت للأزياء، وغيرهـا، حتى المحلات المصرية المتوسـطة غرقت بأسـمائها العربية وسـط ضجيـج المودرن والموضة، كما كان محل نظارات الشهير قد باع المكان لجاره الذي يبيع الملابس التركي، ومحل «اللانجـيري» للملابس الحريمي الداخلية المثيرة، تفنن في تغيير موديلاته وألوانه، حتى أن بعض الشباب والمراهقين، صار يتسّكع ليدقق ويطيل النظر إلى المانيكانات الصامتة، سارحين بخيالهم إلى عوالم أخرى، وكانت النسـوة على اختلاف مشـاربهن يرتدن المحل الذي يديره رجل أسمر مثل بودي جاردز ملاهي شيكاغو، تلمع يافطته

باسـمه اللاتيني المشـتعل باللون الأحمر ليلًا ونهـارًا، كما كانت هناك محلات الأثاث والسـجاد، ومكاتب الشـحن والتخليـص وحجز الحج والعمرة وكل تذاكر العالم.

كان سوقًا مليئًا بالحركة والبركة.

في أيـام الثورة، وقفـت المانيكانات عارية من ملابسـها الداخلية والخارجية، وجاء أصحاب المحلّات بأبواب من الحديد والصُلب، وجاؤوا بالمسَـاكين، ينامون في عزّ البرد على أوراق الجرائد والكراتين، يحرسـون الحوائـط والقليـل من البضاعة، أمـا البنوك الخمسـة المنتشرة، فلقد أغلقت ماكيناتها، وصار المكان رغم بعده عن الأحداث مُنتظرًا، مُترّقبًا، وجِلًا خائفًا.

تشكّلت اللجان الشعبية، أدّت مهمتها على أكمل وجه، بدأ الجيران يتعرفون على بعض لأول مرة، ولأول مرة يجلسـون ويأكلون ويشربون الشاي سويًا.

في أيام الثورة، عندما جاء أمين لزيارة جده، أوقفه الشباب وطالعوا بطاقته الشـخصية، لاحظ أن أحدهم يشـدّ كلبا بلدي مسكين، يشدُه بحبل غسيل، ويدور به ككلاب الحراسة في الفنادق الكبرى وعند المول الكبـير، لم يخـف أمين من الكلب المسْـكين، ضحك بينه وبين نفسـه، غـير أنه كان يخشى من ردود فعل أعضاء اللجنة الشـعبية، تلك القوة الجديدة التي تمارس سـلطتها وسطوتها لأول مرة، ولأول مرة تستغرق وقتـا في تفتيش بعض ضباط الشرطة، السـاكنين العمارات تفتيشًا ذاتيًا دقيقًـا، ولم يخفَ على المرء درجة التشّفي، وردّ الصاع صاعين، في فرصة

تاريخية ذهبية، ربما لن تتكرر!.

الشـــارع الطويل الممتـــد يوم الجمعة قبل الصـــلاة فضاءٌ على غير عادِته، وبالتالي فإن تلك السـيارات التي تقطعه كانت تمرُق كالســـهام، وكانت حوادث من يموتون أمام عجلاتها كثيرة، والسيارات التي تنقلب مـــن سرعتها، أو لـــدى اصطدامها بحواف الأرض يكـــون ضحاياها كُثر، فتُسمع أصوات سيرينات سيارات الإسعاف التي لا تتمكن من الوصول إلى الضحية، إلاّ بعد طلوع روحه.

نزل أمين من نفق المشـــاة متوجهًا إلى المســـجد المُقابل، جلس بين المصلين مستمعًا إلى خطبة الجمعة، كانت تدور حول جهاد النفس.

سرح أمين كثيراً في بعـــض المعاني التي حملتها آيات الذكر الحكيم التي كان يتلوها الشـــيخ، أقام الصلاة وقرر العودة إلى بيته ســـيراً على الأقدام معيدا اكتشـــاف مدينة نصر، بدءا من الإستاد والمنصة ومسجد رابعة العدوية ومبنى جهـــاز أمن الدولة حتى الحديقة الدولية، هناك تحت بيته، فوجئ بكل أفراد الشـــلة مُجتمعين، عرفهم من ملابســـهم ومن أجســـادهم ومـــن أصواتهم فلقـــد كانوا يرتـــدون أقنعة مختلفة لڤانديتا، مكتوب على أحدها:

(تحت هذا القناع، ما هو أكثر وأكبر من اللحم والدم؛
ترقـُد تحته فكرة، والفكرة أعظم واقٍ من الرصاص)

ابتســـم أمـــين، دقق، ملياً، في باقـــي الأقنعة الورقيـــة التي حملت وجوهًـــا باتت معروفة له وللناس.. كخالد سعيد والشيخ عماد عفت.

في البدايــة ظنّ أنهم يدبرون له مقلــب، لكنه تذكر الصوت الثاني الذي أتاه ليسكن جمجمته، وليحتل مركزه رأسه من العُمق: **(لا تخف لا تخف يا أمين، لن نؤذيك، لن نقتلك، مشــكلتك الآن هي مع المجلس الأعلى)**.. ردد لنفســه في صوت خفيض **(نعم مشكلتي الآن مع المجلس الأعلى، ربنا يستر)**.

هتف أحدهم:

- **يا أمين..**

ردّ أمين بسرعة وفي حسم:

- **نعم!**

أشــار بإصبعِه السبابة مثل اللواء التليفزيوني الشهير مُهددا الناس، فتحلقــوه، وكانوا يجرّون بعضهم بعضــا كالقطار، يضعون أيديهم على أكتاف بعضٍ، في مرح وخفّة واستمتاع شديد باللحظة، ثم بدأوا يرفعون عقيرتهم بالغناء:

(فين الدبابة؟ !
فين الدبابة !
مين اللي سرقها؟
مين اللي دهسنا؟
فين الدبابة !
فين.. الدبابة !)

توقفت الحلقة الدائرية عن الحركـة وعن الغناء، انفرط عقدها، أشار أحدهم إلى أمين وأمره بالدخول إلى العمارة، صعدَت وراءه الشلـّة.. واحد يقول (فين).. والآخر يغني ويمدّ في كلمة (الدبابة) والثالث (مين) والرابع (سرقها).. والخامس (هههههاي).. ثم تعود الحدوتة للأول..

وهكذا صعد أمين على السـلالم إلى شـقته متبوعا بأعضاء الشلـّة، أحـس بأن نظامًا ما يتـم تطبيقه، الجماعة تريد الدبابـة، وتريد أيضًا معرفة قائدها وسـائقها الذي دهـَس الولد، بدأت بؤرة وظائف ذهنه في الاشـتعال بهجة واسـتمتاعًا بالحدث المُثير، بالسـؤال وبالبحث عن إجابة، بالدبابة، نعم.. الدبابة، جال بخاطره رجل الدبابة في بكين، ذلك الذي صمد أمام كل تلك الدبابات في مظاهرات ساحة «تيانان» من في الصين في ٥ يونيو ١٩٨٩، ذلك الثائر المجهول الذي اشـتهر بعدما وقف أمام مجموعة مصفوفة من الدبابات الصينية، مما منعها من التقدم.

ورجل المدرّعة المصري، ذلك الشـاب المجهول الذي اشـتهر عالميا عندمـا تم تصويره أثنـاء ثورة ٢٥ يناير، كان يجـرى ويتصدى لمدرّعة شرطة، تقوم برش المياه على المتظاهرين، مما منعها من التقدم لوهلة. وهـو حتى الآن ما زال مجهولا، كالجندي المجهول، كالطيْر في السـماء، وكزخـّات المطر، بلا اسم وبألف معنى.

أما من دهَس الأولاد عند ماسـبيرو، فكانت له ذكرى أخرى أشـد وطأة، أشـد منها السـؤال المُلّح: هل سرقت بالفعـل تلك المدرعة، أم تحوّلت من شـكل مرئي قابل للتجديد، إلى شـكل رمزي مجرد، مُدرعة تركت مكانهـا فارغًا مجوفًا عاجزًا عابسًـا كئيبًا مؤلمًـا، تملؤه البيانات

الكاذبــة، والتصاريح الملفقة، التليفزيونات الكريهة وموجات الإذاعات المفضوحة.

كان أمــين يبحث،جاهدًا، عــن الحكمة، عن سرّ اختفــاء الدبابة والونش والقمر الصناعي ورضا هلال، حاول الاقتراب من عقله الباطن، تمهّل، أحس بأنه يجاهد حديث الشــيخ في خطبــة الجمعة، نعم هذا هــو جهاد النفس، الجهاد الأكبر، لابد ولازم وحتمًا ســأقترب من عقلي، سأفتش عن السرّ وعن النص وعن ورقة التوت.

لم يكن هناك أحدٌ بالبيت، فتح الباب ودخل كالمُنوّم، ودخل أفراد الشــلّة مســتمرون في غنائهم، الموحد والمتقطع، انتشروا في كل أرجاء الشــقة، كل في اتجــاه وفي كل زاويــة، تحــت الأسرّة، في الأركان داخل الدواليب و في الأدراج.

تجمّعوا في الصالة، خرج أحدهم من غرفة أمين حاملا شــيئا أشبه باللعبة، لها شــكل مــا يجمع بين الدبابة، المدرعــة، والمركبة الفضائية، لها قرون استشــعار، وأضواء حمراء وبيضاء، أشار قائدهم وقال لحامل الجسم الغريب:

- **حُط الدبابة هنا، دور لي على الريموت.**

ســارع أمين بفتــح درج المكتب، أخرج الريمــوت وأعطاه له، قلّبه القائد بين يديه وأعطاه مرة أخرى إلى أمين آمرًا إياه:

- **شَغّل الدبابة يا أمين.**

- حاضر.

فتــح أمين الريموت، شــغل الأزرار، تحركت الدبابة يمينًا ويســارًا، للخلف دارت، وللأمام ســارت، دخلــت أولاد وبنات الجيران ووراءهما نرجس أخت أمين وأطلقوا -دون استثناء- الزغاريد.

تلـّفــت أمين حولــه وراح ناحيــة النافذة، لفحت وجهه نســائم العصــاري، حمل قائدهــم الدبابة المدرعة المركبــة الفضائية بين يديه وتقدم الشــلـّة، ووراءهم البنــات متجهين إلى الخــارج، آخرهم خبَط الباب خلفه واختفى، اختفى تدريجي وقع أقدامهم على الدرْج.

نظر أمين من فوق، لمحهم يمرّون ويختفون في الشوارع الخلفية.

اعــتراه خوفٌ خفيف من ذكرى كلام صبــاح عن الإنسي والجنّي.. ظــنّ للحظة أنهــا ممكن أن تحمل، وأن تحضر حملها المسْــخ إلى أمها نجية هنا أو إلى جدّه هناك.

بــدأ أمين يعدّ دفاتــر الدروس وتحضيرها، بعض كراســات الأولاد مُستعدًا للذهاب في الغد لمُتابعة عمله كمدرس للغة العربية بالمدرسة الإعدادية المُجاورة.

إدريس

دخل أمين إلى غرفة المدرسين، طاولة عريضة طويلة يلتف حولها المدرسون، كلٌّ في مكانه، ومكتبين مبعثرين في نواحي الغرفة، كراريس ودفاتر وكتب وأوراق متناثرة هنا وهناك، ضوء شمس العصارى، ينسحب تدريجيًا من النوافذ العليا للغرفة العالية السقف، غبارٌ فوق حواف الباب وأطر الشبابيك، المكان عتيق تشي به رائحة الجدران والخشب، وعلامات الزمن المحفورة على أرضية البلاط بمربعاته المنتظمة.

لم يجد أمين إلاّ شخصًا لا يعرفه، رجلٌ في أوائل الثلاثينيات، أكرت الشعر أشقر له عينان ملّونتان بلون العسل الأبيض، ونظرة ثاقبة فيها صفاء روح وخفة دم، مع بعض التحفظ الذي فرضته عدم معرفة كل منهما بالآخر، تذكر أمين أنه المدرس الجديد، إدريس مدرس التاريخ، ابتسم ابتسامة ترحيب خفيفة، ردّ عليها أمين مرحبًا:

- **أهلًا وسهلًا... أنا أمين مدرس اللغة العربية.**

- **وأنا إدريس مدرس التاريخ.**

هزّ أمين رأســه وهشّ في وجــه إدريس، غمز بعينه وأشــار بيده علامة الرغبة في التعرف أكثر على إدريس، ثمة حميمية أولى شــدّت كل منهما للآخر بسرعة، ابتسم إدريس وكان أثر الشمس واضحًا على مُحيّاه الأبيض، سأل أمين:

- **لأ... بجدّ.. إنت مين ؟!**

رد أمين مبتسمًا:

- **درويــش وفي عبّي قطة، إزايّ هتلعــب فيه الفيران؟ على رأي المدوّن إيّاه، انت بقى مين؟**

قال إدريس وهو يتمشّـى بطيئًا يذرع غرفة المدرسين ذهابًا وعودة:

- **أنا رجل من غمار الموالي، فقيرُ الأرومةِ والمنبتِ.**

- **صوفي يعني!**

- **آه... ممكــن تقول كده، باحاول أفهم نفــسي، أوزنها وأتوازن بيها، ما تيجي تتفضل معايا، نكمل كلامنا في البيت.**

تحمس أمــين للفكرة، وكأنه كان ينتظرها، وعــلى الرغم من كثرة معارفــه إلاّ أنه كان يفتقــر إلى صديق حقيقــي، إلى واحد من الناس، يشاركه الحوار ويتعمّق معه فكريًا، لـمْلمَ كل منهما أوراقه، توجها إلى

باب غرفة المدرسين، ومنها إلى الحوش، ثم إلى الباب الحديدي نصف المفتوح، حيّا فرّاش المدرسة، وانطلقا كرفيقين يستطلعان الأفق، تدفئهما حرارة المكان ونور الشمس، بعض النسوة يفترشن الأرض، يبِعن الفجل والخَسّ والجرجير، ينادين على الأفندية والنسوة اللاتي يعبرن الطريق، انتشرت محلات البقالة الصغيرة، تفتح أبوابها تهُش الذباب من على براميل الطرشي المتراصة، وصبية الديلفري الكالحي الوجوه الشاردي النظرة، يتلاقون في طريق الذهاب والعودة، وإدريس وأمين يتجاذبان أطراف الحديث حول الوطن والجيش والانتخابات والشهداء.

فتح إدريس باب شقته (أوضة وصالة وعَفْشة ميّه).. مكتبه من الأرض لِحدّ السقف، عبارة عن ألواح عادية من الخشب، تئن من حمْل الكتب والمراجِع والملّفات، ترابيزة أكل وكتابة، عليها ذرات من الردّة، تحوم حولها دون كلل ذبابتان حائرتان جائعتان، بعدهما بقليل دخل دبورٌ يرف، ويزّن، يدور ويلّف، عندئذٍ تغيرت ملامح أمين، انزعج، انتبه، انتفض، استعد وقام واقفًا، نظر إدريس إليه مُتعجبًا، سأله في فضول:

- **إيه اللي مضايقك كده.. المسألة بسيطة خالص، نضلِّم المكان ونفتح الشبابيك..هُبّا... يروح الدبّور هاجج من الضلمة، يطلع من الشباك لنور ربنا.. يخلص ويخلصنا.**

يضحك أمين مجلجلًا حتى يقع على قفاه، يرفص بكلتا رجليه في الهواء، فيقف أمامه إدريس مشدوهًا يُحملق فيه متعجبًا قائلًا:

- **مش فاهم إيه اللي بيضحّك قوي في الحكاية دي؟**

ولمّـا أنهى إدريس سـؤاله، حتى لـفّ الدبور.. طـار واقترب من أذن أمين، الذي سـمع طنينًا عميقـًا، طنين مُهددّ مُزعج مؤلم.. نفذ إلى أحشائه؛ فأحس بخوفٍ شديد، قام من مكانه صائحًا في غضب:

- نور ربنا يا سيدي على عيني وعلى راسي.. نضلم الأوضة ماشي.. دي تجربتـك انت.. لكن أنا باقولك لأ.. نـوّر الدنيا كلّها، ولّع الأباجورة المفتوحة الملهلبَة.. تشـفط جواها الدبّور، الزفت ابن سـتين كلب ده.. تحرقه وتحرق أمه..وتحرق كمان اللي جايبين أمه».. لسّه يا سي إدريس يـا عبقري، هانضلم المكان، ونسـتنى الزمان ونفتح الشـبابيك.. طيب افرض الدنيا ليل؟

ابتسم إدريس ابتسامة، خبيثة، ربت على ظهر أمين وقال في صوتٍ مُطمئِن:

- أنا نجحت في التخلـص من كذا دبور قبل كده بالطريقة دي، ده أولًا.. ثانيًا يا سـيد الكل أنا ماعنديـش أباجورتك الحلوة المفتوحة من فوق، أباجورتك المـودرن اللّي بتبلع جوّاها الدبابير.. أعمل إيه بقى أستسلم؟

ضحك أمين وقال لإدريس مداعبًا:

- لا ما تستسلمش.. بس انت يا حلو كده اتخلـّصت من الدبّور بأنك سلـّفته لحدّ تاني، حافظت على حياته وأهديته لناس تانية، الدبّور المحترم قاعد في سلامة الله، شبّاكُه مفتوح ومش مِخوّن.

نظر أمـين فوجد على الكرسي المتهالك عـودٌ يزين المكان، وبعض اللوحات المرسومة بالفحم، ابتسم أمين وسأل إدريس:

- **الله عليك، بترسِم وبتعزف كمان؟**

- **يعني.. باحاول.**

- **إيه يا عم حكاية إجاباتك المُحيّرة دي، باحاول، يمكن، تقريبًا.**

- **المســألة مش ســهلة، أنا باحــاول ماغرقش في حــب الذات، باحب الخالق في المخلوق، نصبر على البلاء، ونشكر على الرخاء، ونرضى بالقضاء.**

صــاح أمين، وكان قد تجرأ في حواره وردود فعله مع إدريس، رغم قصر المدة الزمنية التي قضياها سويًا.

- **الله الله... إيه يا عم الفلسفة دي؟**

- **لا فلســفة ولا حاجة، أنا مغمور، غرقان لوداني في فن التحول النفسي.**

انتبه أمين وأصاخ السمع:

- **آه... فن إنك تتحول نفسيًا !! من إيه لإيه؟ وإزاي يعني؟**

- **مســتعد أدخل جــوه أي حاجة وكل حاجــة مشروعة، كلّ ما فيها، وأحلى ما فيها، ده إذا كان فيها وحِش قوي وحِلو قوي.**

تململ أمين، لعب بأوتار العود؛ فأحدث جلبَة حلوة، شقت صمت

المكان وصدرَه، انتبه إدريس وقال:

- **زي لعبك العشوائي ده بأوتار العود.. شفت طلّع إيه! نشاز.. لكن نغمته أضافت لوجودنا سوا.. بُعد سَمعي مُختلف.. ما هو ده الموجود والمُتاح، زنّ الدبان، وحركة الشارع اللي جاية من خلال الجدران، صوت أم هنية وهي بتنادي على بنتها.**

ابتسم أمين وراح يلعب مرة أخرى بأوتار العود؛ فأحدث صوتًا مُنفِّرًا مُزعجًا، ضحك إدريس ملء فاهه، واستلقى على ظهره وقال:

- **كده عشان انت متعمد.. ده يبقى نشاز.**

تمدّد أمين مقلدًا إدريس وقال:

- **آه... قصدك الفوضى الخلّاقة... يا واد يا واد دي لازم تطلع تلقائية.. صَحْ.**

- **صَحْ يا حلاوة، بمعنى إن نقطة مُعينة من النظام الفوضوي، تساعد على اكتشاف نقطة تانية قريّبة منها، ممكن تؤدي لمسار في اتجاه أبعد من النقطة الأولى.**

حكّ أمين رأسه ونظر في عيني إدريس العسليتين وقال:

- **مش فاهم؟**

- **يعني لو ما كانتش أوضة المدرسين فاضية، واحنا كإدريس وأمين، بطبيعتنا الخاصة اتقابلنا، ماكناش بقينا هنا دلوقتي! صَحْ؟**

ضحك أمين وقال:

- لأ.. ولسه الجايّ باين عليك مليان سِكك وحواري.

باغت إدريس أمين بالسؤال:

- انت عارف ليه كانوا بيضربوا الثوار في عينيهم؟

- ليه؟

- عشان الثائر الحقّ عينيه صافية، تصوب نظرتك ليه تلاقي فيها لَمَعــان الجنّة، لما كانت النظرة دي بتصوّب على القتلة، حتى من بعيد، كانت بتقلقهم وبتحرجهم، بتورّيهم قُبحهم وفجاجتهم، ذلّهم وقرفهم ونتانتهم، لما القاتل كان بيصيب قلب أو عين، كان كرهه للحياة بيزيد، وكان قبحه بيزيد، وتوتره بيزيد، وبيبقى عِريان وكريه وملعون.

تمتم أمين لنفسه:

- كميّــة الوعي اللي بيكتســبه الإنســان، بتتناســب طرديًا مع عــدد الخوازيق اللي خَدْها في حياتــه.. عنْدك خازوق المجلس الأعلى، وخازوق الدبابة، خازوق بورســعيد وخازوق ماسبيرو، خوازيق محمد محمود والعباسية، خازوق مجلس الشعب وخازوق الريّس، وخوازيق كتيرة من كترها مش عارف أعدّهالك.

صرخ إدريس في أمين فجأة:

- خلاص... خــلاص يا أمين مش هنعــدّد... كفاية، تيجي نلعب

لعبة الأحلام؟

أحس أمين بأنه وقع في قبضة فليسوف غريب الأطوار، لكن مما لا شك فيه أن قعدته مُسليّة، قال أمين بعد تردد:

- **إيــه لعبة الأحلام دي... مش مهم، أنا موافق... يالاّ بينا نلعب لعبة الأحلام!**

اعتدلا سويًا، تأنّى إدريس وتمّهل، تنحَنح ثم انطلق قائلًا:

- **شوف يا عم أمين.. أنا هاحكيلك على حلم، وانت تحكيلي على حلم، وكل واحد يطلَع له برأي.**

- **نفسّر يعني!**

- **لأ ما نفسّرش.. نتناقش.**

- **ماشي.**

- **حلمــت إني بامشي فـوق الهــوا، باتنقـّل في الهــوا، زي فيلم ماتريكــس Matrix، كانت معايا بنــت في إيدها طفل صغيّر، كان لازم آخد بالي منه، لقيت ســلـّم مالوش نهاية، فوق منه فضا واسع، وفجأة اختفت البنت والطفل.**

صاح أمين فجأة وهو يُحني ظهره قليلًا للأمام:

- **أوبّا.. ضاع الأمل، فكرة الأمل دي خِدعة عشان الوقت يعدّي، زي حكاية الثورة كده، كل يوم فيه أمل في بكرة، لحدّ ما الوقت يعدّي،**

وبكرة يعدّي من زماااان قوي.

استفزّ أمين إدريس الذي أدركه بالقول:

- وبعديـــن يا أمين، أنـــا قلتلك تقاطعني؟ وبعديـــن إحنا اتفقنا بلاش تفسير.

هزّ أمين رأسه واسترسل إدريس في سرد حلمه:

- طلعت الســـلم لحد نهايته، ولما وصلت لنهايته نســيت الدور الأولاني، ونسيت كمان إزايّ وامتى، أنا جيت هنا؟ وإزاي طلعت السلالم دي كلها.

لم يتمالك أمين نفسه وقاطع إدريس متعمدًا:

- زي شــباب الثورة كده في ٢٨ يناير نســيوا إزاي طلعوا في ٢٥، وفي ١١ فبراير نســيوا كل اللي قبله، وبعد سنة ونص بيبصوا لورا ومش فاهمين إزاي وامتى وفين.. صحّ يا إدريس.

- صــحّ يا أمين، لو ســمحت ما تقاطعنيش تــاني.. أنا لما وصلت لنهايــة الســلم، وبعد ما نســيت كل اللي قبله، لقيــت قدامي ترابيزة العشاء الأخير.. بالظبط زي ما رسمها «ليوناردو دافينشي» الناس إيّاهم كانوا قاعدين عليها: اتناشر بني آدم أشــكالهم غريبة قوي، لكن بدون يسوع المسيح.

قام أمــين واقفًا، ضجّ بالضحك ولم يتوقــف، حتى أوقفه إدريس ممسكًا بذراعيه، هزّه بعنف متسائلًا:

- فيــه إيــه.. فيه إيه يا أمين.. إيه الــلي بيضحك قوي كده وليه مُصِّر إنك تقاطعني؟...

لما هدأ أمين قليلًا بلـَع ريقه، قال وهو يلهث بين الكلمات:

- الترابيــزة هيّه هيّه وحياتك، بس هــما ماكانوش اتناشر كانوا تسعتاشر، وماكانش الريّس قصدي يســوع المسيح معاهم، استئصلوه بعملية جراحية، وجابوا الراجل بتاعهم، ولا يهمّك كمِّل كمِّل يا إدريس.

ظلّ أمين يضحك، ويكتم ضحكه، بينما إدريس يحدّق فيه في غيظ وحنق شديدين:

- واحد كان شكله غريب جدًا، لابس كاب، وشعره منكوش من الجنبين، منظره مضحك جدًا، وواحد تاني واقف على ناصية المكان.

ظل أمين يضحك ويسعل وقال مقاطعًا:

- واحد تاني أصلع، ووراه واحد واقف... وهيه خلصت الحدّوتة، حلوة واللا ملتوتة؟

لم يأبه إدريس بالحالة الهستيرية التي أتت على كيان أمين واستطرد سرد حلمه:

- رحــت للراجل التاني الــلي واقف على الناصيــة وقلتله مالَك! فقالــلي: (إنت زعـّلتْ الكبير)، أنا ارتبكت شــوية وفكــرّت.. جاوبت بسرعة (أنا زعلـّته في إيه؟ أنا ماليش دعوة بحاجة، وإزايّ؟ ومين الكبير بتاعكــم ده أصلًا؟ وإزاي هزّعلُه وأنا معرفوش؟) قام الرجل قاللي وهو

مُصِّر (لأ.. انت زعلّته، وعمومًا هو جايّ دلوقتي)... لما قاللي كده سبت المكان وقعدت بعيد، سندت على صخرة، جه واحد بسرعة زي السهم.. بسرعة قوي.

كان أمين يتابع الحديث في شـغـَف، وكان قد توقف عن الضحك وقال:

- أيـوه... مَرق بسرعة قـوي زي السـهم.. زي العربية البورش الحمرا.

لم يعقب إدريس واستكمل سرد حلمه:

- الراجـل اللي مرَق بسرعـة ده كان لابس زعبوط أسـود، كان مـاشي بسرعة، طاير فوق الأرض، مـاشي ع الهوا، وأنا كمان كنت لابس زعبوط بني، هو كان لابس اسود في اسود وماكانش له راس.

صاح أمين واقفـًا:

- يا الله... برضه ساعات سـواق البورش الحمرا تبقى له ملامح أجنبية، وساعات ما بيبقالوش راس.. يا الله.

تعـوّد إدريـس عـلى مقاطعات أمـين الصاحب الجديـد ورفيق المدرسة، استرسل مرةً أخرى في سرد حلمه:

- ماكانـش له راس ولا رقبـة، عبارة عن جسـم لابس زعبوط، بيمشي على الهوا وبيمشي نفس مشيتي، كأنه كان بيطير بالتوازي معايا، حسّيت بيه، بهواه، بيشرخ جسمي، بريحتُه، ببسمتُه، من غير ما يكون

له وش، بطلـتُه بهيبتُه بهالتُه بتأثيرُه، حسّيت بقوّة وعُنف ورهبْة، وقبل مـا أقرر اســتخبّى، طلّعت من جوه هدومي مســدس وضربته بالنار، كنت خايف قوي قوي، وأنا كنت عايز أتخلص منه بأيّ شــكل، لكن ما حصلـّـوش حاجة، ولا حاجــة ولا كأني ضربت عليه رصاص، ولا حاجة؟ عَدّى هو بسهولة ويسر واطمئنان، قعد مكانه، اتربّع على راس الترابيزة وكلّمنــي على الموبايل ههاه ههاه... الكبــير معاه موبايل، وأنا معايا موبايل، الكبــير بيكلّمني، يالله، أنا جريــت زي عيّل خايف، مرعوب، استخبّيت، ومن زاوية بعيدة زي أفلام الجاسوسية، راقبت المكان لقيت الجســم اللي من غــير راس، اللي لابس زعبوط اســود على راس طاولة العشــاء الأخير اللي عليها الاتناشر مجهول، ضحكت، بيني وبين نفسي، وســألت (هو ده الكبير؟) ســألته بجد: (مين انت) فجــاوب بكل ثقة (تعال... عايز أتكلم معاك، تعال هنا).

كان أمين قد استغرق في سرد إدريس، وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا، تعمّق في الحدث الذي شدّ انتباهه، نظر إدريس إلى الفراغ واسترسل:

- ضربات قلبي زادت، بقوة وبسرعة، وحسّيت بقشعريرة غريبة في جسمي، ماكنتش عايز أي اختلاط بيه، رددْ تاني (تعال... تعال عايزك في موضــوع).. رحتله وأنا باترعــش، لاحظت أن فيه راس ورقبة بتنَبّت فوق جســمه، كان عجوز قوي، ويشبه أبويا... سألت نفسي يا ترى هو ده الوالد... وليه باقول الوالد، ومابقولتش والدي؟ استبعدت كلمة بابا لأنه كان فعلًا شبه الشــيطان! ماحبّتش أربط بين أبويا وبين الشيطان، حسّــيت بتأنيب ضمير عظيم، إزاي أكره أبويا.. ســمعت صوت خرَق

وداني ودخل في تجاويف مُخي (إنت مزعّل الكبير).

ولما انتهى إدريس من سرده، كأنه أفاق، وكان قد احتال على أمين بلعبة الأحلام ليحكي له حلمه وليســمع فيــه رأيه، أدرك أمين الخدعة، فنظر في وجه إدريس وتأمله ثم قال:

- **انــت فقــدت براءتك يا إدريــس، فقدت عُذريتك، دهشْــت وجرحْت جزء نضيف فيك، تخلّيت عن الراجل اللي من غمار الموالي.**

صرخ إدريس صرخة قوية وقال:

- **لا.... لا... أنا رجل من غمار الموالي.**

رد أمين:

- **المشكلة مِش في النصيحة، لكن في قبولها يا إدريس، مش فاكر كلام الإمام أبو حامد الغزالي؟**

هَمْهم إدريس متوترًا:

- **فاكــر.. فاكر، كل الطرق تــؤدي إلى محبة المخلوق في الخالق، نعم.**

لَمْلم أمين أوراقه، اســتأذن إدريس، فتــح الباب، رأى البنت هنيّة اتصعد الدرج في خوف وبطء، ولما رفع رأسه رأى الست أم هنيّة تراقبها، ,مــا أن خرج من باب العمارة حتى تنفس الصعداء ووقتها أذن المؤذن اصلاة المغرب.

كان صوت المؤذن شـجيًا، وظلال المغرب ترمي بظلّها الحنون على أسـطح البيوت، وكان أمين يفكـر كثيرًا، **(تبًا لك يا إدريس، تسـتدعي الشـيطان في حلمك وتسرده كما تسرد القصـص القصيرة، من أنا ومن أنـت، لماذا تشربّت كل هذا الغموض مـن الثوار؟ غموض الرؤية لدى الثوريين وهم يتحدثون عن الفلول، وغموضهم الأشـدّ في ممارسـتهم اليومية).**

تمّهل، عَـدّل من بنطاله، شـدّ عوده وتذكر ذلـك الرجل صاحب الصوت العالي في المولد، وهو يدعو الناس من بحري والصعيد لمشاهدة الغولـة وأولادها السـبعة، ولما دخل أمين في صباه مـع الناس التوّاقين لرؤية الغولة وأولادها السابعة، دخلوا في حارة ومنها لحارة سدّ، ثم عادوا وانعطفوا يسـارًا ثم يمينًا، ثم وجدوا أنفسهم في خلاء التحرير دون أن يروا شيئًا.. لا الغولة ولا أولادها السبعة، والمُنادي مازال ينادي، والنـاس تهرول وكأنه يوم الحشر، وأمين يضحك لنفسـه وعليها، يتذكر إدريس الصوفي ويتسـاءل: **ماذا يعني المُسلم، هل هو السُّنّي (السلفي الأخواني... أم الصوفي، أم البني آدم العادي مثلي)؟...** ولما وصل أمين إلى المسـجد، تمهّل، توضأ وانتظم في الصف، خفّف الإمام في التلاوة، خفف على أضعف واحد في الصف، ولمّا رمى السـلام **(السـلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته)**، أحس أمين بالراحة، أخذ أوراقه وحذاءه ومضى من باب الجامـع متوجهًا إلى باب البيت، مـرّت أمامه عربة نقل ضخمة (تريللا تجـرّ مقطورة) مكتـوب عليها بخط قرآني أحمر كبـير **(احترام الكبير.. واجب)**، تمتم أمين لنفسـه: نعم.. احترام الكبير.. واجب، أعجبته فكرة وشكل الكبير، تذكر بصعوبة الكبار في الحياة وفي الأحلام وفي الأفلام.

تَمهيد لقَعدِة الشطَرنج

تأمل أمين صـورة كائـن غريـب في فيلم كارتوني قصير أحد شخصياته اقتربت من المسخ الذي تصوّرته صباح بنت الست نجية، كثمرة التزاوج بين الإنس والجن.

شاهد أمين فيلمًا قصيرًا على موقع اليوتيوب، شـاهده مرات ومـرات، لكن في هـذه المرة كان مهتـمًا إلى حـدٍ بعيد بفكـرة الفيلـم، الحدوتة والحدث والمعنى.

كانـت مـدة الفيلـم لا تزيد عـلى خمس دقائق، المشهد خريفي في حديقة مهجورة، البطل (چيـري) رجلٌ أصلع عجوز، يبدو مزهوًا بشـعره الأبيض وبذلته الكاملة، ورابطة عنقه المعقودة في دقة.

بـدأ العجوز لعب الشـطرنج، بعد أن أفرغ كل قطـع اللعبة من عُلبتها عـلى الرقعة الممتدة

في المربّعات الأبيض والأسود، رتّبها في الناحيتين كما هو متعارف عليه، ولما بدأت المباراة اكتشف أن لا أحد يجلس أمامه، لا لاعب هناك على الكرسي الفاضي.

لعــب لعبته الأولى ثم قــام بعد تفكير من كرســيه، ليجلس على الكــرسي المقابل وليقوم بحركة مُضادّة من الأســود تجاه لاعبيه البيض، ولتحديد شــخصيته كان يرتدي النظــارة علامة على أنه **(البطل الأول)**، ويخلعـُها ليكون **(البطل المتخيّل)**، أخذت حركات الشــطرنج مساراتها ومجاريهــا، تتبدل، تهاجم، تنتهــي القطع المهزومــة المُقصاة إلى علبة الموتى.

بدا الموقف حقــا وكأن لاعبين بالفعل يلعبان الشطرنج ضد بعض، ركزّ المخرج على اليد التي تحرك القطعة وتنفذ الفعل.. اليد المؤثرة، هنا وهناك.. يد «الحقيقي» ويد «المتخيل»، وتنتهي المباراة، بموت كل قطع اللاعــب الحقيقي الفاتحة اللون، واللاعــب الذي يرتدي النظارة أصبح في وضع المهزوم، صدرت همْهَمات وإشــارات وضحكات، انتهت بقول اللاعب المتخيل **(كِش ملك)!**

چيــري الأول والحقيقي الذي يصعقه الموقــف، تصدمه المفاجأة وتزعجــه الهزيمة، فيبدأ في التمارض متمثــلا نوبة قلبية مُفاجئة تصيبه فينهار واقعا على الأرض، هنا يبدأ الرجل المُتخيل ذي النظارة في التشتت والتشــوش والخوف على صاحبــه، وفي غفلته تلك يقــوم الرجل الأول «الحقيقي» ليبدّل رقعة الشــطرنج، يقْـلبهــا بحيث يكون هو صاحب الجيش الأســود المنتصر، والآخر المُتخيــل هو المهزوم الذي يطيح ملكه

على الأرض ويسـقطه عـلى وجهه، هنا يضحك اللاعـب الأول المنتصر ويطلب قيمة الرهان؛ فيُخرج له المُتخيّل من جيبه طاقم أسنان، وضعه اللاعـب الحقيقـي في تجويف فمه وضحك عاليا مُظهرا روعة أسـنانه الصناعية.

هـزّ أمين رجليه وتمـشى ذهابا وإيابا في الصالـة، تمادى في حواره الداخلي، ديالوجه الباطني المُحيِّر المحتار، تسـاءل عن ارتباط اللعبة بما يحـدث، من سرق من؟ مـا هو مفهوم الطرف الثالـث، أو الثاني.. هل الفيلم تجسـيد لنظرية اللهو الخفي، وهل المجهول هو الظاهر أمامك، وهل يا ترى رأى المجلس الأعلى هذا الفيلم؟ استغرق أمين في تحليلاته حتى جاءه صوت أبيه صائحًا:

- **مالك يا أمين؟**

- **مش معقول يا بابا يعني الراجل يلاعب نفسـه شـطرنج، ولما ظلّه يكسب، يمثل المرض ويغِش عشان يكسب هو، ويكسب إيه طاقم أسنانه اللي التاني كان واخده منه.**

هزّ أبوه رأسه:

- **أنا مش فاهم حاجة؟ إنت بتتكلم عن إيه !**

- **ده فيلم كده قصير جدًا يا بابا..بس معمول كارتون راقي.**

حرك الأب الكراسي في وضع خاص للالتفاف حول ترابيزة مربّعة في المنتصف، على يمينها كرسي وعلى يسارها كرسي آخر، فهم أمين أن قعدة

الشطرنج ستبدأ بعد قليل.

***

كان والد أمين مهندسا ميكانيكيا شارك في حرب ٧٣، كان من أول من نصبوا الكباري التي عبرت عليها مركبات الجيش المصري وجنوده، وكان أيضًا يهوى التمثيل، حيث كان عضوا بفريق التمثيل بالجامعة، ارتدى بذلته الفئرانية اللون، وتحتها بلوفر رمادي فاتح وعلى عينيه نظارته المعدنية، بدا مزهوا بنفسه، كان دوما ما يحلوا له تمثيل مشهد ما، مشهد من هاملت أو عُطيل أو ماكبث، وكان أبيه وهو راقد على ظهره على الفراش، فرحا بنفسه، ذراعاه معقودان على صدره، وعيناه تنظران إلى أعلى، كانت سُعاد هانم تعرف عنه هذا الموضوع، لم يكن الأمر مثار دهشة لها على الإطلاق، فلقد تكرر ذلك الأمر مرارًا، لكنه كان خافيًا عن أمين وإخوته، حتى دخل أمين ذات مرة ليسأل أبيه في أمر مُهم يتعلق بالأرض التي في البلد، ولأن المحامي كان على التليفون، ولأن سُعاد هانم كان تريد إنهاء الأمر، دخل أمين على أبيه في غرفته مُتسِّحبًا على أطراف قدميه، وجده مُستلقيًا على ظهره فاتحًا عينيه، مُستغرقًا في أدائه التمثيلي لأحد مشاهد هاملت، نظر الأب حوله فوجد الغرفة تستدير وتتحول لتصبح كالمسرح الروماني، دائرة في المنتصف، مُدرّجات حجرية وأعمدة، نظر إلى فراشه فألفاه مثل سرير القيصر، حرير في حرير، يزدان بالأعمدة والستائر، مُطرَّز الوسائد والحشية، على جانبيه طاولات مُمتدة عليها سيوفٌ مختلفة الأشكال والأحجام، وخناجر من كل شكلٍ ولون، خناجر بمقابض خاصة، مزخرفة بإتقان.

سمعه يغيّر نبرة صوته صائحًا **(سيفي في صوتي).**

تمهل أمين ورددّ في صوتٍ خفيض:

- **(سيفي في صوتي) يااااااه.... إيه ده يا بابا، كل ده عُنف لفظي، يا قوتك يا جبروتك يا بابا، شكســبير ده كان جارح اللسان قوي، أبطاله لهم كلام حادّ الِّي يسمعه يحِس بالرعب وبأنه قد اتقطع حتت.**

اقترب أمين من حافة السرير، وكانت عينا أبيه الباشمهندس سامح عواد عبد العال مازالت محدّقة في السقف، قال أمين على استحياء:

- **بابا..**

أغمــض المهندس ســامح والد أمين عينيه ثــم فتحهما؛ فخرج من فلســفة اللحظة، وطلع من مشــهد هاملــت، جلــس القرفصاء فوق السرير، مُتحدثًا بصوتٍ عميق القرار، وهو يخرج من مشــهد هاملت، أحــسّ وكأن الأرض تمتد والجدران تتفسّــخ، تنهّــد، تتحرّك من مكانها، تقــذف لهبًا وحُمم، ولما أدرك اللحظة القاضيــة، نهض واقفًا.. نظر إلى أمين متسائلًا:

- **أيوه يا أمين ! فيه إيه؟**

- **ماما بتقول المحامي على التليفون بخصوص موضوع الأرض.**

لم يجــب المهندس ســامح وقام، نهــض واقفـًا واضعــا قدميه في المنتوفلي ومشى بخطوات هندسية لا مبالغة فيها، مشى في خط مستقيم انتهى به إلى سماعة التليفون.

- **أيوه يا أستاذ ؟**

- ....

- **لأ معرفش!**

- .....

وفجـأة خبـط والد أمين السـماعة في عنف، وجلـس على كرسي الفوتيه في الصالة، لم تسأله سُعاد هانم عن الموضوع، لأنها كانت بشكلٍ أو بآخر تعرف أن المحامـي خدعهم لصالح الآخرين، وأن قضية المالك والمسـتأجر وحق الملكية قضية شـائكة، أدّت إلى أن **(المنتفعين.. جابوا وخلّفـوا عيال، خرّجوهم محامين، لَبط، يعرفـوا يضربوا عقود ملكية.. وحلّني وموتني عشـان تثبت حقك.. رغم كل الأوراق والثبوتيات وكل المبالغ الضخمة التي لهفها المحامي الحرامي).**

دخل الباشـمهندس سامح إلى فراشـه، نام على ظهره وقرر هذه المرّة اسـتدعاء مشهد من عُطيل، سـمع أمين صوت أبيه واضحًا؛ فلقد كان قريبا من الباب وكان حريصا على متابعة ما يمثله أبوه من مشاهد، وما تحمله تلك المشـاهد من معاني ليبدي إعجابه من ناحية، وليتفهم كيف لأبيه أن يسـتخدم هذا التكنيـك الفريد كمنّوم في عصر انتشرت فيه المُهدّئات، تصوّر نفسـه عُطيل، تحولـت يديه أمام عينه إلى اللون الأسود، نظرته أصبحت أكثر ثباتـًا وتحديقـًا في الفراغ، بان بياض عينيه، وانسحب إلى عالم آخر.

تسـاءل الأب، بينه وبين نفسه، لماذا سُـمي عُطيل.. (عُطيل)، كان

الباشــمهندس ســامح قد تحقق بالبحث والدراســة؛ فلــم يتوصل إلى تحقيق أن مغربيًا واحدًا اســمه (عُطيل)؛ إذن فالأنســب أن (عُطيل).. بضــمّ ورفع آخره مــع تخفيف التنويــن أقرب إلى (أوتلــو Othello) شكســبير من كل اسمٍ سواه، تصور نفسه يرفل في ردائه المميز وبنطاله الضامّ لنصفه الأســفل، صاح في صوتٍ جهــوريٍ عميق، مُتخيلًا الحرس «الحاملين المشــاعل» **(أغمدوا ســيوفكم اللامعة لأن الندى يُنزل عليها الصدأ...)**.

وقف أمين مُســتمعًا مُســتمتعًا، وكان منذ نشــأته تعود على أن يلتقــط ذخائر الكتب من دولاب أبيــه ليقرأ ويمثل ويتصور، وكان أبوه يُشــجعه ويطري عليه بل يكافئه لقراءته النهمــة، وما أن التقط أمين الكلمــة والمعْنى، حتى هَمهم بينه وبين نفســه **(ياالله... كيف يســخر عُطيل من القادمين للقبض عليه، يطلب منهم إغماد ســيوفهم خشية أن ينالها الصدأ من الندى؟؟ ياله من رجل)**.

تذكــر الجملة التالية، نظــر إلى أبيه وحاول أن يقلــده صائحًا **(يا سيدي الجليل، إن شيخوختك لأصلحُ للأمر من سلاحك)**. ارتبك المهندس سامح ولم يدرِ كيف يُكمل المشهد، لأن أمين كان قد شاركه دور عُطيل، اســتدرك أمين الأمر وقال هامسًا، **(ها أنا الآن الدوق، يا عُطيل الباسل.. آن أن نستعين بك على عدو الوطن)**.

تحرك المهندس ســامح مُنتبهًا، قال في صــوتٍ أعلى من كل صوتٍ ساح به من قبل **(مرقد الصخر والفــولاذ في الحرب، ألين لي من مرقد الزغب الناعم، حرب ٧٣ كانت الفيصل، كانت الفرصة لرد الاعتبار، احنا**

ورينا اليهود الوش التاني.... ها ها ها..)

مرّت هنيهة صمتٍ قصيرة ثم صاح الأب:

- **(يالخيانـــة الدم ! أيها الآبـــاء، لا تأمنوا بعد الآن نفوس بناتكم على ما يبدين من الطهارة)**

صمـــت هنيهة وكأنه يتذكر، وعلى مـــا يبدو أنه لم يتذكر فقفز إلى مشهدٍ آخر:

- **(أرشـــدني، أرشـــدك الله، ســـأدعو الناس من كل منزل، وأمري مطاع عند الأكثرين، تقلّدوا أســـلحتكم، أيقظوا بعض الشـــباب المنوط بهم السهر).**

انسحب سامح المهندس والد أمين إلى النوم؛ رآه أمين يتخذ ملامح الرجل العجوز في ذلك الفيلم القصير على اليوتيوب، يلعب الشـــطرنج ويضـــع طاقم الأســـنان كرهان في فتحة فمه، لكنـــه كان بكامل ملابس عطيل وببشرته السوداء.

استغرب أمين وتمتم لنفسه، **(فعلًا لازم ولابد ألاّ نؤمن نفوس بناتنا، إني أشـــك في ســـلوكيات أختي نرجِس، ولا أتمكن مـــن مصارحتها، أمي تعرف عنها كل شيء، أبي يدرك المصيبة لكنه يفضل الهذيان بها مسرحًا شكســـبيريًا قبل النوم، يفضل ذلك عن مواجهـــة عنيفة، قد تـُفضي إلى مـــا لا تُحمد عقباه... هههها وســـيدعو الناس مـــن كل منزل، الناس لا يحتاجون إلى دعوة، أما عن الســـلاح فهو متوفر، والشباب المنوط بهم الســـهر، سهرانين من زمان، كل يوم ســـهرانين، يغنون ويقرأون الأشعار**

ويخطّــون الجرافيتي.. ثم يا أبي نم في هدوء، أرِح نفســك لا تشــغل بالــك، لا بالأرض ولا بالعرض ولا بالناس.. نم وقرّ عينا، اســتعدّ لقعدة الشطرنج، زمان عمّي جاي، وجدّي جايّ معاه).

قعدة الشطرنج

أعدّت سُعاد هانم العدّة لاستقبال الضيوف، أهل زوجها العزيز سامح، كانت ترتدي ملابس سبورت خفيفة للحياة اليومية، وفي قدميها حذاء رياضي خفيف، أما شعرها، فكان ملموما «ديل حصان»، وعلى الترابيزة بجوار الشنطة نظارة شمسية ضخمة أنيقة.

سرحت سعاد هانم بخيالها وهي ترتدي معطف المطر الأنيق في شوارع لندن، ترفع فوق رأسها مظلة سوداء تحميها من المطر، كيف كانت تنتقل بين المحلات، وتقضي يومًا كاملًا في ذلك المبني الـStore الساحر، تأكل وتشتري الحلوى، تحتسي الشاي، تنتقل من قسمٍ إلى آخر وكأنها تزور مدنًا وقرى، ترى أناسا غير الناس، وبضاعة غير البضاعة، وباعة محترفين، يبتسمون في أدب، لا يتبعونك أينما ذهبت للتحقق من أنك لن

تسرق شيئًا، ولا يجبروك على شراء شيء، أي شيء، بالترغيب والاستمالة.

أخرجت سعاد هانم طقم الشاي بنفسها، تأمّلته.. لمّعته، كانت تعشقه، فهو رمزٌ عندها للتاج البريطاني، وفيه رائحة المُستعمرات وبريطانيا العُظمى، أصرّت على أن تعدُّه بنفسها لقعدة الشطرنج.

غسلته بنفسها، الإبريق، اللبّانة السُكّرية والفناجين، كان طاقم خاص جدًا (ألبرت رويال Albert Royal)، موديل ضوء القمر Moon Light اشترته من لندن، آخر مرة كانت هناك، قبل انتهاء سامح من رسالة الماجستير.

بدا إبريق الشاي، مُتطاوسًا، أبيض خاص اللون، يشرئب لأعلى، تزين غطاءه وحافته العليا زهرة زرقاء مع بعض الأوراق الخضراء، مصنوع من الصيني الخالص، وكذلك كانت اللبّانة والسكّرية، تداخل اللون الأزرق الحيَّ مع الأخضر والبنفسجي الفاتح، على أرضية بيضاء، تعطي إحساسا عاليا بالسموّ.

لمّعت الإبريق وجهّزته، غسَلت النعناع ووضعته مع السكر داخله.

قام زوجها سامح من قيلولته، واستعد لاستقبال أخيه المهندس سامر، مهندس الكهرباء.

دخل جدّ أمين، المهندس المدني على المعاش، والذي عمل في مجال المقاولات مع «المقاولون العرب»، لإعمار مدن القناة بعد حرب ١٩٧٣.

كان في حوالي الثمانين من عمره، لم يبدو عليه السن إلاّ في مشيته،

أمّـا وجهه الأبيض المدوّر الضاحك، ظهـرت عليه تجاعيد أخفاها نوره، والبشر البادي عليه.

كان الجدّ بطلّتِّـه وقدرته على خلق جوّ من البهجة والحوار، روح وحيـاة القعدة، كان يرتدي بذلة بُـنية اللون مفصّلة خصيصا له، يلبس تحتهـا بلوفر وقميص مخطط مفتـوح، أصلع الرأس، يـوزع الكلمات والابتسامات، هنا وهناك.

اتخذ موقعه المعهود بجوار قعدة الشـطرنج في المنتصف بالضبط، وكأنه سـيحكّم بين اللاعبين، دخل خلفه عم أمين «سـامر»، الذي كان مهندسـا للكهرباء عمل مع الروس في السد العالي، من بعده دخل ابنه «ماجد» الذي طلّق امرأته بعد أن رفضت أن تكون عبْدة له (**بحسـب رواية بعض الشـهود، لكـن بعض الناس قالوا أنها امـرأة مفترية، هيّ وأهلها، منعته من رؤية ابنه إلاّ في قسم الشرطة، وبعدها تزوج بأخرى، زاد وزنها إلى ١٠٥ كيلو جرامات، بعد زواجها منه بشـهور، قال ماجد: إن ذلك الوزن الزائد كُلّه من عزّه وخيره**).

كان ماجد يهوى الرماية ويجيدها إلى درجة الاحتراف، يعمل مُدققًا ماليًا بشركة عالمية للصوتيات وكان غريب الأطوار مثيراً للشكوك، وعلى الرغم من أن أمين لم يكن يرتَاح إليه، إلاّ أنه كان يجد مُتعة في حكاياته الحقيقية والمُتخيّلة، بصرف النظر عمّا إذا كانت حقيقةٌ أم مَحْض خيال.

التقـى ثُلاثتهم بأمين وأبيه، أما سُـعاد هانم فاسـتأذنت بعدما وضعـت صينية الشـاي بكل مسـتلزماتها على الترابيـزة الخاصة بها، وفضّلت الذهاب لزيارة أمها على البقاء وسط هذا الجمع الذكوري.

جلس الجميــع، ما عدا أمين وابن عمه ماجد، اللذان اتخذا موقفًا عند الشباك.

كان ماجــد طويــل القامة، يرتــدي قميصًا مطرزًا بــأزرار كبيرة، وصديــري مُطرز بخيوط من ذهــب وبنطلون چينز ضيق، طالعه أمين من فوق لتحت في استغراب وسأله:

- إيه يا عم ماجد اللي عامله في نفسَك ده؟ همّا رعاة البقر نزلوا على أرض مصر والا إيه؟ همّا دخلوا المدينة وعاثوا فيها فساد؟

ابتسم ماجد ابتسامة، ماسخة سخيفة، لا تخلو من صلَـف وأجاب:

- أيوه... إيه رأيك ؟

- حلو... بس غريب!

- هو ده المطلــوب، لازم أكون غريب.. غير الناس، ماحصلتش.. صَحّ!

سأله أمين في تلهف وبكلمات بطيئة مُحكَمة النطق:

- إنما إيه حكاية البلطجــي ده اللي حاول يسرق عربيتك وانت ضربته بالنار؟

التفت ماجد نحو النافذة وكأنه يحادث الدنيا:

- شــعرت بحركة فجــأة، بعد ما نزلت أجيب فلــوس من مَكَنة البنك، كنت على الرصيف التاني، لقيته بيفتح العربية وبيحاول يدخلها،

طلعّت مسدسي الجديد، وضربت طلقتين في الترقوة جوّه كتفه، جابوه الأرض من غير ما يموت.

فتح أمين فمه وفرك كلتا يديه صائحًا:

- هها يااااه.. إزاي يعني يا بطل؟

- زي ما بقولك كده.

- يا واااد يا جامد !

- مـش حكايـة بطولـة يـا أمين، أنا صحيح غني لكن مصـالحي كلّهـا في الصَـح، وعارف إن البلطجي ده ترس في مكنة، جزء من تركيبه موجـودة من زمان في مصر، النظام ضعيف، وعشـان النظام الضعيف ده، يتمكن من الصمود بيخلق طبقة فاسـدة يستفيد منها وتحميـه، يبتدي يرعـرع البلطجيـة.. اللي يروّعـوا النـاس، فيقـوي النظام الحاكم، ويشعشع الفساد، قوم إيه.. الناس تتعب وتنهك وتخلص طاقتها!.

تمتم أمين:

- هه ههه !! لو رتبنا حبات البليّ والخرز، بدقة أكتر هانستفيد بأكبر مساحة مُتاحة..

ردّ ماجد:

- بتقول حاجة يا أمين؟

- لا.. لا..

ربــت ماجد على كتف أمــين، وكأنه عيَل يحاول أن يشرح له ما لم يفهمه، ربما لصغر سنه وقلة خبرته، ثم قال:

- **في الرماية بنتدرّب على إطلاق الرصاص على الطيور في الســما، إذا ضربــت الطير وهو عالي قوي.. سرقته، هيقع ورا ســور أو عمارة أو أي حاجة قدّامك، وإذا ضربته وقتلته يبقى نشًّنت في الصدر أو الدماغ، يقع تحت رجليك، لكن إذا حبّيت تضربه ضربة تعجيزية، اضربه تحت مفصل الجناح، اللي هو في الإنسان كتفه، يعني عظمة الترقوة، هَانشِّن بالمســدس بزاوية ١٨٠ لــو الطير فوقي، وبزاويــة ٩٠ قايمة لو قدّامي، وزاوية ٣٠ أدّيله التعجيزية.**

هزّ أمين رأسه ومصمص شفتيه وقال:

- لااا.. ده انت كده عندك هوس الرماية.

- **لأ وانت الأدرى عِشق السلاح... عارف يا أمين الكلاب الضالة؟.**

انتفــض أمين، بلع ريقه، وأحسّ بأنه أُختطف، ســمع نباح الكلاب المتعــددّة عاليًا مُتقدمًا مُتوحشــًا، أحــسّ باختناق وبتشــنّج في تلك العضــلات الصغيرة، التي بين ضلوعه، جاءته غصّة في حلقه وأحس بأنه يموت، أسرعت ضربات قلبه وغطى جبهته العرق البارد، انتبه ماجد إلى أمين، أمسك بيده فوجدها باردةً كالثلج، نطق بكلمات مرتبة في أذنه:

- **ماتخافش يا أمين.. السلاح صاحي.**

انتبه ماجد واسترسل قائلًا:

- **الكلاب الضالّة صوتها مزعج، وحجمها كبير، كنا بنحاول نخلّص عليهـا بالبندقية الرش، لكن ماكاتش بتموت، لذلك اسـتخدمنا بنادق معينـة بنوع رش ضخم زي البلية، نـضرب الكلب من دول في منطقة معينة بين عينيه، يقع وما يجيبش منطق.**

بلع أمين ريقه واتخذ مجلسـه حول قعدة الشـطرنج، ثم ردّ على ماجد:

- **هو الكلب عنده منطق برضه يا ماجد؟**

كانوا يثرثرون، لكن اللاعبين الأساسيين، ركزّا على رقعة الشطرنج.

ولما انتهت المباراة الأولى لصالح الباشـمهندس سـامح، والد أمين، تنحى عمُه سـامر وأخذ مكان والده، راح أمين يراقب قطع الشـطرنج، ولما اقترب من عمِّه سأله:

- **هوّ إيه اللي جرى في ٦٧؟**

رفع العم الكاب من على رأسه ليهويها بعض الشيء، نظر في عيني أمين وقال:

- **مفاصل الدولة تفككت ومابقالهـاش وزن.. ده لحدّ دلوقتي، حتى حرب ٧٣ رجّعت لنا العزّة والكرامة، لكن الإنسـان المصري اتكسر زي الطبق الصيني لمّا يتكسر.**

أمسـك العَمّ بقاعدة الفنجان «الألبرتـو رويال» بكلتا يديه، ممثلا أنه سـيكسره نصفين، فجـرى أمين عليه وخطف إحـدى قطع الطقم

الفخم الغالي على أمه، وصاح:

- يااااه يعني كل ده لسًّا مأثر لحدّ دلوقتي؟

ابتسم العم وقال:

- أيوه أمّال إيه، بعدما تلحم الطبق المكسـور، مستحيل يرجع زي الأول.

خرج الجدّ عن صمته رغم انهماكه في الشطرنج:

- ما هـي دي أصل حكايتنا، تصورنا إن احنا لازم نقعد في حِجرْ حدّ، مـع إن إيران أهيه زي القردة، لا قاعدة في حجر حَد، ولا هاممها حد.

الروس ورطونا في ٦٧، واليهود الروس المُهجّرين همّه عماد الدولة اليهوديـة، وبعدين قعدنا في حِجر أمريـكا، وأمريكا بكل كيانها قاعدة جوّه قلب إسرائيل.

حكّ أمين فروة رأسه وقال:

- أنا فاكر قوي السـت صـافي لمّا قالت إن عبـد الناصر ده زي أخونا الكبير.. استأمنّاه على الأرض والبيت، رهنّا له الصيغة، ركبنا معاه الأتوبيس، لقيناه حالـق حواجبه.. ونزل بينا الترعة.. وخلاص.. خلصت الحدوتة، حلوة واللا ملتوتة.

رد ماجد:

- **ملتوتة طبعا يا أمين يا سخيف، طيب واللي بعده؟**

قــام العم ســامر واقفا بجــوار ابنه الذي أعلن، كــما في الحديث الشريــف، (**أنــت ومالك لأبيــك**)، فوضع كل ما يملك بعــد عودته من أمريــكا في حجر أبيه، واكتفى بمصروف شــهري وعربية وســواق، كما اقتسم الأكل وبعض الأرباح.

قال العم سامر:

- **القنبلة الخارقة للأسمنت قَطعّت مطاراتنا حتت، طلّعت بطنها من جوّه، اعتمد التنظيم العســكري المصري على العقيدة العســكرية الســوفيتية، دخلت القوات الإسرائيلية من الجنــوب والجيش المصري قاوم بشراســة، الناس بتقول حوالي ١٠٠ ألف جندي مصري استشهدوا، غير اللي اضطرّوا يمشوا ميتين كيلو متر على رجليهم.**

صاح سامح والد أمين قائلًا :

- **بس إحنا في حرب الاستنزاف ردّينا الصاع صاعين.**

- **أيوه لكن النتائج السياســية على الأرض، ماعـكـسـتـش ده يا سامح.**

همس أمين لنفســه «بقول نيتشــه»: **أبصق عــلى مدن الطامعين الوقحــين والفـُجّــار والتـُجّار المعربدين، المدن التــي يتكدس فيها من يأكلهم سوس الفساد، أبصق على هذه المدن، وعد أدراجك!**

كــرر أمــين كلمة: **عُد أدراجــك**.. أكثر من مرة في صــوتٍ خفيض،

انهمك الكل في لعبة الشطرنج، وتبادلوا المواقع، كما الكراسي الموسيقية ولم ينتبه إلى أمين أحد.

أدرك أمـين أن كيانـه توليفة من عميّه وجده وأبوه وأمه سُـعاد، وكذلـك ابن عمـه ماجد، راح مرة أخرى إلى ماجـد الذي، رغم مظهره الـدالّ على تفاهة فكـر، كان عميق الوجدان والسـفر والتجارة اللتين علّمتاه الكثير.

كانت قعدة الشـطرنج مُجهدة مُرهقة لأمـين، فيها أكثر من كِش ملك، مراوغة وانقضاض وهروب، كثير من القطع البيضاء والسـوداء في علبـة الموتى، انفعالات وتخطيطات، عصر ذهن، هزّ أرجل، صداع، حكّ فروة الرأس، إبعاد الكاب للخلف، بل وخلعه تمامًا.

تغيرت خطط الانتشـار والسـيطرة على المركز، اعتمد البعض على الخطوط المفتوحة واسـتغلال المربّعات الضعيفة، والبعض الآخر حدد مناطق التأثير ومناطق الاستقرار.

(تحرك الفيل يسارا في خط مائل، في طريق مفتوح باتجاه العدو)

قال العم سامر:

- **التـاني، ربّي الوحش.. قتله الوحش في الاسـتعراض العسـكري لذكرى حرب أكتوبر التامنة.**

(قفز الحصان في حرف إلْ L ليأكل العسكري الأسود المسكين)

- **والتالـت، حط ابنه على حجره، مَسّـكُه عجلة القيادة، مع إن**

العيل مابيسوقش، الواد ساق بسرعة وبعشوائية، ماقدرش الأب يتحكم، لا في حركــة العربية ولا في اتجاههــا، ولا قِدر حتى يوقفها.. طاخْ، الواد الأرعن داس بنزين، خيّشّوا هما الاتنين في الحيطة، اتدغدغت العربية، واتكسّرت الحيطة.

(انتفض الوزير مســتغلا إمكانية الحركة في أي اتجاه، وكل اتجاه، تربّص بالعساكر والفيلة والأحصنة ليلتهمها، باحثًا عن ملك العدو...)

- **كِشّ ملك يا ســامح.. كش ملك يا عوّاد..** (تحركت العساكر إلى الأمام، تحركت الطابية أفقيا ورأسيا).

- **الشارع غير ساحة القتال، والميدان غير الميدان.**

قهقه أمين قهقهة عالية وصاح:

- **هههههاي... الأمريكان طاروا فوق.**

تذكر النشيد الغريب، الذي كان يردده المجنّدون في معسكر حرس الرئاسة، والذي سمعه عندما كان يذهب إلى جده:

(طيارة.. طيارة فوق.. دبابة.. دبابة تحت،
وربنا.. ربنا فوق، وعباده.. وعباده تحت)

ثم بدأ أمين برفع عقيرته بالغناء.

(يا محنّي ديل العصفورة، وبلدنا.. تصبح منصورة.. يا محنّي ديل الكتكوت، والغاصب، يهلك ويموت.. يا حبيبتي يا مصر، يا مصر، يا

حبيبتي يا مصر، يا مصر يا بلادي يا بلادي...)

استمرّ أمين في الغناء في هستيرية غريبة؛ فطَبْطب عليه ماجد وهمهم:

- **معهلش يا أمين، المسألة مش إن مصر قاعدة في حِجر أمريكا... الموضوع موضوع توازنات.**

- **إيه يا ماجد إنت هاتخطب واللا إيه ؟**

- **ههههه كِش ملك !**

- **مات الملك، يحيا الملك... كلوا بامية، طلعوا الحق المُستحَّق البري بَم.**

كل ما كان أمين يتلقى معلومات، تاريخ، حكايات ناس، سيَر أقارب، أخبار.. كان يُفِّعل تلك المصادر والرؤى داخله، وكلما ازدحمت وضاقت به السبل، وبلغ السيل الزبى، (باظت وخربت، وجابت جاز).. وكأنها كل تلك الأحداث كحبأت الخرز أو البلىّ يملأ بها برطمان، حتى يمتلئ، والبلي والخرز، يكتر ويزيد يطفح ويقع على الأرض، وكأن أمين ينشق، كما ينشق الصدر.

كان ينسحب من عالمه تدريجيًا، دون أن يُحس به أحد، وأحيانًا كان يضع كلتا يديه على أذنيه، لم يود أن يضيف إلى الخرز ولو حتى خرزة واحدة، ولا أي أصوات لعربيات أو كلاب أو عيال تبكي أو تصرخ،

أو نسـوان تصـوّت، أو رجال تزعق.. كان، رغـم كل ذلك، يمتلك طاقة نفسـية جبارة، وكأنه يجبر زجاج البرطمان على التوسع، بالعافية، هكذا ليضع مزيدا من البلي والخرز، كل ذلك كان مرهقًا منهكًا إلى حد بعيد، يضطره لرمي كل تصوراته تلك في القمامة.

كان الإجـراء الوحيـد في حوزته هو أن يـشرَد، أن يبتعد، وكأنه في دائـرة مكتظـة مزدحمة ممتلئـة، مدموجة.. كان وكأنـه يلعب لعبة كرة القدم الشـهيرة في الحواري والشـوارع (الصَدّة.. ردّة): هما لاثنان فقط في مواجهة بعضهما البعض، كرة يشـوطها الأول على مرمى الثاني؛ **فإن أصاب أصاب، وإن صدّهـا الآخر ردّها عليه ليصيبه، نعم توظيف وتوظيـف مضـاد، فكرة وفكرة مثلهـا.. لكن عكسـها، عملية يكتنفها الغمـوض والإثـارات المُفرطة التي تأتي عبر الفضائيـات بكل خراتيتها، وشـوارع حُبلى بالحركة والناس، والناس كثيرة تملأ عينيّ أمين ليرى أكثر، أو ليعمى.**

انصرف الجمع العائلي.

ضغط ماجد على يد أمين قائلًا له:

- **خلّلينا نشوفك يا بَطَل.**

ابتسم أمين ابتسامة حيْري وقال مجيبًا:

- **إن شاء الله... بس إيه حكاية بطل دي.**

لم يكترث ماجد للإجابة، كأنه لم يسمع، مضى خلف أبيه، فلقد كان

هو وماله لأبيه، لكن أمين كان أقرب لأمه، لم يرَ نفسه بطلا، لكنه يريد أن يكـون ذا فائدة للبشرية، نعم أن يحـذو حذو ليوناردو دافنشي، أو ألفريـد نوبل، مخترع الديناميت، نعـم ديناميت جديد يفجر الذاكرة، حتى يتمكن أمين من إنقاذ الوطن.

يوم وليلة عند الجَدّ

صحى أمين مـن نومه صبـاح الخميس، همهم لنفســه (الوطن، الوطنية.. مــاذا بالضبط؟.. هــل الوطنية هتـاف وحنجرة وأغنية وموقف تليفزيوني سياسي؟ هل تم اختزال ملامح الوطن؟ عاد أمين إلى ما قرأه ســابقًـا (هل الشــيوعية خيار وطني؟ وهــل الجمهورية خيار وطني؟ وهل النظام الإسلامي خيار وطني؟ وهل إســقاط مبارك عمل وطني؟ وهل الكفاح المُسلح عمــل وطني؟ وهل كامب ديفيد عمل وطني؟).. إن مفهــوم الوطنية مُلتبِس ضبابي نســبي وذاتي.. صحيح.

تساءل أمين، بينه وبين نفسه، مرةً أخرى عن مفهــوم الوطن، المواطــن، الوطنية ؟! هل الوطن هو المكان، المنشــأ، ما نأكل ونعمل وننام ونقضي حاجتنــا فيــه؟ والوطنية ترى هل هــي الدين أم العشــيرة، كيف يفهمها ويراها القبطي والإخواني

واليساري.

ماذا يعنـي الوطن للفـلاح والعامل والموظف... هـل هو مجرد سيادة، أم أنها مسألة مُلتبسة وضبابية، وهل كانت ثورة ٢٥ يناير فعلًا تنتـزع الوطنية من يد النظام لتضعها في يد الشـعب؟.. وهل المجلس الأعلى خطف كل المفاهيم وشوشها؟!

احتار أمين وتعكّر مزاجه فارتاح قليلًا على كرسي يشبه كرسي جدّه، ثم بدأ يغني **(حُب الوطن فرض عليّا.. أفديه بروحي وعينيا).**

كان أمين يحب أن يبيت عند جدّه في عمارات العبور أحيانا، عادة ما يكون ذلك ليلة الخميس ونهار الجمعة، كان الجد يقطن الدور الثاني من المرحلة الأولى، شـقة مُتسّـعة بحرية، باردة بردها حلو في الصيف، وقارصة مزعجة في الشتاء.

كان أمين إذا ما فتح الستارة، رأى برج المراقبة تحته، تترامى أمامه أجـزاءٌ كبيرة من بنايات المعسـكر، اصطبل الخيل، مسـاحات خضراء متناثرة.. كلاب.

كان أمـين يصحو على نباح الكلاب، فيحس بأنه يمرّ بكابوس، لكن مع مرور الوقت كان قد تعوّد على سماع آذان الفجر وخبط عربة جمع القمامة ونباح الكلاب العالي الصوت والمزعج جدا.

عند بـزوغ النهار وطلـوع الصبح، كان أمين ينصـت جيدًا لقائد

الجنــد، غالبا ما يكون صول خبير في التدريــب لكل دفعة جديدة من المُجنّديــن الذين يفرزون بدقة من أماكــن التجنيد، تتوفر فيهم البنية العفيــة، الذكاء والفطنة وحســن التصرف، أما باقي الفــرز، الثالث أو الرابع، فكانوا يرسلونه إلى قوات الأمن المركزي، بينما تحتفظ معسكرات حرس الرئاسة والشرطة العسكرية، بالفرز الأول والثاني.

سمع أمين صوت المدرب خافتا وصوت الجند مدويًا:

«طيارة، طيارة فوق...
دبابة، دبابة تحت..
طيارة، طيارة فوق...
ربنا، ربنا فوق،
وعباده، وعباده تحت!»

أحيانــا وســط النهار ما كان يســمع أمين مارشــات الموســيقى العســكرية، تعزف ألحانا مميزة مثل (**وطني حبيبي... وطني الأكبر**).. لم يعــرف أمــين اللحن لأنه لم يعــاصره، لكنه ســمعه أحيانا فلم يجد حرجا في سؤال جدّه:

- **اللحن ده بتاع إيه يا جدّو؟**

- **ده بتاع اللواء الدكتور محمد عبد الوهاب.**

- **لواء..**

- **آه يا سي أمــين الراجل كان مميزًا، وأخــد الدكتوراه الفخرية،**

والجايــزة التقديرية في الفنون»، الجيش حــبّ يتشرف بيه، فاداله رتبة لوا... هههههاي.

(ضحك الجدّ ضحكة مكتومة مفهومة).

- **طيب إيه حكاية وطني الأكبر دي؟**

- **لما تمت الوحدة بين مصر وسوريا طبّلوا وزمّروا، وحبّوا ينسّونا اســم (مصر)، وبقينا حاجة كــده ما لهاش معنى اســمها (الجمهورية العربية المتحدة)، ولمّا عبد الناصر حط حجر أســاس السد العالي، غنّى النشيد مجموعة من المطربين، منهم عبد الحليم حافظ وصباح ووردة وفايدة كامل.**

هزّ أمين راسه ودخل في التوّ واللحظة على اللاب توب، فتح موقع اليوتيوب، سمع الأغنية ثم راح إلى جدّه متسائلا:

- **دي الكلــمات جامدة قوي يا جدّي..دي بتقول وطني حبيبي، يوم ورا يوم أمجاده بتكبر!**

أكمل الجدّ في سخرية:

- **آه... وانتصاراته مالية حياته! ووطني يا زاحف في انتصاراتك!**

قال أمين وهو يحكّ فروة رأسه:

- **ده كدب، ما أكتر هزائم العرب.**

قطع حديثهما مــارش آخر، وجد أمين صعوبة في تتبـُعه، ابتســم

الجدّ بوجهه الأبيض المنوّر المدوّر وقال:

- **ده النشيد الوطني القديم لمصر، اسلمي يا مصر إنني الفدا.**

تمتم أمين لنفسه:

- **اسلمي يا مصر.. اسلمي..**

ضحك الجدّ بينه وبين نفسه، فاهتزّ كل جسمه، وهو ما زال جالسًا على كرسيه، مرتديا بيجامته المقلمة، وطاقيته التي تحمي صلعته، تلك المصنوعة من نفس قماش البيجامة...

صاح أمين فجـأة (وكان الجدّ قد غفل مغمضا عينيه، مُسـتغرقا في غفـوة قصيرة، كان يدخل فيها بين الحـين والحين الآخر، طلبا لراحة الذهن والجسد)، انتبه وقال في صوت مُرتبك:

- **أيوه... أيوه، فيه إيه يا أمين؟**

- **الفداء، التضحية، والولاء..**

- **أيوه... ده شعار حرس الرئاسة!**

تذكر أمين إدريس وهو يسـأل، مائدة العشـاء الأخير، تذكّر صورة أعضـاء المجلس الأعلى في اجتماعاتهـم، في كل نشرات الأخبار، وفي كل البرامج بلا اسـتثناء، واضحةً جليّة، فاقـت في وضوحها وتكرارها صورة مبـارك، وعلى خلفية الصورة مُذيع أو مُذيعة أو إنجاز، لم يتحدثوا أبدًا عن إخفاق أو فشل أو انهيار، كانت كلها إنجازات.

سأل أمين جدّه:

- **ولاء لمين؟**

- للرئيس ! طبعا..

- **طيب والوطن؟**

ضحــك الجــدّ عاليًا فترجرج جســدُه مرة أخــرى، وسرح في غفوة قصيرة ثم أفاق وقال:

- **لأ... ما هو عند نــاس كثير أمن الرئيس هو أمن الوطن، حتى لو الرئيــس ده ديكتاتور أو حرامي أو ظالم، هــو الرئيس، هو الوطن.. وبكده يبقى إحنا وطننا هو الرئيس، وحياتنا هي الرئيس، ولما يتسجن الرئيس لأول مرة في تاريخ مصر، يبقى إحنا كمان نتســجن في شوارعنا وجوّه بيوتنا، فهمت المأساة جَت منين يا أمين؟**

رد أمين بسرعة:

- **نتسجِن جوه نفسنا إزاي؟**

- **نـُجهض..**

مدّ الجدّ الحروف وأطال نطقها.. وأعادها: **نجهض!**

تــرك أمين جده في حاله وفي غفواته، تأمل السُــفرة وعلب الأدوية المرصوصَة عليهــا بعناية، بعد وفاة جدته، لم يرض جده أن يعيش عند أحد، ولا أن يعيش معه أحد.

تمـــشى أمين بطول الصالة ذهابًا وإيابًا من أول شـــبُّاكها الألوميتال العريـــض المطل على مُعســـكر الحرس، حتى بابها الـــذي يفتح للداخل مُطلًا على مساحة مستطيلة بها ثلاث شقق أخرى، وبعض القطط التي تتزاوج كثيراً، بعض من فضلاتها وآثار أقدام أولاد الديلفري.

توقــف أمين أمــام مكتبة جــدّه بالصالــة، تنبّه إلى صــورة رجلٍ وجيه أنيق بطربوش وشــارب مُحفف، على كتاب باســم «**عبد الرزاق الســنهوري**»، كان الجــدّ وقتها قد أفاق، وانتبــه.. لاحظ الكتاب في يد أمين، ابتسم وناداه ليجلس إلى جواره، سائلًا إياه:

- **إنت عارف ده مين يا أمين؟**

- **لأ..**

- **ده أحد أعلام الفقــه والقانون العربي، كان وزير معارف مصر (تربيــة وتعليم يعني) أربع مرات، هو اللي حــطّ القانون المدني لمصر وليبيا والعراق.**

بدأت الحماسة تظهر على ملامح الجدّ، الذي كان قد قرر ألا يغفو لفترة طويلة، عدّل من غطاء رأسه واسترسل:

- **سافر السنهوري إلى فرنســا وخد الدكتوراه أيام الملك فاروق، ولما قامت ثورة يوليو أيدها لكن...**

امتعض الجد قليلًا وانتبه أكثر لشغف أمين وقال:

- **لكــن، حاقولك إيــه والا إيه يا ابنــي، التاريخ بيعيد نفســه،**

بيعيد نفســه بالظبط، كإنه نُســخة بالكربون، السنهوري طلب إرساء الديمقراطية، وحلّ مجلس قيادة الثورة، وعودة الجيش للثكنات.

تقدم أمين إلى حافة كرسيه متأملًا التاريخ على وجه جده وسأل:

- هه وبعدين؟!

- أبــدًا، خلافــه زاد مع عبد النــاصر، اللي حلّ مجلــس الدولة، السنهوري كان نفسه في سلطة قضائية تكون حَـكم بين الدولة الجديدة وبين الناس.

هزّ أمين رأسه هزًا عنيفـًا، لم يعرْه الجدّ اهتمامًا واسترسل قائلًا:

- الظبــاط أخرجوا الســنهوري مــن الســاحة القانونية، ومات بعديها ســنة ١٩٧١.. وآدي احنا في حيص بيص من ســاعتها، وراح من عمرنا ستين سنة!

ترقرقت عينا الجدّ بالدموع وتحجرت فيهما.

وضــع أمين كلتا يداه على أذنيه، وكأنه يصد أصواتـًا هائلة مرعبة، ضحك لنفسه فخاف عليه جدّه، تمتم أمين قائلًا:

- وأنا صغيّر ماما قالتلي: يا أمين ابقى اعصر لمون على التونة قبل ما تاكلها؛ فعصرته على العلبة من برّه، هِهه هِهه.. تفتكر ده اللي حصل لمصر يا جدي؟ إن عمرها ما عرفت تعمل حاجة صَح، ولا تكملها صَح، ولا تفهمها صح.. مصر ما داقتش التونة بلمون، هههههاي، هههههاي.

انطلق أمين في ضحكة هســتيرية عاليــة، وكان يضحك هكذا، لأنه كان يحــاول جاهدًا أن يوائم بين ذاته وذات جده، بين ســنوات عمره الأربع والعشرين، وســنوات جده الأربع والسبعين، كان يرى أن ما بينه وبين الرجل ليس أنه ابن ابنه، ولا أنه يحمل بعضًا من جيناته.

كان أمين يحس بالتشوش يكاد يقتله، ويحس بأنه ملوّث، وبالكاد يجمع شــتات ذهنه، وكان يحــاول جاهدا فضّ الاشــتباك الداخلي في دماغــه، أحس بأنها تلك النسْــمة التي تســبق الصَرْعة، ذلك الشــعور الخــاص الذي يقترب مــن النوبة، لم يكن مصابًا بالــصرع، لكن زحمة الأفــكار والتفكير فيــما يحدث وما حدث وما يمكــن أن يحدث، تدفع بــه دفعًا إلى إحســاس بالغلبة والغم والخــوف، ولا يتمّكن من الكلام بســهولة، كانت دماغه تأخذ في حسبانها كل شاردة وواردة، بما في ذلك تاريخه وتاريخ بلده وأسرته.

كان منتبهًــا بشــكل فائق، وكان الفضــاء والأرض ومن عليها بكل عمقها واتســاعها وتعقدّها أكبر من جُمجمتِه بكثير، كان همّه الداخلي كبــيرًا، مما جعله يشــعر بعظمته وأهميته، وبالتالي كان ذلك ســببًا في مشــاكل كثيرة، كان يحلم بأنه طال القمر ووضعه في شــنطة ونزل به الأرض، وزّعه قطعًا صغيرة على أفراد أسرته وعلى أفراد الشلة.

انتبه على صوت جده وهو يتلو آية من القرآن الكريم:

-«**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه**»؟

أعقب أمين:

- دي الآية المُنزّلة بخصوص الغيبة.

- أيوه وأقبح أنواع الغيبة، قلّة الحياء، ذمّ الناس ومدح النفس، والمُستمع للغيبة شريكٌ فيها.

انتفض جسد أمين، أحس بأن الغرفة حوله تتحول بئرًا عميقًا وكأنه جُبّ يوسف، سمع قهقهات أخوته الأحدى عشر، تحسس قميصه، أحسّ بالضوء يخبو، والظلمة تعُمّ.. تسارع تنفسه وضربات قلبه الذي غاص في قدميه.

صاح أمين:

- يوووه، ده كده عالم كتيرة بتاكل في لحم اخواتها ميتين.

دق جرس الباب ثلاث دقات متتالية، فزع لها أمين، وانتبه لها جدّه قائلًا له:

- افتح..

- تلاقيها صباح بنت الست نجية، جاية تنضّف وتحضّر الأكل.

فتح أمين الباب، فنظرت إليه صباح الممتلئة للغاية نظرة، قالت له في دلال:

- إزيك يا سي أمين عامل إيه؟

- الحمد لله.

- يستاهل الحمد، إلاّ قولّي يا سي أمين، هو الجِنّي لما يتجوز

إنسي، يخّلفوا إيه؟

فوجئ أمين بالســؤال، نظــر إلى الخلف مســتعينًا بجده الذي لم يسعفه، فرد أمين دون تفكير:

- **يخلّفوا إيه؟ يخلفوا مسخ يا صباح! فيه إيه مالك على الصبح؟**

- **أصل جوزي المِنيّل، حيواناتــه المنوية بطيئة وبتموت بسرعة، حتى الحقن المجهري مش نافع، تعرفشي شيخ كويس، أو حدّ له كرامات يفك عني المسّ.**

- **مسّ إيــه وتخريف إيه يا صباح، إيشــحال ماكنتيش متعلمة وخريجة جامعة.**

- **لأ لأ يا سي أمين! ما تشــككش في إحساسي! ده الجني بيجيني عــلى وش الصبح بعد الفجر بشــوية، ويقعد يزغزغنــي في المكان اللي بيطاهرونا فيه! هيهيه!**

غمزت بعينها وعدّلت من منديلها فوق رأســها، وهزّت جســدها الضخم وهي تتمهّل الخـُطى، تضحك ضحكة رقيعة، لم ينتبه لها الجدّ، أو علّه انتبه، لكنه كان على ما يبدو قد تعوّد على ذلك.

أحمرّ وجه أمين، التزم الصمت، ونظر مرة أخرى إلى جده؛ فوجده دخل في إحدى غفواته الطويلة بعض الشيء، نظر إلى الأرض وقال على استيحاء:

- **مش فاهم برضو.. إيه لازمته الكلام ده على الصبح؟**

- **أصـــل الجنّي ابن الجنّي ابن العفريتة، بيقعد كده ينكُشــني، من الآخر كده بيهيجني وما باحســش بنفسي خالص وبرضه.. يوه.. ما باحملش.. حتى الجنّي بيعرف يدخل الجنة، لكن مابيحبـلّش، شـفت الداهية الســودة والعيشـــة الهباب اللي أنا فيها، رضينا بالهم وبالجن، والجن مش راضي بينا، يرضيك كده يا سي أمين؟**

نظر أمين مرة ثالثة إلى جده، فوجده صحا من غفوته، توســل إليه بنظرته مُستنجدا، فصاح الجد عاليا:

- **بطّلي يا ولية وخـُشي شوفي شغلك! يالاّ بلاش دوشة.**

تمايلــت صباح بنت الســت نجيــة، دخلت إلى المطبــخ، مُحدثة جلبــة وضوضاء حريمي من نوع خاص، نوع (بلدي يوكل)، ردّت الباب وجعلته مواربا، كانت تغيّر ملابسها لترتدي ملابس الشغل، غير أن أمين كان دخل إلى الحمام، يستعد للوضوء والنزول إلى الجامع، ليؤدي صلاة الجمعة.

الرَجُل العَارِي

وقف أمين أمــام باب الأسانســير، يضغط على الــزر في ملل وتكــرار، منتظرا الفرج، بنزول الأسانسير.. سمع صوت المكن الذي يرفــع وينزل الغــرف الصاعــدة والهابطة، صوت السيور والجنازير والحبال الحديد المفتولة، خبط الوقوف، وضجيج الحركة الســيّئة المتعثرة الدالة على سوء الحال وسوء الصيانة وخطورة الوضع.

فتح الباب الألومنيوم ذا الطبقتين المتوازيتين ينزلق يمينا ليغلق ويسارًا ليفتح، دخل أمين مسرعًا، انغلق الباب ولما رفع أمين رأســه وجد أمامه رجلًا عاريًا.. تمامًا، كما ولدته أمه.. صامتا.. لا تعابير على وجهه ولا علامــات، يقف صامدًا كأبي الهول، كان ضخم الجثة.. ذا عظامٍ عريضة.

لم تبــدُ على أمــين أي علامات للدهشــة أو الاستغراب أو الاســتنكار، كان الرجل صامتًا، لكن

أمين تصوّر أنه سـمعه يدندن (**حبيبي لابس برنيطة، ومعلّق في رقبته شريطة**).. ظلّ الرجل واقفًا كما هو، ضخم الجثة عريض العظام.

أطرق أمين قليلًا برأسـه، وكأنه يحسـن الإنصات إلى صوت مكن الأسانسـير أو صوت الدندنـة الخاص «**بالحبيب اللابـس برنيطة اللي علـق في رقبته شريطة**»، أيضًا كانـت هناك صفارة خفيفة، نتيجة عدم انغـلاق البـاب جيدًا، أو علّها كانت من سـيرٍ قليل التشـحيم، أو ربما استرسـالا للدندنة، أو حفيف الهواء الذي يحـاول جاهدا التسرب من باب الأسانسير المغلق على أمين والرجل العاري.

بدا الرجل العاري واثقًـا تمامًا من نفسه، كان ذا بنية قوية وعزيمة صلبة، مُعتدًا بنفسـه، عمره يتعدّى السـبعين بقليـل، هكذا بدا، فتح الأسانسـير بابه، انزلقـت ألـواح الألومنيوم إلى فتحـات سرية داخل تجاويف بناء العمارة الغامضة.

مـشى الرجل العاري نحو مدخل العـمارة، عدّى على رجل الأمن، الـذي بلا حيلة ولا وجود، عدّى على الداخلين والخارجين، واثق الخطى يمشي ملكًا، يخطو على الأرض بقدميـه العاريتين منتظما رافعًا هامته، ناظـرًا إلى آخـر الطريق نظرة أفقية، نظرة لا محـدودة تتعدّى حواف الشجر والعمائر الأخرى، تتعدّى الطريق الطويل والسيارات المارقة.

عبـث الرجل في رحلته بمُخيلة ووعي الناس وقدرتهم على الإدراك والاستيعاب، سار أمين إلى جواره، بحذائه، وكأنه ظلّه، كأنه خياله، لكن أمين كان مُهتزّ الخطى، شارد النظرة منحنيًا بعض الشيء، مهزومًا بطيئًا

منكـــسرًا قليلًا، تائهًا وكأنه يبحث عن أمرٍ مــا، أما الرجل العاري فكان يبدو عارفا بكل شيء، يدرك وجهته ومسيرته، كان وقحًا منتصرًا مُتحديًا.

كان راضيًا سـعيدًا مُمتنـًا هادئًا وقورًا، لم يكن مجنونًا ولا مجذوبًا، ولا مخبولًا.. كان عاقلًا، مُتزنًا ثابتًا، لا تهتز له شعرة ولا يطرف له جفن، كان يُثبـت عورته للناس دون خجَل أو تحدّي، يُثبتها كحالة، ببســاطة وسلاسة وطبيعة وفطرة لا محدودة، لم يأبه لا بحرس الرئاسة، ولا بذوي البيريهات الحمراء، ولا حتى برجال المخابرات المُتخفين المنتشرين وسط الناس، دائمًا وأبدًا.

مشى الرجل العــاري، وبجواره أمين نحو المســاحة بين العمارتين، عدّى الحديقة التي تفصلهما دون توقف ودون تردد، مشى في الشــارع الخــادم الصغير، للشــارع الخادم الكبير للطريق الطويل، الذي سُــمّي باسم أحد الضباط الأحرار الذين لم يتركوا أي بصمة لثورة يوليو إلاّ سوء الإدارة، لكن ظل الشــارع وظلّ الاسم، امتلأ بالناس، واكتظّ بالسيارات، أما الشــارع الخادم الملاصق للعمارات المُهندســة بانتظام؛ فكان أشبه بهوليوود أو نيويورك.

عدّى الرجل العاري وأمين بحذائه متباطئا، بجوار محلات بأســماء أجنبية وبضاعة غامضة صينية أو مصرية مضروبة، أو أردنية إسرائيلية، محلات بأسماء وحروف أفرنجية، بجانب بنوك أجنبية وعربية، محلاّت موبايلات وخطوط هواتف ومحلات ملابس داخلية نسائية.

لم تــصرخ البنات ولم تنزعج الســيدات، ولم يــثرْ الرجال، ولم يهرع

أحـــد إلى تغطيته، أو الحدّ من مســيرته أو تعُطيلـــه أو دفعه للاختباء، كانوا كلهم بلا استثناء -حتى الأطفال- يسترقون النظر إليه، ثمة إعجاب بجرأته، تأمل لضخامة جسده وتكوين أعضائه التناسلية.

ســار يدّب على الأرض مؤكدًا عُريه وســط جمــوع الأسر والباعة والمشترين، وسط السُيّاس والخدم، وأولاد الديلفري، وسط الموتوسيكلات والســيارات على اختلاف ألوانهــا وأحجامها وموديلاتهــا، أمام بنايات أجهزة الدولة، ماكينات الصرف الآلي، والوزارات.

تذّكر أمين ذلك الحلم المُفزع، كابوس ارتياد المكان عاريًا متســولًا، فوطة الســايس القذرة، ذُلّه وهو يتســول بوكسر من المحل الشــهير، تحســس لباســه الداخلية وتأكد أنه موجود، ابتسم ابتسامة صفراء بلا معنى.

أسرٌ كاملــة العــدد بأطفالها وامتداداتها، جــدود وأعمام وأخوال، انتبهــت.. لكــن لم يكن لهــا أي ردّ فعل، تعالت الهمســات من بعض الســكان وموظفي المحلات، ومن عمال النظافة، وبعض محلات البقالة والصيدليات النائمة خلف العمارات، تســاءلوا: **هل هو الإنســان الأول يعود من جديد؟**

كان أمين أو كاد يســمع الهمسَــات، لكنــه كان مُصرًا ومازال على السير معه، بحذائه، كأنه هو، أكثر من أن يكون ظله أو شبحه أو خياله، ربما كان هو ذلك الرجل الذي احتلّ غرفة مُميزة أعلى الســطح يدخن فيها الشيشــة، يناجي منها الرب، يتأمل أطباق الدِش وشبكات الأسلاك

المتداخلــة، الوصلات المسروقة ومواســير المياه وعدة الســبّاك اللص.. يشــاكس الجرذان ويلاعــب الصراصير، ينفخ الدخــان في الهواء فتدمع عيون العصافير، وتطير بعيدًا.

قالــوا فيما قالــوا أنه كان يقتنــي كلبة بيضاء ناصعــة بلون اللبن الحليب، شــاهقة مثل الفلّ، لها عينان زرقاوتان، كلبة كلها على بعضها شديد السحْر والجمال، التقى بها أمين ذات مرة، وأحبها حُبًا جمًا، ونسى تمامًا أنها كلبة بنت كلب، لم يرها بعدئذٍ قط.

قالــوا أن الرجــل العاري سمســار خسر كل فلوســه في البورصة؛ فهاجرت زوجته وبنيه إلى بلدة أخرى قبل أن يقتلهم، وأكد البعض أنه ابن عزّ وجاه وجلال، خانته امرأته مع أعز أصدقائه (هههههاي، ضحك أمــين في صمت لنفســه، ضحك وقال **نعم هذا هــو الاحتمال الأكبر، لا الأصغر، أو أنه ليس احتمال على الإطلاق، أن الرجل لا يعرف الأصدقاء، فهــو معروف تمامًا بأنه وحداني، شــديد القســوة - والحنيّة.. في نفس الوقت**).

وقالــوا -فيما قالوا- إنه أتى من صعيد مصر بشــاربٍ ضخم وذقن حليقة، يشــبه إلى حد كبير الســيد أحمد عبد الجواد، في ثلاثية نجيب محفوظ، وأنه معلّم ســوق وأســتاذ صَنعة في تجــارة الأحجار الكريمة، ويتقن أيضًا عملية غشّــها ببراعة، يسُاعده في ذلك رهط رفيع المستوى من رجــالات الدولة وبعض المخبرين السرّيــين، كذلك كان ضباط أمن الدولة يحمونه ويعزّونه، يباركون له بالعروس تلو الأخرى، بأفراح الأولاد والبنات، وطهور الأحفاد، شمّ النسيم وكل الأعياد، يفطرون ويتسّحرون

معه في رمضان، يشربون معه الويســكي في شــقته المتسّعة المُطلّة على النيل من أوســع بحر فيه، يلفّون سجائر الحشيش، ويحتسون القهوة، ويضعون معه تحت ضروسهم (سِن) الأفيون.

ســمع أمين فيما سمع، أن الرجل كان يقتني سيارات الرولز رايس والميني كوبر، وتحف الملكة نازلي، يضاجع الخادمات وسيدات المجتمع.

انزعج أمين وتمتم لنفسـه (يا نهار اسـود، إوعى تكون أمي سُعاد اتعرّفت عليه، مُسـتحيل، مش مُمكن، ماما شريفـة وماتعملش كده، ويعني هيّ كانت ملاك.. لأ.. ممكن تعمل كده، ممكن أمي تبيع شرفها عشـان حجر كريم أصلي أو مغشوش؟.. لا لا مُستحيل.. لكن وارد، بس هـي البِت صباح بنت السـت نجية، مايعة ومايصـة، والرجل العاري بيعزّ المسـخرة والعفاريت والنسـوان والفلوس، سكن في قصر في مصر الجديدة، فتـش في أروقتها عن رائحة البارون إمبان، ولم يجدْه، الرجل العـاري هو بارون إمبان مصر الجديدة بعـد الثورة.. هههههاي.. آه يا بلد عايزة الحرق).

كان الهمس يتزايد، وأحيانـا يبدو لأمين؛ وكأنه خارج من مُكّبرات الصوت، تلك لمعسـكر حرس الرئاسـة، أو الأخرى المُثبتة على المآذن أو علّها الأبواق الطالعة من أجهزة الراديو والتليفزيون.

الرجـل العاري إذن -والعهدة على الـراوي- كان أبوه أصمًا أبكمًا، ولدته أمه في ليلة قمرية مجنونة في اثنى عشر ساعة، ولد طفل ضخم، ثم صار صبيًا ذا بأس شـديد، وشـابًا يافعًا مفتول العضلات، رجلًا يملأ

الدنيا وجاهة وحُسـنًا، متناسق الأبعاد الجسـدية، إذا ارتدى الجلباب الصوف واللاسـة الحرير اهتزّت الأمكنة التي يرتادها، وإذا تهيأ بالبذلة الكاملـة ورابطـة العنق المُثلثـة والمنديل الطالع مـن جيب الجاكت، أصبح كالعرّاب في الفيلم المشهور، كرجل مافيا من الطراز الأول، عميق الصـوت، مُقنعًا مُتمكنًا، وإذا لبس لباسـه الريـاضي العالمي ذا الماركة الشهيرة، والنظارة السوداء الإيطالية غلب فرسان الرياضة.

كان أمين في كل تلك الهمسـات والاحتـمالات، يحاول أن يتماهى معـه، لكن عُرىْ الرجل الطاغـي، كان طاغيًا على كل موضة، وعلى كل شكل وعلى كل أناقة، سمع أمين صوتـا مسرسعًا فيه بعض الصفير.

سـمع أمين أيضًا أن جدّ الرجل العاري كان ضريرًا، كفيفًـا لا يرى، لكـن بصيرته حيّزت له الدنيا بحذافيرها، لأنه كان كما قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: «ينام مُعافي في جسـده، آمنـا في سربه»، وكان جـدّه كما عرف أمين، إذا ما جاء فيضـان النيل، وضيّعت المياه الغامرة حدود أراضي الفلاحين، وقف بعصاه الغليظة يرسـم الأراضي والحقوق بكل دقة وثقة.

حـدث أمين نفسـه مطمئنًا.. **نعم رجـل بهذه الجينـات، وبهذا التاريخ.. له أب أصم وأبكم، قادر على فعل كل شيء، وجدّ ضرير يحكم بين الناس بالعـدل، يملك الجرأة -حتمًا- على مواجهة العالم بجسـده، ولكن أنا، أمين.. ابن المهندس سـامح أحد أبطال حرب أكتوبر، وابن أخ المهندس سامر من مهندسي السد العالي، وابن أخ المقاتل الذي استشهد في روسيا إبّان غدر التدريب للميج ٢١، قادر بقوة قادر أن أقوم بأشياء**

أخــرى ربما، التفتت المرأة البدينة الجاثمة على صدر الرصيف منذ دهر إلى الرجل العاري، دعت له كما تدعو لكل المارّين، دعَت أن يستره الله ويرعاه، وأن يُحســن إليها، لم تنتبه إلى أنه عارٍ، لا يحمل مالًا، وليس له جيــوب، ولا تقبــض أي من يديه على أي من المال، لكنها اســتمرّت في الدُعاء، واســتمرّ هو في الســير واثقًــا ثابتًا، يمشي بخطواتٍ محسوبة لا تنفرج ولا تضيق، بجواره أمين يحاول متعثرًا أن يكون أو لا يكون، يسير كما يسير، فلا يسير، يهيب بالخلق الواقفين أن ينظروا إليه.

كان الإصرار غالبــا على الرجل العاري، وكان التردد غالبًا على أمين، الذي سار بجواره كأنه هو يشحذ الثقة.

صارت للرجل العاري في المكان والزمان خصوصية مُنبثقة عن الأمر الواقع، وربما الاحتياج الشديد إلى المشهد.

ظل الرجل العاري محافظًا على وهجه، مزهوًا بقوته أمام هشاشة الآخرين وعاديتهم، ولما ســأل أمين نفسه عن الروح المُختبئة وراء ذلك الجسد الضخم العاري، جاءته الصُفارة والإجابة على مراحل:

- **الروح من أمر ربي.**

- **هل فعل ذلك عن عمد أم تلقائيًا.**

- **ربمــا أمرته الأصوات بالتجرّد من كل ما يقيده ويزيفه ويخفي حقيقته.**

جرى الرجل العاري يسابق الريح.

همس الناس لبعضهم البعض وفي أذني أمين:

- سيكون الأمر حالًا.. تحت السيطرة.. سيحضر البوليس.. البوليس مشغول، ستحضر الشرطة العسكرية.. ربما الأمر يحتاج إلى قرار سياسي.. ربما، سيأتي ممرضو مستشفى المجانين بقميص الأكتاف والحقن الفظيعة.. لكن هل سيتمكنون من الإمساك بحقيقته، أو بروحه هو لا يملك أي أوراق ثبوتية.

كان الرجل العاري يسير الهوينى عموديا في اتجاه الشارع الرئيسي المُزدحم، يطير كالرُخ، يرفرف كالعنقاء، كالفانتوم، كان يحسّ بحرًارة داخلية شديدة، بالت أحذيته القديمة، أما أحذيته الجديدة باعها كلها، تحللّت ملابسه وظهرت بعض علامات الاتساخ على جسده القمحي، كان كالسائر نائما، كالذي يسير بحركة الأفلام بطيئة Slow Motion، يلجُ عوالم أخرى، محسوسة وخفية، يسكن في المانيكانات داخل الفاترينات، يتعلّق على حبال الغسيل، ويرقد على ترابيزة بائع الجرائد.

تلاشت ملابسه وهويته واختفت اختفاء غامضًا ومُريعًا في تلك الليلة، تبخّرت كالقمر الصناعي المصري، وكالرادار، كالنجمة في أعالي السماء..

صار كالملاك الحارس للعين.. لا يُرى لكنه موجود.

أحس الناس حوله، أمامه، وخلفه؛ بريح التوجس وبعض الخوف، واستشعر أمين بنسمة تنسحب معها روحه، كان الراحين والغادين، في

حلّهم وترحالهم، يسيرون، لا يعترضون ولا يشتكون، لا يتقززّون..

لم يستره أحد بورقة توت.

لا الأمر ليس كذلك، صاح أمين:

- خطف الجنّي ابن الجني، ابــن الكلب، ملابس الرجل العاري وهــو بيســتحمّى في النهر لا.. وهــو بيبلبَط في حمام الســباحة فوق الســطح، هههههاي.. حمام ســباحة فوق الســطح، النهــر المُمتد بين العمارات والبحيرات اللّي في وســط الشــارع.. لا ده ساحر الست نجية المغــربي عمله عمل، ولاّ عمــل لنا إحنا عمل، وأخرج المشــهد، لا.. ده الطرف التالت، أو الصبيان بتوع اللهو الخفي.. ويمكن اتأثر بالنســوان اللي رموا عليه إشارة بعد ما اشتهوه وهو ماكانش له رغبة ولا قوة ولا قدرة.

انطلق الرجل العاري في حركته البطيئة نحو الشــارع المزدحم جدًا Slow Motion ثم طار في الهواء كسوبرمان... دون ملابس.. طار كتلك المخلوقــات الأســطورية في لوحات مايكل أنجلو... رجــلٌ أمامه ورجلٌ خلفه، وجسد عار ضخم يشدّ الهواء في بطء وهدوء، ثم يختفي.

وبدأ الهمس كأنه الصفــير عاليًا.. هذه المرة في أذني أمين... الرجل العاري يحلـّق الآن فوق القيــادة العليا للمنطقة... تحرّك إلى منتصف البلــد.. جــاءت الأنباء واضحة على شريط الأخبــار.. إنه الآن في محمد محمــود والقصر العينــي.. حطّ بكل ثقله فــوق وزارة الداخلية.. أكل فولًا على عربة الفــول المركزية، شرب عصير القصب من أحلى محل في

منيل الروضة، دخّن في شراهة ســيجارة كليوباترا، ولعّب حاجبيه لأمين الشرطة الواقف على الناصية.

حــاول أمين أن يطير مثله؛ فضحك.. لم يكن أمين قادرًا على العُري، ليتمكــن من الطيران؛ لكن نســمات الرجل العــاري، أعطت أمين بُعدًا وعُمقًا كبيرين، كسر بهما شوكة الهزيمة، بعض الشيء.

على ظَهر الموتوسيكل

بعدما اختفــى الرجــل العــاري طائــرا بالحركــة الســينمائية البطيئــة Slow Motion، تبخّر في عادم الســيارات ودخان السجائر، في تأفُف النسوة، صريخ العيال، خروج الغازات من البطون، مزيج العرق والتراب والصهد وقسْوة الالتصاق، زمجرة أبواق السيارات، صريخ فراملها في محاولاتها الحثيثة للتوقف عبثًـا، صوت ارتطــام الحديد بالأســفلت، والكاوتش بأجســاد البــشر، الســيارات المارقة في صدمتهــا للعابرين والواقفــين، صوت انبثاق الــدمّ ورائحته الخاصة، عبْــق الموت وأنينــه، تراب القــبر وملمس رخام الضريح، ســعف النخل والزهور الكالحة العديمة الرائحة العفِنة الساق، المُرهقة الأوراق.

صوت ســيرينة ســيارة الإســعاف البرتقالية، وهــي تجاهــد للوصــول إلى الضحايــا، الضجّــة والجلبة والضوضــاء، الاكتظــاظ والتوتر والصهد

وجهد المكان.

لم تكــن هناك أي جُثة لأي أحد، ولم يكــن هناك رجل عاري، عله مَضى كأنه طيف، وكأن أمين لم يرافق أحدًا، ولم يسمع أحدًا، لكن هُيّئ لــه! وكأن الرجل العاري عفريتًا من الجــن، أو دخانـا من نار وقودها النــاس والحجارة، تأملّ أمين أطرافــه، تلـّمس يديه، دقّ الأرض بكعبيه ليختبر وجــوده وليفحص كينونته، كان ســعيدا برحلتــه كظل للرجل العاري، رفيقـا كرجل لابس يســير بحذائــه، رجل يرتدي رداءه في قيظ الحر وزمهرير الشتاء.

ها هــو أمين يبــدو الآن مُختلفًا بعد اختفاء الرجــل العاري، عبر النفق بعرض الشارع الطويل، طلع من الناحية الأخرى ليلتقي ابن عمه ماجد تحت الشجرة بين محطة البنزين والمسجد المُقام على الناصية.

جلس ماجد، مقرفصًا، أمام موتوســيكله رآه أمين من بين تركيبات الموتوسيكل المُزيّنة، راقبه جيدًا وهو ينظف موتوسيكله ويزيّنه ويزيده رونقـا وترتيبا وبهاء.

كان الموتوسيكل «هارلي» أسود لامع فخم.

وقف أمين محييًا ماجد الذي رد السلام في اقتضاب، سأل أمين عن الزي الواقي المميز (اليونيفورم الخاص بركوب الموتوسيكل).. فتح أمين حقيبته وتحسّس الرداء، اطمئن وطمأن ماجد.

أشار إليه ماجد بضرورة ارتدائه، فوضع أمين الخوذة السوداء ذات علامات اللهب على رأســه، ثم لفّ ما يشــبه القناع على وجهه وارتدي

النظارة السوداء.

أخبره ماجد بأن المسيرة ستبدأ من شارع الطيران قبالة محل الفول والطعمية، أفهمه انه ليس مســموحًا في الركب أن يصطحب أحدٌ أحدًا وراءه، لكن القائد صرّح بذلك كحالة استثنائية.

أدار ماجد الموتوسيكل، داس على البنزين، أمسك بذراعي القيادة، كان لابســا قفازا خشنا أسود سميك منفوخ، احتضنه أمين من الخلف ماســكًا وســطه بعناية، بينما ترك ماجد نفسه للموتور المُزمجر وللريح العاتية.

عوج ماجد الموتوســيكل، دار به، انحرف مع لفّة الطريق، وأحيانًا كان يعلو بمُقدمته في حركة انتصاب بهلوانية في الهواء.

أحس أمين بأنه ينطلق، يتحرر، يتوهج، ينتفض، يبتهج.

أخــرج بيده اليمنــى ورقة بنكنوت، فئة مائــة دولار؛ وكان مازال متشــبثًا بوســط ماجد بذراعه اليسرى، ووضع المائــة دولار أمام وجه ماجد الذي كان يركز على الطريق ويحدد المسيرة.

زمجر ماجد مع زمجرة الموتوســيكل، صاح في أمين **(امسك كويس بإيديك الاتنين يا أمين.. امسك مش عايزين مصايب).**

صرخ أمين في وجه ماجد وفي وجه الريح: ٠

- **حاضر!**

أدخـل أمين المائة دولار مـرة أخرى إلى جيبه وعاد إلى التشـبث بوسـط ماجد فوق الموتوسـيكل البهلواني الهـادر، يتلوى بين الناس في وضع خاص، وهيبةٍ متمكنة، شدت انتباه المارة على اختلاف مشاربهم.

- **أيوه يا أمين، كنت بتوريللي الـ ١٠٠ دولار ليه؟**

- **عشان تدقق في صورة بنيامين فرانكلين!**

- **ماله؟**

- **راجل ماحصلش!**

عـدّت كل الموتوسـيكلات السـوداء المميزة، وعليهـا رجال ذوي بزّات سـوداء مميزة، وكأنهم أسراب جراد تطير على آلاتها فوق الأرض، لهـا خصوصيتها واختلافها وتميزها عن موتوسـيكلات الأسر والدليفري والعمال والآخرون من شرطة وما شابهها.

- **ليه بنيامين فرانكلين ماحصلش يا أمين.**

- **هو اللي اصطلح لفظ Electricity كهرباء.**

- **ماشي!**

ردّ أمين في صوت عال في وجه الريح والضوضاء:

- **لأ.. مش ماشي يا ماجد، الراجل ده قال فيما قال (من يتخلـّى عن حريته خوفًا على أمنه، لا يستحق حرية ولا يستحق أمنًا).**

هزّ ماجد الموتوسيكل هزًا عنيفًا وقال:

- **يا الله... يا مُثبّت العقل والدين!**

داس ماجد بنزين وانطلــق كالريح بين أقرانه، بدا السرب الراكب موتوسيكلاته وسط المدينة غريبًا مثله مثل كوكبةٍ متحركة من الكائنات الفضائية.

فجــأة انفجر أمين في نوبة من الضحك الانفعالي الشــديد، ســأله ماجد:

- **فيه إيه يا عم أمين، إيه اللي بيضحكك؟**

- **لا يا عم ماجد، افتكرت أسراب الجراد اللي غزت سماء القاهرة في يوم أربع، ما هي البلاوي معظمها بيحصل يوم أربع.**

- **تقصد مُنقلب الأربعاء الدامي؟**

- **ههه حلوة مُنقلب دي.. أيوه يا فليسوف موقعة الجمل.**

- **المصريــين دول نــاس حكايتهم حكاية.. يتخضّوا من كســوف الشــمس، ويترعبوا من حاجات كثيرة، ويســتبيْعوا ضد النار والرصاص، ويخـُشوا بصدرهم جوه المدرعات.. المهم الناس ساعتها ماكانتش شافت جراد كتــير كده، ده حتى غطـّى عين الشــمس، وحطّ على الســطوح والعربيات.**

ضحك ماجد وقال:

- **والمسئول المصري يا أمين أفنديْ، لام اتجاه الريح، أُم الريح اللي**

غيّرت اتجاهها، كان لازم تقولنا، أصل احنا دايمًا عندنا ردود فعل، عمرنا أبدًا ما هايكون لنا فعل، نحتاس في المطرة الكتيرة، نغرق في شبر ميّه، وفي الزلزال كانت فضيحتنا بجلاجل.

وشوش أمين ماجد في أذنه قائلًا:

- **لو أسراب الجراد دي مالقيتش البيئة المناسبة للتكاثر؛ مش هاتوصل للبلوغ والتزاوج، واحنا عندنا التربة الصفرا والصحف الصفرا، والمناخ الرطب والقلب الحنين، الغطا النباتي المتناثر، وبيض الجراد موجود، وهيفقس.. هيفقس يا حلاوة.**

ضحك ماجد ورفع الموتوسيكل في الهواء مرة أخرى في حركةٍ بهلوانية مُنتصبة قائلًا:

- **عارف الناس الحلوة في مصر قالت إيه؟ قالت إن احنا أخلاقنا اتغيرت، وسلوكياتنا ساءت.. وعندنا ضعف إيمان، والجراد ده غضَب من ربّنا.**

ردّد أمين مُتمتمًا:

- **يا الله.. !**

تداخلت الريح القوية مع الضحكة العنيفة، بحيث لم يعد أحد يُميز أي إحساس، إلا القوة المُمتطية صهوَة المكن، لا تحديد للتفكير أو الإحساس، هنا دخل الجميع إلى منطقة حرجة في حياة المدينة.. تبدّلات وإيحاءات وتحركات في الرأس والجسد والأقدام؛ كأنه الجنون الصريح.

كان الاستعراض يوزع رياحه الغاضبة، يعفـرّ الزمان والمكان، وينثر تجلياته المتموّجة دون حذر، تسـامي الشـباب فوق موتوسـيكلاتهم، ومضوا عابرين شـوارع المدينة المُكتظّة، مُتجهين نحو الطريق الدائري الفسـيح، وقفوا على موتوسـيكلاتهم، لفـّوا بها ولفـّوهـا، طيّروا الرمل والتراب في وجه الريح والعصافير.

تسـاءل الناس، هل هم ذاهبون إلى السويس، غنّي أمين (**يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي، أستشهد تحتك وتعيشي انتي**).. الله يرحمك يا حمَام.

الله يبدو أنهم ذاهبون إلى الإسماعيلية (هههههاي.... الإسماعيلية رايح جاي.. فينك يا هنيدي).

- **- لا.. ده أكيـد إحنا طالعين على سـينا.. صاح ماجد في صوت عالٍ جدًا..**

اهتزّ أمين فوق الموتوسـيكل، وشدّ وسـط ماجد شدا قويا، وصاح مغنيًا:

- **(سينا رجعت كاملة لينا، ومصر اليوم في عيد).**

تمتم أمين (رجعت كاملة... !!).

- **(صباحو صباحو يا عم الكل، فين البانجو وخط الغاز والسواح والجبال والحدود وعبود وذكرى سيدنا موسى).**

هـزّ ماجد الموتوسـيكل، وانحرف به فجـأة، صرخ في أمين (انت

بتخرّف بتقول إيه يا أمين؟).

توقف سرب الموتوسـيكلات في منطقة ما في الصحـراء، غالبا أنها كانت بعد العين السخنة.

كان الفـُرسـان قـد ترجلّوا أمام البحر الأحمـر، خلع أمين وماجد خوذتهما، بان شعرهما غارقـا في العرق، شديد الحُمرة.

أشعل ماجد سيجارة، نفـَث دخانها في الهواء، ضحك أمين وسأله:

- **تخيل كده يا عم ماجد لو احنا كده راكبين حنطور؟**

- **هه. إيه جاب الحنطور للموتوسيكل يا أمين؟.**

- **ماشي يا عم أمين، الحنطور هايكون بطيء بس له مزاج ونغمة.**

- **لأ أنا مش باسـأل على السرعة، ولا باسأل عن المزاج والنغمة، طيب.. تفتكر يا فهلوي أهم جزء في الحنطور إيه؟.**

قال ماجد، وهو يسرح في الفضَاء،:

- **العجلتين الكبار قوي، من غيرهم مفيش حَنطور، ولا موتوسيكل ولا عربية ولا دبأبة ولا أي حاجة تمشي من غير العجل.**

ردّ أمين بسرعة:

- **أعتقد أن جسـم الحنطور نفسه، المركبة، الـ Body يعني هو المُهم.**

ضحك ماجد في ســخرية، نفث كلماته مع دخان السيجارة الضائع في الهواء:

- لأ يا أمــين يا حبيبي أهم حاجة في الحنطــور، هي العربَجي، القائد الملهم، الريس!

غنى أمين ودقق في الكلمات:

(عندك بحرية... ياريس سمر وشرقية...
يا ريس.. والبحر كويس... يا ريس)

ضحك ماجد في ســخرية، نظر حواليه، إلى رفاقه وموتوسيكلاتهم، حــدّث نفســه (كم هو رائــع ذلك الإحســاس بالانتماء لقــوة تتحرك بالموتور، ترتدي زيا أســطوريا، تمرُق بين النــاس بيُسر وتنتشر في ربوع المدينة بسهولة).

صاح ماجد لأمين:

- تفتكر يا أمين إن المســاعدين الأفقيين المحوريين، اللي بيربطوا العجلتين ببعــض، وبيتحكموا في الحركــة.. وإذا انكسرت منهم حاجة، انكسرت العربة وبرك الحصان ووقع العربجي؟

اهتزّ أمين في حركة مفاجئة وقال لماجد:

- لأ يا حلــو... عارف أهم حاجة في الحدّوتة دي إيه؟ الحصان.. الحصــان يا حلو يا اســمر، الجوكر، الفرس القــوي الحنيّن العايق، اللي بياكل سكر، ويسمع أغاني ويرقص بلدي.

ضحك ماجد مرة أخرى وهو يتمشى يشـــوط بمقدمة حذائه طوبة شاردة:

- **تعـرف بقى يا واد يا أمين، إن الســير والدراعين، اللي بيربطوا الحصان بالعربية هما الأهم.**

قام أمين ودار حول نفسه، بلع ريقه، صاح في وجه ماجد وقال:

- **بص شوف أهم حاجة في موضوع الحنطور ده الكرباج.**

ضحك ماجد مجلجلًا:

- **يابن «الهِرمة» يا أمين، كُرباج ورا يا اسطى، عشان العيال اللي بتتشــعلق ورا الحنطور تنزل، الكرباج عشان الحصان يتشجّع وعشان يخاف.**

تعامدت الشمس واشتدت حرارتها، ارتدى أفراد السرب خوذاتهم، وامتطوا ظهور موتوسيكلاتهم، ركب أمين خلف ماجد وشدّه جيدًا من وســطه، عادوا جميعهــم من الطريق الذي بنــاه الجيش مُتجهين نحو العاصمة.

أحـــسّ أمين بأن له جناحـــين غير مرئيين يطير بهـــما فوق المدينة، جناح الرجل العاري وجناح الموتوسيكل، ومن عند سرّته سري إحساس شديد بالتحرُر والقوة، القـُدرة على المواجهة وعلى التقدّم.

وصـــل ركب الموتوســـيكلات إلى أطـــراف العاصمـــة، دخلوها من حدودها الشرقية، وصلوا إلى نقطة الانطلاق الأولى، ترجّل ماجد وأمين..

خلعا خوذاتهما كما الأبطال في الأفلام الأجنبية سأل أمين ماجد:

- **إيه هو سرّ العشق للموتوسيكلات؟**

- **أربع حاجات.**

- **الوضـوح، حتى لو طريقك مش سـالك، وتعـرف إن حمارتك العرجة ولا سؤال اللئيم.. موتوسيكلك ولا أفخم عربية، تعرف طريقك منين ورايح على فين.**

هزّ أمين رأسه واسترسل ماجد:

- **وإمكانيـة إنك تملا مكنتـك بنزين.. تزيّتهـا وتزيّنها، تعرف مشاكلها فتعيش معاك قادرة وصابرة، تشيلك وتطير بيك للعين السخنة وفلسطين واليمن والسودان.**

فجـأة ران صمـتٌ رهيب، تفقـّـد أفراد الـسرب بعضهم البعض واكتشفوا أن رفيقهم سالم هو وموتوسيكله غير موجودين، متى تخلـّف عن الركب وأين ذهب؟ ولماذا؟ وأين هو الآن؟.

كانت حركة السرب في رحلة العودة قد ارتبكت، وتأرجحت لكنها عادت فانتظمت، وانتشرت في شوارع المدينة.

قال أمين:

- **يمكن راح مع الرجل العاري.**

نظر ماجد إليه في سخرية وقال:

- **بتقول إيه يا أمين؟**

رد أمين في غطْرسة عالية وقال:

- **ما تسألش كتير يا ماجد.**

دخل بينهما أحد ساسة السيارات الرابِضة، وضع يد على كتف ماجد والأخرى على كتف أمين، كان أشعث الشعر، غريب الملامح.. انحنى فوق أمين وهمس في أذنه:

- **هات الـ ١٠٠ دولار اللي معاك وأنا أدلّك على صاحبك.**

تململ أمين ودس يده في جيبه، وسأله:

- **وانت عرفت منين إن معايا الـ ١٠٠ دولار.**

قهقه السايس قهقهة حشاشين خشِنة وقال:

- **من بنيامين فرانكلين يا أُسّ؟**

ردّ أمين بسرعة وفي غضب:

- **إيه أسّ دي ؟ أنا ما اسميش أسامة !**

- **لأ يا حلو دي اختصار أستاذ يا أستاذ !**

لوّح أمين بالمائة دولار وسأل السايس:

- **إيه بقى ضمّني إن سالم هايرجع لو أنا إديتك الـ ١٠٠ دولار؟**

خطف الســايس المائة دولار من يدّ أمين، شــدّه من ذراعه ناحية بائعة الشاي الجالسة على الرصيف المقابل، والتي يتحلـّق حولها بعض الرجــال، الإبريق الضخم يغلي فوق النار، والبخــار يتصاعد من البوز، وهي منشــغلة تصب مرة وتغسل مرة، كان سالم هناك جالسًا يرتشف الشاي في مزاج، بجواره خوذته وموتوسكله، حمْلق فيه أمين وسأله:

- **إنت رحت فين وجيت هنا إزاي، ومين الست دي؟**

احتسى سالم آخر ما تبقى وأحلى ما كان في كوب الشاي وقال:

- **اتخطفت من نص السكة يا أمين.**

ضحك سالم ضحكة خشْنة تشبه قهقهة السايس وأعقب:

- **أمّا الست دي بقى أمّي، انت أمّك مين وفين بقى يا أمين؟**

فزع أمين من الســؤال المُباغــت، هرول إلى الناحيــة الأخرى من الرصيف، تذكر أمّه سُــعاد، أحس بأنه في أشد الحاجة إليها، وأنه يتوق إلى لقمة من يديها، خنّف صوته وغنّى:

(... قولوا لأمي ماتزعليش.. وحياتي عندك ماتعيطيش..
يا بلادي يا بلادي...)

وكأنه ســمع نحيب أمّــه، أسرع الخطى، وســعى في الأرض، دقها بكعْبيــه، لم يخرقهــا ولم يبلغ الجبــال طولًا، لكنه أحــسَّ ببعض المرح، وببعض الانزعاج في نفس الوقت.

الأخّ فارِس

دقّ أمين جرس الباب في خوفٍ ولهفة:

كان وهو يدق الجرسْ يســند رأســه، ويضع كفــه على الباب قلقـا منزعجًا مُرتبكًا يتابع دقات الجرس وخبطات الباب في لهفةٍ وعصبية.

فتحت الســت نجيّة الباب ووجهها مخضبٌ مليء بالدمــوع، دخل أمين مهــرولًا إلى مُنتصف الصالة، بخطوات واسعة.. ثم تسمر واقفـًا.

هناك في مجلس الضيــوف، كان أخيه فارس جالســا ممتقع الوجه، شــارد النظرة، مُحملقًا في الفراغ، يده وذراعه اليسرى مســتلقية مُستسْلمة، تنــزل إلى جــواره في ضعف وخــذلان، أما ذراعه اليُمنى، فكانت مربوطة بشــاشٍ كثيف، ولا يبدو أن يده كانت مكانها.

دقق أمــين وتأكد أن أخيه فــارس فقد يده

اليمنى، مع جزء من ساعده، تبادل فارس النظرات مع أمين ولم ينبِس أحدهما ببنت شفة.

كان فارس الأخ الأكبر لأمين، خريج كلية التجارة، تزوج مبكرا رغم أنف والديه، ببنت من الريف، تكون الابنة الكبرى لتاجر في قريةٍ مجاورة لعزبة جده.

الأخ فارس متوسط الطول، مُعتدل القامة، رشيق الجسد، لحيتُه هي السمَة الرئيسية التي تميزه، ليس فقط للونها الأسود الفاحِم؛ لكن لتناسقها مع طبيعة وجهه الأبيض المدوّر المليء بالنمَش، ذقن مهندمة كذقون الأخوة، لم تكن موصولة السوالف كذقن جيفارا، لكنّها كانت ذقنا خليجية بامتياز، كان حليق الشارب وبدا قريب الشبه من وزير خارجية الجزيرة العربية، خاصة في طوله ونحافته، وأنه في بداياته كان يرتدي الجلباب المُميّز ذي الياقة المرفوعة، مُحكما أكمامه بأزرارٍ فخمة.

تعمّد فارس أن يقصر ذقنه ويجعلها في شكل (سكسوكة)، ذقن دوجلاس منمّقة نظيفة تمامًا من أسفل، قصّرها فارس عمدًا لسهولة اختراق الآخر، ومن باب التكتيك التجاري النفسي والسياسي.

كانت سُعاد هانم تضع يدها على رأسها المائلة المحنيّة، تسيل دموعها على عنقها، بكاؤها مكتوم أصبح أقرب إلى النهنهة، ومع أن فارس ابن بطنها وحملته، وهنًا على وهن تسعة أشهر، إلاّ أنه كان دائمًا طفلًا غريبًا وصبيًا غير محتمل، ينفر منها ويبتعد عن إخوته ووالدته، زاد الأمر تعقيدًا، أنه بعدما تظاهر بالالتزامْ، رأى أنها سافرة لا ترتدي الحجاب، بجانب أمور أخرى تطال والده وطريقة تفكيره.

أنجب فارس ولدين وبنتين بعد معاناة شديدة، حيث ظلّت زوجته غير قادرة على الإنجاب لمدة عام كامل؛ فذهب بها إلى شيخٍ معروف في جزيرة في قلب النيل، جزيرة تركب لها معدّية من عند ليمان طره، الشيخ يرتدي ملابس مثل الكُفار في الأفلام والمسلسلات التاريخية، يمشي مزهوا بنفسه وسط الجموع الغفيرة، بخطواتٍ واسعة وبجلباب أبيض، كان الأمر كله شبيها بفيلم هندي، ناس كثيرة، أغلبهن نساء منتشرات هنا وهناك، والشيخ يضربهن بخرطوم.

كانت زوجته تستعد لتلك الحفلة؛ قرأت سورة البقرة أربعين مرة، ولما فحَصَها الشيخ قال إن السحر قد ذهب عنها، ولكن من أجل أن يموت الجن لا بدّ أن تشرب ماء مُملحا حتى تتقيأ الشر، خافت زوجة فارس من الشيخ الذي أعطاها ما يُشبه الزيت وعصير البرسيم، وقال لها إنه دواء يسهل الحمل، وعليها أن تتجرّعه كل صباح ومساء، فحملت زوجة فارس خوفا من أن يتزوج بغيرها وليس بفعل أعمال الشيخ المجذوب.

بعد كل ذلك لم يكن فارس سعيدًا مع زوجته، أو علّه كان طمّاعا مزواجًا، لما جرت الفلوس في يديه، فكّر في الزواج بأخرى، لم تمَسَسْها آثار الحمل والولادة، امرأة يافعة نَاهدِة الثديين مشدودة العود، نِغشة، تُسعد أيامه وتُسرّي عنه إجهاد التجارة ومنَاهدة التجار، لذا كان يُشاع في الحيّ أنه على علاقة عاطفية بامرأة لها صفات مودرن، تتحدّث العربية والفرنسية والإنجليزية، لكنه لم يكن شجاعًا في الإقدام على الزواج بأخرى، لأن أم العيال كانت قوية من عائلة ذات بأسٍ

شــديد.. لكنه ومع ازدياد حجم تجارته قرر بشــكلٍ صريح ونهائي، أنه لــن يقضي عمره هكذا، وأنه لازم ولابد أن يتزوج بأخرى، وثالثة ورابعة والله أعلم، لم يكن ذلك بســبب شهوته العارمة المُستبّدة فحسب، لكن لتطور ثقافته وهندامــه، واختلاف نوعية أصحابه؛ فمع تقدم الزمن لم تتطور امرأته أم حمادة كما يعرفها الناس، لم تعد تتمكن من مصاحبته ومناقشــته ومجالسته ومســامرته، تقشر له اليوستفندي على السرير، يتبــادلان النكات مثل أيام زمــان ثم ينقلب عليهــا يزغزغها ويعضّها؛ فتلتهمه بشفتيها المكتنزتين وتضمّه بفخذيها القويتين، لتمْلكه وتتمّلكه وتعصِره وترتشــفُ رحيقه، تمتصّ شهوته حتى آخر قطرة، لم تعد تقوى عــلى فعل ذلك، حتى الرغبة جافتهــا ولم تعد تفكر في الفراش، تذكرت ذات مرّة وسط زحمة ولخمة العيال وطلباتهم الجنس والنوم والفراش، ارتدت له (بيبي دول) أحمَر اشترته خصيصا من الست فاتن اللي بتبيع أشــياء غريبة في العمارات، منها أيضًا ما يخــصّ الرجل مثل الدهانات والاســبراي للعضو الذكري، لعلاج السرعة، كذلك كانت تـُعطي النســاء بعــض الأعمال ليضعـْنها تحت مخدّة الزوج، أو في أحد جيوب جاكتاته وهو خــارج لتمنعه من الارتبــاط بأخرى، وإن حــدَث؛ لتربطه وتمنع انتصابه وتســدّ نفســه وتحجب رغبته عن أي امــرأة إلاّ هي، لكن أم حــمادة بعدما ارتدت البيبي دول الأحمر و وضعت الماكياج، الذي بدا غريبًا قريبًا من البلياتشــو، لأنه كان عــلى وجه مُجْهَد، بدأت التجاعيد تظهر عليه.. كانت مشيتها بطيئة ورغبتـُها مشكوكٌ فيها.. كانت تـُمثل.. وفــارس كان متأكدًا من ذلك، غير أنه زوجها، ولابد أن يســتجيب لها، وعــلى الرغم من أن فارس معروفٌ بعدم قدرته على المقاومة حتى أنه

كان ينتعظ ويُستثار لمرأى الست أم سلامة وهي تلـّم الغسيل، منحنية تمسح الأرض، إذا ما رآها صدفة أو عمدًا، رغم كل ذلك لم يتمكن فارس مــن مباشرة زوجته ولا حتى الاقتراب منها، أصابه عجزٌ وعُطل وضعف وعدم قدرة وانعدام شــهية بالكامل، فزع لنفسه وخاف عليها، وظنت أم حــمادة أن الأعمال التي دسّــتها في جيوبه، قد عــادت عليها وردّت كيدهــا في نحرهــا، فالرجل الذي كان لا يملّهــا ولا يعتقها في كل فرصة مُتاحــة لم يعد يرغبها، ولم يعد حتى قادرًا على مُجاملتها بنصف إيلاج، ارتمت إلى جواره يغطيها العــرق المُمّلح، وارتمى هو إلى جوارها كالثور المُحبــط، دماغه فيها ألف فكرة ومليون حسرة، ونظرة خفية إلى عضوه الذي ارتمى على فخده في استكانةٍ وهزيمةٍ قاسية.

كانت أم حمادة زوجته المصونــة، تحاول جاهدة مُقارعته الحُجة بالحجــة، حاولت مطالعة مــا يقرأ، فبجانب الكتــب والمراجع الدينية (تحفة العروس) و(رياض الصالحين)، كانت الروايات العالمية لأرنســت هيمنجــواي وكافكا رائد الكتابة الكابوســية (المســخ والمحاكمة)، إلى ماركيــز وعاهراته الحزينــات، نجيب محفوظ وعبــاس العقاد، وكافة الأعــمال الخاصة والمميّزة لكتاب مصريين وســعوديين ولبنانيين، كتاب ليســوا مشــهورين على المســتوى المحلي، لكن عُرف عن أعمالهم أنها تحمل في أحشائها اللحم والدم والأعصاب، تحمل من دنيا فارس الكثير، تأخذ منها وتعطيها وتثيرها، ومن ثم اكتسب الأخ فارس مهارات دقيقة، ودخل إلى عوالم رحبة وصار مخه يسع بلدًا، بدأ يسمع فيروز والشيخ إمام والــ Heavy Metal، هــذا غير التعطُّر بدهن العود والمســك والعنبر، إضافة إلى بارفانات ذات ماركات عالمية مثل دولتشي جابانا وســبورت

ديبوت، بدأ يلبس الجاكتات الجلد والبليزر الأسود والبنطلونات الجينز، المحزّقــة، كانت له نظرة غريبة تتغيّر وتتحول عندما يبدأ الكلام، خاصة مع النســاء، وكان لحديثه معهن عذوبة مختلفة وســحر خاص وفتنة لا تقــاوم، كل ذلــك كان يجذبهن إليه، وكان يســتغل ذلك جيدًا دون أن يتــورط، كان يوظــف كل ذلك لزيادة ثقته بنفســه ولإرضاء غروره الذكوري، يحاول أن يؤكد استحقاقه لثلاث نساء أخريات غير أم حمادة.

كانت النســوة والفتيات من كل الألوان، السمراوات والبيضاوات، الشــقراوات وذوات الشــعر الأســود والأحمر والكســتنائي، الممتلئات والنحيفات، الصغيرات في السن والمُتقدمات فيه، كن يبادلنَه النظرات دون حديث، وإذا وقعت عيناه على إحداهن صوب سهامه إلى سويداء القلب مباشرة، وإذا تبــادل معهن الحديث كان من الصعب أن يتركنه وحاله، أو أن يمضي هو عنهن ويتركهن، كان يشــبه (راســبوتين) إلى حدٍ بعيــد، نعم راســبوتين الفحل الــروسي الذي قرأ عنه فــارس الكثير إلى درجة أنه ربما تماهى معه نفسيًا، ذلك الذي ظهرت عليه رؤى مستمرة عــن القوى الإلهية، وكانت له قدرت شــفاء خارقة، عــرف فارس أيضًا أن اسم راســبوتين بالروسية يعني (الفاجر)، بســبب علاقاته الجنسية الفاضحة.. هكذا بدا فارس حقــا شديد الشبه براسبوتين، كان الفرق أن شعر راسبوتين كان ناعما، كما كان له شارب، أما هيئته ولحيته ونظرته فكانت كلها فارس، أو علّ فارس كان كلـّه راسبوتين.

نظــر أمين مليّــا إلى فارس، وتذكر حين كان في الســابعة عشر من عمره، كيف دخل عليه فارس غرفته وجالســه لســاعات يحكي فيها له

عن راسبوتين، وعن القوى الصوفية القادمة من سيبيريا، قوى لها عيونٌ وحشــية مضيئة ونظرة مجنونة، استحوذ فارس وراسبوتين على اهتمام أمين وعلى وقته وحسن استماعه وعدم ضيقه واستسلامه.

أكد فارس، لأمين وقتها، أن مصر ستشهد قوى صوفية مماثلة تأتي من تـُركيا، وكما حدّد راسبوتين موعده لدخول المجتمع الراقي الأرستقراطي في روســيا، كان فارس قد حدد ســن رشــده الحادي والعشرين موعدا لدخوله أحشــاء طبقة رجال الأعمال المصريين، ليتنقل بين محطاتها في سلاسة، يقتحمها في شــجاعة وبسالة وجسَارة، دون ضجةٍ أو إعلان، في دهاء ومكر ومهارة وخبرة، اكتســبها من السوق والشارع، منذ أن كان طفلا يبيع الحلويات والشكولاتة الكورونا والعسلية أم سمسم والبُمب والصواريخ لأولاد الحيّ، وكثــيرًا ما كان يضحك عليهم ويبيع لهم صور نجوم الكرة والمُمثلات والراقصات بعد أن يقصّها من المجلات، ويلصقها عــلى ورق مقوي، كما أنه كان يصور المذكــرات والدروس الخصوصية، يُجّلدهــا ثــم يبيعها وينتقــل من مراكز الــدروس الخاصــة المعروفة (بالســناتر) ليحصل على الحلّ السهل والمميز والمادة التي تبيع بسرعة، بسهولة وبمكسب كبير.

وهــو في الثالثة عشرة، كان يحلم بأن يكون تاجر ســلاح نظيف لا يعبث بالسياســة ولا يعمل بالجاسوســية، حتى وإن صَعُب عليه ذلك، وكان يحلم كذلك بأن يكون تاجر مخدرات قوي، له هيبة ورجال وسلاح ومغــارات وكهوف، تاجر حُرّ لا يتعــاون مع الشرطة ولا يضحِّي برفاقه ولا يبيعهــم، حياته محفوفة بالحظر والجــاه والمال، لكنه صرف النظر

عن كل تلــك الحماقات والتهيؤات التي تــؤدي إلى ثراءٍ سريع، يومض ويتوهــج ثم ينطفئ كالشــمعة، فضّل الدخول إلى عــالم تجارة اللحوم المســتوردة، دخل المافيا من أوســع أبوابها مستغلا عشق المصريين إلى أكل اللحمة أي لحمة، مســتغلا فقرهم وحاجتهم إلى تذوق أي بروتين حيواني، استغلّ اســتطعامهم للكبدة وتفننهم في طهيها بكافة الأشكال والألوان.

تاجَــر في كل ما هو زفر بدءًا من المُخلـّفات أو الحلويات (اللحمة السَــقط، أرجل الفراخ، الكبدة، القوانص والكِرشة)، بدأ شغله بخمسة آلاف جنيــه اســتدانها من أمه سُــعاد هانــم التي كان يرفضها شــكلا وموضوعا، ثم ردّ لها فلوســها بعد ستة أشهر مضاعفة، غير أنها أبت إلا أن تأخذ الديْن فقط.

اســتورد فارس الكبدة الأمريكاني التــي كانت تـُرمى في البحر، ولما أدرك التجار الأمريكان بطريقة الكاوبوي، أن لتلك الكبدة سوقـا مُنتعشة في مصر، رفعوا ســعرها، ولما علمَت الصين بالأمر، عرضت كبدتها للبيع بســعرٍ زهيد لضرب الأمريكان وكسْــب المصريين، لكن «أولاد الكلب» الشــيوعيين والرأســماليين تآمروا على شــعب مصر الجوعان، واتحدّوا ورفعوا الأســعار تدريجيًا.. هنــا اتجه فارس وأقرانـُــه إلى دول أمريكا اللاتينية والهند، تحديدا الهند والبرازيل.

كان فارس موظفًا.. صرّافـا (كاشير) في الشركة الأولى التي عمل بها، عرف الأسرار وأدركها، فهم السُــبل والألاعيب، وتعلم البريد الإلكتروني (الإيميل)، وكيفية التعاقد عبر النت، وبعدها أســس شركة مناصفة مع

تاجر معروف، اســتقل واستغل سحره في الحديث، دهاءه وقدرته على الإقنــاع، مع هيئتــه الخليجية وحديثه العذب المســتند إلى أدلة دينية قوية تنتهي في أغلب الأحوال إلى إتمام الصفقات لصالحه.

مسألة استيراد فارس للحوم كلها، كانت تكمن في النفوذ والسلطة والرشــوة والعلاقــات والأموال.. جنــى منها مكاســب خرافية، فها هو فارس ابن الثلاثين عاما.. بنى بيتا من ثلاثة أدوار في الطريق بين حلوان والمعادي.

ഗ ഗ ഗ

اســتفحلت تجارة فارس، واحتكر السوق، ضحك عليه أحد أقرانه يومــا ما وقال لــه: **(أما بقا يا فارس.. لو لبســت قنــاع ڤانديتا، دقنك هاتبقى أرفع شــوية، وشــعرك أطول حبتين، وحواجبك تترسم، وعينك تتســحب ودقنك توسع، وكرشــك يكبر، وتقولّي فاكر عملت فينا إيه يا وديع؟ مش قولتلك مصر كلها أوضة وصالة؟)**.

يضحــك القريــن ويضحك فــارس **(ضحكــة خمورجيــة وقهقهة حشاشــين وتـُجّار عملة وبياعين بضاعة مضروبة في العتبة وباب اللوق وباب الخلق وعابدين والسيدة زينب)**.

مــرة ثانية، جاء القرين وضحك وســط عفار تــراب وريح باردة، تحملها ســحب دخان ذات رائحةٍ عفنة.. القرين نفسه قال لفارس **(يا فارس، إنت دقنك فســدت زي اللحمة اللّي بتســتوردها)**.. كان فارس يضجــر من قرينه ذلك كثــيراً، لكنه كان أيضًا مُرتبطًــا به إلى حدٍ كبير،

كان فارس يختص بالبرازيل، بالتُجار الآخرين، كل واحد مع بلد، هو لم يحبّ أن يتعامل مع الهند لســوء سمعتها، وكان يستورد الأبقار الحية والمجمَّدة، وعموما كان يشتغل أكثر في المُجمّدة.

ذات مرة وهو في حالة صفاء سألته أمه سُعاد هانم:

- **اشمعنى المُجمّدة يا فارس؟**

أجابها دون لف أو دوران:

- **عشان سهل التلاعب فيها.**

- **أنا سمعت إنكم بتشتروا بواقي لحوم المجازِر من الدول إيّاها.**

- **يعني مش قوي كده يا أمّي!**

- **هــو انــت خلّيت فيها أمي ولّا ماما يا فــارس، دي لحمة غير صالحة للاستهلاك الآدمي.**

همهَم فارس وسعل سعلتين، ثم قال في حشْرجة:

- **ماشي يا ست الكل، احنا بنضرب بياناتها.. ماشي إن شاء الله.**

- **ان شاء الله في عينك، الله لا يشاء الشر.**

ꕥ ꕥ ꕥ

تربّع فارس على عرش كرسي ضخم في بيته وفي المكتب وفي المحلّ، لا يشرب الشاي ولا يدخن السجائر، يفرّ الفلوس ويعدها بسرعة وبحرفية

عالية كصرافي البنوك، عنده خمســة موبايلات ومئات الصبيان والشبان والمندوبــين، كان يوزع لحمته على الفنــادق والمطاعم الكبرى، وأحيانـا لمحلات الجزارة ومصانع اللانشون والبسطرمة والسجق وخلافه.

جاءه القرين مرة أخرى وسأله:

- وفي الفنــادق الخمس نجــوم، وفي المطاعم اللي ما شــاء الله عليها، بتتقدم على إنها طازه يا حاج فارس؟

- آآه طازه يا وديع!.

- وبتكذب كمان يا فارس؟

- لأ باتجمّـل يا روح أمك، عندك إيه تاني يا ملك.

- أبدًا الباشــا بيغيّر الختم من الأزرق المســتورد، للأحمر البلدي وكله يتباع رخيص على إنه بلدي صح.

- صح.. المهم طعمها يا وديع؟

- ماشي طعمها مقبول، لكن الناس بشكل عام، فقدت إحساسها بالطعــم واللون والمذاق، كله بقا مُختلط ومشــوش، مش قلتلك مصر أوضة وصالة يا دلعو.

كان القرين يعــرف أن اللجان الطبية، التي تصاحب فارس وباقي المستوردين للكشف عن اللحوم، توقّع على أوراق تثبت السلامة، وكل واحد حسب نيّته، وحسب فُسحته ونزاهته وإكراميته.

صاح القرين في فارس:

- **الدكاترة البيطريين دول بيسافروا على حسابكم؟ صح؟**

- **صح يا باشا يا أبو الباشوات.**

- **وسمعت كمان إنهم غير مؤهلين.**

- **الله يعلم، التأهيل ده وظيفة الدولة.. فيه إيه يا وديع؟**

- **أنا مش وديع يا فارس أنا القرين.**

- **ماشي يا عم القرين عايز إيه؟**

استغرق القرين في قهقهةٍ عالية مجنونة سائلًا:

- **ممكن بعض اللحوم دي تبقى خنزير!**

فزع فارس ونهض:

- **لا... لا... استغفر الله ده تكاليف اللجنة ١١ ألف دولار.**

ᔕᔕᔕ

كان فارس دخل عالم اســتيراد اللحوم الحيّة، كانت هناك شحنات من الخراف والأبقار تأتي إلى مجزر البساتين.

أصبح فارس يدرك سرّ اللعبة ويُتقنها، هناك في البساتين يتم تقشير اللحوم وتغيير ختم المســتورد الأزرق إلى الختم الأحمر الخاص باللحوم البلدية.

في مجزر العين السخنة كان فارس يتجوّل بهيئته وهيبته مرتديا البالطو الأبيض، وهناك كان الدكتور البيطري يكشف على الحيوان بعد ذبحه، من المفروض أن يقطع رقبته وقلبه بنفسه، لكنه كان يعتمد على (البِشكار)، الجزار الذي يذبح داخل العنابر.

وقف فارس يراقب نافورات الدم والبِشْكار وهو يغيّر رقبة العجل والقلب المُصاب، ليضعهما على جسد الحيوان السليم، ولما يحضَر الدكتور ليكشف على القلب والرئة؛ فيجدهما مصابين، يفحص العجل جيدًا، فيكتشف أن باقي أجزاء جسده سليمة؛ فيعدم القلب والرقبة فقط.

اطمئن فارس لسير الأمور كما يريد، وزّع الرشاوى، تمّهل ثم ركب بجوار السائق في العربة نصف النقل، تنقل اللحوم إلى مجزر البساتين، بعد مُنتصف المسافة بقليل، أبطأ السائق لوجود كمين للشرطة؛ أخرج فارس يده اليمنى علامة التهدئة للعربات القادمة من ناحية اليمين كما يفعل الناس في مصر، جاءت سيارة مارقة يقودها شاب مجنون متهور أو ربما (شارب برشام)، طارت يد فارس اليمنى في الهواء، وفرمل الشاب بسيارته المارقة عند حدود الكمين وكأنه لم يفعل شيئًا، نظر إليه أمين الشرطة وسمح له بالمرور.

لم يحس فارس إلاّ بدوخة شديدة ثم غاب عن الوعي.

طارت يد فارس اليمنى في الهواء، من بعد الرسغ بقليل، غاب عن الوعي، طار سائقه باللحمة وفارس في فزع إلى أقرب مستشفى.

كان فــارس صرخ صرخــة مُدويــة، أعقبتها شــهقة ثم استســلام واسترخاء وتمدد.

قــام دكتور العظام -كما عرف فيما بعد- ببتر الأجزاء الميتة بعظام الســاعد، ضَمّد الجرح ولما أفاق فارس رويــدا رويدا.. كان مازال تحت تأثير البنج والنزف والصدمة، كان يئن ويهلوس مناديًا على أولاده واحدًا واحدًا وعلى أم حمادة، كان يعتذر ويعِـد ويؤكد أنه لن يتزوج بأخرى، تذكر ذلك الكلب الذي كان يعوي ويعوي مســتمرًا في عوائه أمام باب شقته، ضربه فارس حتى قتله.

تراءى مَلَــك الموت لفارس، تذّكر فارس كلمات الإمام في المســجد الحرام، وقت أن كان يحج ويعتمر، رأس ملك الموت في الســماء ورجلاه في الأرض، الدنيــا كلها في يده كالقصعة بين يدى فارس يأكل منها، قائمٌ هو وســط الدنيا، ينظرها كلها، برّهــا وبحرها وجبالها، وهى بين يديه، هــي كالبيضَة بين رجليه، وله أعوان الله أعلم بهم، ملَك لو أذن الله له أن يلتقم الســموات والأرض في لقمة واحــدة لفعل، ملك الموت تفزعُ منه الملائكة أشدّ من فزع الناس من السبْع والضبع ووحوش الفلاة، وأن حَمَلــة العرش إذا قرب ملك الموت مــن أحدهم، ذاب حتى يصير مثل الشعرة من الفزع.

أحــسّ فارس بأن ملك الموت يــكاد ينتزع روحه من تحت عضوه وظفره وعروقه وشــعره، فلا تصل الروح مــن مِفصل إلى مفصل، وكان إحساسه وألمه أشدّ عليه من ألف ضربةٍ بالسيف.

حاول فارس أن يحرّك جســده، وكان وقتهــا لم يدرك أنه فقد يده

اليمنى، بدأ يجني وعيه وبدأ الألم يشتدّ عليه.

أتت المُمرضة لتحقنه بإبرة مســكن قــوي ليغفو قليلًا، ثم يبدأ في الوعي واليقظة والألم، لاحت له دوائر حمراء وبنية وبنفسجية، شُعلاتٌ مــن النار وباقات من الورد، الشـيطاني، رأى جدّه وهو يمشي مُعطيا له ظهره، بعد خناقةٍ شديدة حول تجارته وذقنه وأسلوب حياته.

كانت يد فارس تؤلمه من منبعِها، في منطقة بترْ الطرف، ألم وهمي شـديد مُبرح، أخـبره الدكتور أن نهايات أعصاب يده التالفة ستنشـط بشكل مؤلم، وأن العَصَب سـيهيج اعتراضًا على الفقْد والصدْمة، أخبره الدكتور كذلك أن مُخه سـيحتفظ في ذاكرته باليدّ التي تمسـك الموبايل وتعـدّ الفلوس، تصافـح وتصفـّق وتدعو الله وتسـند على الفخذ عند الركوع وعلى الأرض عند السـجود. أدرك فارس أن المدخلات الحسـية والحياتيـة من داخل وعيـه ومن خارجه تغمـرُه، كان يحاول تحريك أصابعـه غير الموجـودة، أصابعه الشـبَحية المبتـورة.. كان عاجزًا عن البكاء وعن البوح بأسرار يده ونفسـه وجسـده.. شريط سينما سريع، ثـم بدأ يدرك أنه فقـَد يده وأحس سـاعتها بأن القيامة سـتقوم، وأن روحه في كفه، بدأ يشـعر بيده المبتـورة وكأنها حقيقة: تتورم، ترتعش، تقبض فلوسًـا، تذبح عجولًا، تنقل أجزاء مريضة، تـُعطي رشوة، تقبض على كف امرأة سـحَرها حديثـُه، كأنـه يقبض على تفاحة حمراء، يرفع چركن بنزين، يدق مسـمار، يكتب بقلم، يلـّوح، يصيح، يهتِف، يُشـير بها مثل الحاكم السـابق، ويحيّي الشـهداء مثل اللـواء في التليفزيون، ويتوعد بالسـبابة في الهواء كاللواء في المؤتمر الصحفي، يقبضها ليضرب

مشاكسًا.. يلكُمه، يصدّ بها، ينفي، يقول (مع السلامة، باي باي)، يغرزها في لحم الخروف الساخن، ينزع قطعة لحمٍ شهية وبعض الأرز والدهن، يستخدمها في إيحاءات وإشارات نابية بأصبعه الوسطى، يربت بها على كرشه، يهرش بها أسـفله، يلبس بها جوربه، يرفع بها موبايله، ويضعها عـلى أذنه كأنه يؤذن... لا يتمكن من رفع يده ولا تحريكها، ولا يتمكن من الآذان، يتنهّد ويتألم وينام، ثم يقوم مفزوعًا.

لم يـدرك بعد دورة الذكرى تلـك، إلاّ أن أمين كان واقفًا أمامه في مُنتصف الصالـة، عاجزًا عن الحديث وعن التعبـير، امتلأت عينا أمين بالدموع؛ فقام فارس واحتضنه، ربما هي المرة الأولى، منذ سنوات، التي احتضـن فيها فارس أخيه أمين بـذراع بدون يد وذراع يسرى تضمّ، ران صمتٌ رهيب، وقامت سُـعاد هانم لتدخل إلى غرفتها، تقرأ سـورًا من القرآن الكريم (**بسم الله الرحمن الرحيم... أولئك يؤتون أجْرهم مرتين بما صبروا، ويدرؤون بالحسـنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)... صدق الله العظيم.**

نَرجِس... الأخت

سمع فارس صـوت أمّه وهي تتلـو آياتٍ من الذكـر الحكيم، قـام من مكانه واقفـًا قبالـه أمين، الـذي كان مـازال واقفًا في مُنتصـف الصالة مُحدقـا في الفراغ، تدور عيناه في محجريهما وكأنه يبحث عن شيء.. أي شيء.

اتجه فارس نحو غرفة أمّه، خلفه أمين يتبَعه في فضول، وقف فارس على باب الغرفة، وجدَ أمه تحني رأسـها وتقـرأ من كتابٍ بـين يديها، وعلى يمينها أختـه نَرْجِس تجلس إلى جوارها، تسـتمع إليها وتربِت على كتفها، تمسـح بعضًا من دموعها بمنديل ورقي.. لم ترفع سُـعاد هانم رأسَـها، لكن نَرْجِس شـمخت بعنُقها واشرأبّت به، مُحدّقة في وجه فارس وفي يده الملفوفة بالشاش، صرخ فارس في أمّه:

- طيـب لمـا انتي بتقـري قرآن كـده، ما

تغطّي شعرك وتلمّي بنتك.

استرســلت سُعاد هانم تتلو حديثًا قدسيًا: **(وإن لم ترض بما قسمته لك، فوعزّتي وجلالي لأســلطن عليك الدنيا، تركضُ فيها كركضِ الوحوش في البريّة، ولا ينالك منها إلاّ ما قسمتُه لك، وكنت عندي مَذمومًا...).**

جفل فــارس وتقدم خطــوة للأمام نحــو أمّه التــي هبّت واقفة ووراءهــا نَرْجِس، وكان أمين مازال واقفًا خلف فارس الذي تقدم أيضًا خطوة نحو الأمام.

صرخ فارس في أمّه:

- **بتدعي عليّا يا امّه؟**

- **اخــرس يا ولد، بــأي حق تكلمني كده؟ حط لســانك في بقك واتلّم.**

هــدّأت نَرْجِس من روع أمها، محاولة أن تشــدّها إليها بعيدًا عن فارس الذي صاح مرة أخرى:

- **قُلتلــك تغطّي شــعرك يامّــه، وقلتلك ألف مــرة تلمّي بنتك نَرْجِس دي، سيرتنا بقت على كل لسان.**

تقدمــت نَرْجِس خطــوة، خطوتين للأمام، تخطــت أمها بخطوَة، صارت تســبقُها وتغطي عليها، صارت وجهــا لوجه أمام فارس، الذي انزعج وتوتّر لتقدّم أخته وتحديقها فيه، في عينيه، لمواجهتها الصريحة وتحدّيها السافر.

رفع ذراعــه اليُمنى في الهواء، لكي يهوي بيده ليلطم وجه نَرْجِس، لكنه في لحظة أدرك أنه لا يدّ له، أدرك أن يده اليُمنى قد راحت، بـُترت، فـُقدت... للأبد.

رفع أمين ذراعه وأمســك بيده اليمنى ســاعد فــارس، قبض عليها فوق الشــاش وكأنه يُمسك باليد الطائرة، رأس الذئب الطائرة، تلك التي حــكَى عنها الناس في ربوع مصر، اليدّ الخفيّــة التي يبحثون عنها، تلك التي ملأت شــوارع مــصر وتليفزيوناتها وإذاعاتهــا بالصخب والجلبة والضوضاء.

لحظات مرّت بين عيني أمين، يده المرفوعة المُمْسكة بساعد فارس فوق الشاش السميك، وجه أمه سُعاد، ووجه أخته نَرْجِس.

أنزل فارس ذراعه طواعية؛ فنزلت معها يد أمين وكأنها تحملها إلى تحت، تمنعُها من الاقتراب، تدعوها إلى لمّ الجرح وتضميده.

انحرف فارس قليلًا إلى اليسار، خارجا من باب الغرفة ووراءه أمين، مــدّ الخـُطى إلى باب الشــقة وفتحه ثم صفقــه وراءه في عُنف، خبَط الباب خبطة قوية أزعجت أمين وصمّت آذانه، فســمع أمين في رأسِــه نبــاح كلاب الحيّ، نحيب النســوة، الآذان، صراخ العيال، وأغاني الوطن والحُب والحياة.

أحسّ بالتعب الشديد، أراح جسده على أقرب كرسي ليغفو قليلًا.

كانــت نَرْجِــس البنت الوحيدة للمهندس ســامح وسُــعاد هانم، جاءت في الوســط بعد فارس وقبل أمــين، منذ أن ولدت وهي تعترض، كانــت طفلة حادّة شــقية لا يعجبها العجَب، دائمة الأســئلة المُحرجة، تختفي وتختبئ، تُشــاكس وتعاكس وتضرب الأطفال الآخرين، وأحيانا تأخذ لعبهم وتشد شعورهم وتُجبرهم على سماع كلامها.

ولما عدّت العشر سنوات بسنتين، لم ترغب في أن تحمّيها أمها، لكن سُعاد هانم أصرّت، وكانت بحاسة الأم وفطرتها تدرك أنها لازم ولابدّ أن تظل ابنتها تحت عينيها، خاصة أنها تقترب من سن المراهقة.

كانــت نَرْجِس فائرة، طويلة، وفي إحدى المــرّات التي أصرت فيها الأم عــلى أن تصحبها في الحمام، لاحظــت أن ثديها الأيسر قد نما قليلًا، في البداية ظنت أنها بدايات البلوغ، لكن لما دققت في الأمر تأكدت أن الموضوع ربما يكون ورمًا أو كيسًــا دهنيًا أو أي أمر آخر، وكانت خناقة في الحــمام بين الأم وابنتها نَرْجِس التي ترفض رفضًا باتًا فحص أمها لها، وسُعاد هانم تمارس حقّها الطبيعي وتصر على فحص ابنتها جيدًا.

انتهــت الخناقة بموافقة نَرْجِس على أن تصاحب أمها إلى الدكتور، لتحديد الأمر والانتهاء منه.

أخذت سُعاد هانم موعدًا مع طبيب معروف للعائلة، كانت نَرْجِس في الطريــق تهزّ كتفيها، تدندن بأغانٍ معروفة، أغان شــعبية وعاطفية وأجنبية، تهزّ رأســها وتميل برقبتها، تمضغ وتلــوك لبانتها وتطرقعها في الهــواء، في مــزجٍ ما بين الطفولة في أواخرهــا، والأنوثة المبكرة في بداية تفتحها.

بشّ الدكتور وهشّ واستظرف نفسه كعادة بعض الأطباء، حاول أن يُحسس نَرْجِس بأنها طفلة، اعترضته متحدية، وقالت له بصرامة:

- **أنا مش صُغيّرة يا دكتور.**

صمت الدكتور وما أن أنهى فحصه، حتى ابتسم ابتسامة بلا معنى في وجه سُعاد هانم وقال:

- **الحمد لله على كل شيء لكن لازم ناخد عينة من الصدر.**

بان الانزعاج والقلق على وجه سُعاد هانم، اصفرّ وجهها وهمّت إلى الأمام متسائلة:

- **خير.. طمنّي يا دكتور.**

- **بصراحة يا هانم ده مش بزوغ ثدي، ده ورم، الله يعلم طبيعته إيه.. إن شاء الله يكون حميد.**

لم تخْفِ سُعاد هانم ضيقها وكتمتها لخوفها الشديد؛ فارتعشت يداها وهي تصافح الدكتور، سقطت دمعة من كل عين؛ فمسحتها بظهر سبابتها وأصبعها الوسطى كما تفعل المُطربات والمُمثلات في البرامج الغنائية والمسلسلات المؤثرة، كانت وكأنها تلمح ملك الموت يرفل في ثوبٍ أبيض يُطل عليهما مُرفرفًا بجناحيه، انقبض صدر سعاد هانم، تمتمت لنفسها (**عايز مني إيه يا ملك الموت؟، مالك بيّا، مستقصدني ليه، خِفّ شوية حرام عليك، هتاخد جوزي وعايز تاخد بنتي، خدني أنا كمان وريّحني... يا الله... يا رب... يا رحيم، عفوك ورضاك**).

مـــا أن انتهت نَرْجِس من أخذ العينة والأشــعات والتحاليل وهي تضحك، تغمز وتمضغ اللبان وتدندن، لم تنزعج ولم تتوتر، كانت بذكائها تدرك خطورة الأمر، لكنها كانت تسير في حواري الإجراءات بقلبٍ شجاع ودماغ عالية، انتهت الإجــراءات الأولى، وكان الورم خبيثًا سرطانيًا. كاد يغمى على سُــعاد هانم، أما الباشــمهندس سامح أبو نَرْجِس؛ فكعادته صمت، اطمئنّ على بنته من زوجته وانطوى، انكفأ على ذاته، أما فارس فكان في عالمه مع رفاقه وجامعته وعالمه الافتراضي على النِت، لكن أمين كان شــديد الحزن يفهم ولا يفهم، علّه كان لا يريد أن يفهم، هزّ رأسه علامة النفي، وثقلت خطواته في إطار الضجة والأزمة التي سببّها مرض أخته نَرْجِس.

دخلت نَرْجِس إلى غرفة العمليات، استأصل الجراح الورم، وعولجت نَرْجِس بالإشعاع ستة أشهر، وبعدها بسنة بلغت وبزغ ثديها الحقيقي في الناحيتــين، لكن مكان الورم كان أصغر، وكان هذا التباين في الحجم بــين الثديــين يُزعج نَرْجِس ويوترهــا، لكنه لم يمنعها قــطّ من الخروج والفسْحة والكلام مع الصبيان، وما أن أتمّت الثامنة عشر، حتى أدمنت الخروج مع الشلّة: أولاد، وبنات، يسهرون في الديسكوهات والكافيهات، كان في دماغها الرقص والرقص والرقص فقط.. ممكن ترقص طول الليل لوحدِها، لا يهم وجود الأولاد وإن كانت تُحب صحبتهم وإقامة علاقة معهم، لكنها كانت وهي تتحســسُ صدرها الأيسر تلمسْــه لا تدري إن كان هذا هو حقـا ثديها أم أنه ورمٌ جديد، الله اعلم.

كان أخوها فارس يُشغّـل إذاعة القرآن الكريم في المطبخ من راديو

عتيق، يعلّي الصوت ليكـون في انتظار نَرْجِس، ليطرد عنها وعن البيت الشياطين التي أبت أن تتركها في حالها كما آمن فارس بذلك.

عصَى فارس والديه ذات مرة ومدّ يده على نَرْجِس وضربها بعنف، لم تسكت له، قاومته وكسرت على رأسه الـڤـازه الكريستال التي كانت تزين الترابيزة وسـط الصالة، شـجّت الـڤـازه رأسه، خبطته نرجس بها على دماغه؛ فشجتها وكأن الشيطان خرج من مُنتصفها.. هجّ وانسحب وطار من الصالة إلى الشباك هاربًا إلى خارج البيْت.

اسـتدعى الأمر نقله إلى المستشفى غارقًا في دمائه، على الرغم من أنه استمرّ في ضربها وهو ينزف قائلًا **إنها فاجرة وشاردة وعيارها فالت.**

لم تكـن نَرْجِـس تحس بالأمـان، كان دائمًا رغم الهيصة والفسـح والرقص والغناء، تُحس وكأنها تمسـك بيد أبيها الغائب الحاضر وسـط القاهرة، وهو ينسـحب بهدوء ويتركها وسـط الزحمـة وهي طفلة لا تدري من أمرها شيئا.

لم تكن قادرة على الاحتفاظ بولد أو شاب أو رجل، كانت علاقاتها الزئبقيـة تفلت من بين يديها، كما تسـقط حبّـات الماء من بين أصابع اليد.

وعلى الرغـم من رغبتها المحمومة في الـزواج والخلفة هروبا من جحيـم البيت، لم تكـن تخاف الطلاق، فهي سـتكون قد حصلت على رخصة امرأة حُرّة تفعل ما تشاء.

كانـت نَرْجِس طويلـة، عظامها عريضة تزيد من وزنها وتسـمح

للدهــن بالاختباء بين أحشــائها؛ فاضطرت رغم أنــف والديها بالطبع، ودون علــم فارس أن تشــفط الدهــون من بطنهــا، وأن ترفع صدرها كالممثلات لفوق وأن تحقن شــفاهها لتكتنز، ومع ذلك لم تكن نَرْجِس مُثــيرة كما تبدو من بعيد، عندما يقترب منها الأولاد كانوا يبتعدون، أو يجرّبون مصاحبتها ثم الهروب منها في أقرب فرصة.

ومع أنها كانت (صايعة) إلاّ أنها حافظت على واجهة اجتماعية ما، كانت فاتِرة، مُصطنعة، تُمثل وهي تسير، ترقص، تتكلم، تهمِس.

ذات مرة قصّت شــعرها (آلا جرســون) فبدت جريئــة مقدامة، دخنت سجائر (جلواز) كالشــيوعيين الفرنسيين، وشدت انتباهها بنت صينية كانــت ترقص معها رقصًا فاجــرًا Dirty Dance.. كانت البنت مخمورة، وكانت نَرْجِس في نصف وعيها، بعد أن احتســت كأســين من مــشروب مــاري الدمــوي Bloody Mary.. كثير من الفــودكا وعصير الطماطم وبعض الشــطّة.. التهبت أعصابهــا، وظلت ترقص كالمجنونة، بهبــل أحيانًا، وباحتراف أحيان أخرى، ثم التصقت بمن تراقصها، ضمّتها إليها وأحسّــت بصدرها السُخن على صدرها البارد، أحسّت بدفئه رعبا وأنوثة ولوعة، أمســكت بها من قفاهــا والتهمتها في قُبلة عنيفة ملء الفــم French kiss وذاب طعم الفودكا مع ريق البنت مع الويســكي الــذي احتســته؛ فانتشــت نَرْجِس وترنّحــت وراحت لتجلــس قبالة البيست، ساعتها تأكدت نرجس أنها شديدة الإعجاب بالبنات والنساء، وأنهــا تفحصهن من رؤوسِــهن إلى أقدامهن، تتأملهــن وتعجب بهن..، لم تكن شــاذة Lesbian، كانت تدرك أنها ليســت نمطية.. لكنها وبعد

تلك القُبلة الساخنة مع البنت الصينية، كررّت نفس الموقف مع بنت مصرية دلوعة يقولون عنها (**مُزّة**).. كما كانت نرجس تفتخر بأنها (**لبوة المجموعة الـ group**) انضمت للجروب بنت باردة جسمُها مخروط وليس لها حلّ، وليست فيها غلطة، سبحان الله، شدّتها نَرْجِس إليها ضمّتها وعجنتها بيديها، ثم قبّلتها في نهم.. في سخونة وكأنها مصاصة دماء تمتص رحيق الأنوثة منها.

تعرضت نَرْجِس لمساومات من حرس الديسكوهات، معتقدين أنها «**مومِس**» تبحث عن زبون لقطة عربي يدفع بالدولار، أو مصري سيعطيها شقة أو سيارة أو فيلا.

عرفت نَرْجِس منذ طفولتها أن مصر تُمرر الترهيب، كل واحد يزاحم ويكسب بفتوته، بماله، بنفوذه بثروته، بسلطته بسلطانه، وان المرأة القويّة صعب أن تعيش وسط هؤلاء، لكنها وبكثير من اللطمات، استطاعت أن تظلّ واقفة، خلقت لنفسها عالم وهمي خيالي، عاشت فيه، وارتاحت داخله.

ذات مرّة أعجبَها مُغنّي شاب في كباريه ليلى معروف، في الزمالك كان يغني بالعربي، ساعتها كان أمين معها، أصرّ أمين على أن يصاحبها لغرض الدخول إلى عالمها، وليس لحمايتها، كان المغنى يغني موالًا على الربابة، وكان للحن الربابة وقعٌ شديد الأثر على أمين.. كانت تجرح روحه وتقطعها وتمزق كيانه وتبعثرُه، لكنه كان كشأن كثير من المصريين (**على كيفُه**)، عامل دماغ من غير أن يشرب أو يحشش أو يفعل شيئًا، أي شيء، فقط يُنصت ويفكر ويدندن.

(يا حلو ياللي سواد عينيك مجنني..
والسحر ساكن ما بين الرمش والنني..
وكلمة من شفايفك راح تطمني)

انطلق الموال إلى عنان السماء ودمعت عينا نَرْجِس.

فقامت وقام أمين فاقترب منه المطرب وسأله:

- عجبك الموال؟

- قوي.

- انت اسمك إيه؟

- أمين.

- الله وانا كمان اسمي أمين.

افترق المطـرب وأمين، انطلق أمين مُسرعًا ليلحق بأخته وصاحبتها التي طـُلقت مؤخرا بالثلاثة، سمعها تقول:

- لما باكون نايمــة كان بييجي يبوس إيــدي.. ولما أكون صاحية بيدّيني بالجزمة.. كان بيحب السفرة مترتبة وكان عندنا شغالة وطبّاخ، ساعات كان بيعزم حدّ من أصحابه، وكان، الوسخ، فاكرني جارية.. أحطّ الأكل وادخـل جوّه، ما كانــش مُتدين، كنت بالبــس زي ما أنا بالبس دلوقتي، جيبات قصيرة وبلوزات مفتوحة.. كان زي خشبة متضفر فيها كل حاجة.. لكن فيها جزء هش.

طأطأ أمين رأســه، وكان كثيرًا ما يطأطئها، لم يكن يحب أن يرفعها بســبب ولكن، يبدو من كثرة أفكاره، كانت رأســه ثقيلــة للغاية، كان عندمــا يحلق ذقنه، يرفع رأســه لفوق، ويتأمل وجهــه ويبحر في عينه ويحلق.

جاءه صدى الصوت مع نســمات ليل القاهرة الباردة، وكأنه سمع حديث رســول الله صلى الله عليه وســلم **(اتقوا الله في الشباب فإنهم رقــاق القلوب)**.. تمتم أمين بكلمات حديث الحبيب المُصطفى، ســألته چيهــان رفيقة نَرْجِس عما يقول، فهزّ رأســه بعلامة النفي، أشــار بيده نحــو ميكروباص يمر بطيئًا أمامهم وقال لنَرْجِس، **اقري مكتوب إيه على الميكروباص.**

صاحــت نَرْجِس، صيحتهــا المعهــودة المقرونة بضحكــة ملتوية مصطنعــة بعض الــشيء، ضحكة فيها دعوة ورغبــة وغنْج ودلال، **إيه ده... «لا أمان للبشر»، صدقت يا أمين.**

ولما وصل أمين ونَرْجِس إلى البيت، ذهبا إلى سُعاد هانم في خلوتها، وجداها تقرأ رواية أجنبية، وضعت نَرْجِس يدها على فخذ سُعاد هانم في حنيّة؛ فأدركت الأم أن ابنتها تريد شيئًا.. ضمّت الكتاب ووضعته إلى جوارها، وفاتحتها في مسألة كتب الكتاب.

كَتب الكِتَاب

جلست نرْجِسْ على يمين والدتها سُعاد هانم، التي ظلـت ناحية باب غرفة النوم، وظلّ أمين واقفًا في حلق الباب يتأمّل وجه أمه وأخته التي طال عينيها بريقٌ لم يرَهُ من قبل.

أمسـكت نرْجِسْ يد أمها بكلتا يديها. نظرت إليهـا مبـاشرة في وجهِها، تأملـتهـا، لاحظت الأم تهلـل ابنتها فتهللت لها ولما سـيأتي من لدنّها من أخبار، أما أمين فابتسم ابتسامة خفيفة فيها خبث وحبّ استطلاع.

هزّت نرْجِسْ جسـدها قليلًا، أزاحَت بيدها اليمنى خُصلة شعر سقطت على وجهها وقالت:

- شـوفي بقى يا سـت ماما إحنـا جروب Group.. منهـم نـاس يعرفـوا بعض مـن أيام المدرسـة، وناس انضمّوا لينا من على الفيس بوك،

من بتوع الفيس بوك كان فيه شاب لذيذ.

ربتتْ سُعاد هانم على كتف ابنتها وسألتها:

- **يعني إيه لذيذ يا بت يا نرْجِسْ؟**

- **يعني... يعني!**

مدّت من ياء (الـ يعني) ومَطـّتها، فردّ أمين نيابة عنها:

- **يعني ودود جدًا، لطيف قوي، چانتيه يا ماما.**

ردّت سُعاد هانم:

- **وانت شفتـُه يا أمين؟**

- **أيوه يا ماما..هو مطرقع ولاسِع كده زي نرْجِسْ.**

همهمَت سُعاد هانم، صمتت قليلًا ثم تمتمت من بين أسنانها:

- **مطرقع ولاسع يادي النيلة... هو إحنا ناقصين !**

ســمعتها نرْجِسْ.. لكنها تظاهرت بعدم الإنصات وســألت أمها في براءةٍ مصطنعة:

- **انتي بتقولي حاجة يا ماما؟**

ردّت سُعاد هانم بسرعة:

- **لا أبــدًا يا بنتي ربنا يجعله خير، خير إن شــاء الله... خير.. هو**

عمره كام؟

- **هو أكبر مني بحوالي عشر سنين.**

سرحت سُعاد هانم بعينيها بعيدًا وتمتمت، كأنها تحدث نفسها مرة أخرى:

- **سن كويس، عشان يقدر عليكي ويلمّك، يفلح في اللي ما فلحناش فيه، الله أعلم.**

قامت نرجس واقفة، لمّت شعرها إلى الخلف ثم تركته، شدّت بطنها، رفعَت صدْرها، ولفّت بوسطِها، تسعين درجة في حركةٍ تليفزيونية إغرائية مُميّزة، ونظرت إلى مرآة الدولاب في مواجهتها، كانت تعجب نفسها، وترى الأنثى فيها دلّوعة ولذيذة وتستحق راجل يفهمها، أردفت قائلة:

- **هو أحلى حاجة فيه يا ماما إنه بيعاملني كويس كأنثى.**

- **إزاي يعني؟**

- **يعني فاهم يعني إيه سِت، راجل لارچ فاهم إن المرأة مخلوق خاص، مخلوق لازم يتدّلع ويتهنْهِن، أفهمه ويفهمني، أعتمد عليه ويكون سيدي وسندي.**

أطلقت سُعاد هانم العنان لضحكة قوية، رجعت فيها برأسها إلى الخلف قليلًا، ثم قالت:

- **شوية.. شوية يا بت دانتي مدلوقة قوي، ربنا يُستر!**

ابتسم أمين نفس الابتسامة الساخرة السابقة وسأل أمّه مباشرة:

- **انتي يا ماما معقـّدة الدنيا ليه؟ عمالة تقولي ربنا يســتر.. ربنا يستر من الصبح، هي نرْجِسْ يعني داخلة على جوازه واللا على جنازة، مش انتي بذمّتك نفسك تخلصي منها !**

تجهمّت سُـعاد هانم، وتوقفــت عن الحركة والضحــك والكلام، نظرت إلى أمين في حدّة وقالت له:

- **إخــص عليك يا أمين، أنا أخلـْص منها دي أنا نفسي بس ترسى، وربنا يوفقها بابن الحلال دي بنتي وانا حاسّــة بيها والجواز مش شروة بطيخ، ولا هو ورقة يانصيب ده موضوع كبير قوي.**

سرحَت سُـعاد هانم بخيالهــا، صحيح أن أبو الــولاد لم يكن حُلم العمر، والآن ليس هو الرجل الذي يمكن أن تســتند عليه، ولا أن تقف خلفــه.. بل على العكس هو الذي يتدفأ بها، ولا يطيق بُعادها وينام في حضنها، نعم هي تســتمتع بهذا التفوق في العلاقة، لكن ما قالته ابنتها وجَعها، إن ســامح لا يعرف كيف يعاملها كأنثى، تعوّد عليها كأنها أمُّه، وهــذا ليس بالأمر المقبول، لكن.. تنهدّت سُــعاد هانم، تنهيدة عميقة طِلعــت من القلب، نظرت إلى ابنتها، تأملتها وخشــت عليها من مصيرٍ كمصيرهــا، لكنها توكلت على الله.. وكـانت نرْجِسْ لاحظت شرود أمها، وكأنها رصدت خوفها وتخوفها؛ فأدركتها وقالت:

- **أنا وسلطان قرّبنا من بعض قوي.. وبسرعة.**

ردّ أمين بسرعة:

- **أيوه يا ماما فعلا، حتى أنا استغربت.**

أعقبت سُعاد هانم ناظرة إلى أمين:

- **والنبـــي انت يا أمين مطيبّاتي ومبخـرّاتي، وعمال بس تصقّـف لكل حاجة ع الفاضي وع المليان.**

انزعج أمين من كلام أمه، تقدم خطوة إلى الأمام متوجها إليها، وردّ عليها في عنفٍ محسوب:

- **إزاي يعني يا ماما، مش فاهم، من إمتى وانا كده؟ فاضي فارغ تافه ماليش لون.. من إمتى أنا صقفت لحد مبعتر، واللا لحاجة مالهاش لازمة؟.**

أطرقت سُــعاد هانم برأســها وطيّبت خاطر ابنهــا، قامت واقفة وربتت على ظهره قائلة:

- **مــا تزعلش مني يابني، أنــا قلبي عليك، أصل الدنيا وحشــة وانت طيب بزيادة قوي، ربنا يخليك ليّا.**

أخذته في حُضنها.. دمعت عيناها، استسلم أمين لها وأغمض عينيه انبساطًا.

عاودت سُــعاد هانم الجلوس بجوار ابنتها نرْجِسْ، جلس أمين إلى جوارها من ناحية اليســار، وهكذا صارت الأم سُــعاد هانم وسط ابنها

وابنتها، تحاول بأية حجة جمْع شتات نفسها بعد مفاجأة العريس المنتظر، نظرت إلى نرْجِسْ وسألتها:

- **سنُّه كده كبير... هو ارتبط قبل كده؟**

ردّت نرْجِسْ في حزم وقالت:

- **آه يا ماما كان متجوز قبل كده وطلّق.**

اعتلت وجه سُعاد هانم إمارات الغضب، ونـدّت عنها آهة محبوسة، ونظرة ثلجية دامت بعض الوقت، سألت ابنتها:

- **طيب وطلّق ليه؟**

- **بيقول إن أهله غصبوه عليها، وما كانش فيه توافق.**

- **وهو فيه راجل في الزمن ده أهله بيغصبوه على جوازة؟.. وطلّقها بعد أد إيه، وعنده منها عيال واللا لأ ؟**

- **طلقها بعد سنة بالتراضي، وماجابوش عيال.**

ꕥ ꕥ ꕥ

وبقدر ما كانت سُعاد هانم تـودّ تزويج ابنتها، لأن نرْجِسْ كانت نفسها في الزواج والاستقلال عن أسرتها، ولأن والديها كانا قد ضجّا تمامًا من أفعالها، واكتشافهما عدم قدرتهما السيطرة عليها، فكان الزواج بالنسبة لهما خير حلّ، وإنقاذ شرعي للمشكلة التي وقعا فيها، إلا أنها أخذت نفسًا عميقًا من أنفها، ثم أطلقته، نظرت في عيني نرْجِسْ

وسألتها:

- **وبتحبيه؟**

- **قوي قوي يا ماما..**

- **قوي قوي يا ماما؟ بسرعة كده يا بت؟**

- **آه يـــا ماما هو ده الراجل اللي ممكن أرتاح معاه، هو ده اللي كنت باحلم أكمّل حياتي معاه.**

- **عــلى خيرة اللـــه، إمتى هييجي مــع أهله عشــان أكلم أبوكي يستعد؟**

- **الخميس الجاي يا ماما.**

ابتسمت سُــعاد هانم، لكن شيئا ما لعب في صدرها، شيئًا غامضًا كانت تخشــاه، لم تــدره ولم تفصح عنه إلاّ يوم اللقــاء الذي جمع بين الأسرتين.

حرصت سُعاد هانم وأمين ونرْجِسْ على ألاّ يخبروا فارس بالموضوع، حضّرت الأم طاقم الشــاي، والســت نجية نظفت البيت تمامًا، جعلته يلمع ويشُع بالأضواء ويمتلئ بالروائح المُنعشة.

دقّ جــرس الباب، سرت رعشـــة في ظهر سُــعاد هانم، في عمودِها الفقــري تحديدا، فتح أمين الباب فدخل العريس ســلطان ومعه أخته

وأمه وأبيه، تصدّرت الأم ذات النظرة القوية المكان، تفحصته، أما الأب فكان كثير الشبه بأبي نرْجِس، نفْس الصمت، نفْس الجلسة، نفس إتاحة المكان والزمان والكلام للزوجة.

جلس العريس على كرسي خاص بمفرده، وإلى جواره على كرسي مجاور كانت أخته التي لم تتوقف عن فحص نرْجِس.. لم تكن تتأملها فقط، كانت تدقق فيها من (**ساسها لراسها**)، ربما بدت شديدة الإعجاب بها، أو شديدة الغيرة منها، أو علّها كانت تأمل في اكتشاف عيب ما يسلحها في احتدام النقاش، لم تتمكن إلا من الاستمرار في التحديق في نرْجِس انشغالًا وتفاديًا لمجاملات اللحظة الأولى.

أهل سلطان ناس من قماشة اجتماعية وثقافية ومادية وإنسانية مُختلفة تمامًا، بدا سلطان شبيها برشدي أباظة، ويبدو أيضًا أنه كان قد استغل هذا الشبه لصالحه؛ فأحسن الاعتناء بشعره الأسود، وحرص على دهنه بالجل الإيطالي المُميز، كما اهتم بتصفيفه إلى الخلف مع الاهتمام بشاربه، أما عيناه فلقد كانتا تُشعّان ببريقٍ، وكان سوادهما ينطق بالشقاوة والرغبة والتقافز والطيران.

دخلت سُعاد هانم ووراءها الباشمهندس سامح، ولما استقرّ الجمع في أماكنهم، ودار الروتين دورته، وفرغت فناجين الشاي الألبرتو رويال من شايها ذي النكهة المميزة، أشرقت اللبّانة والسكّرية، وزهزة الزهر الإنجليزي، على البياض الصيني المُميز المشرق، كان الجماد وسط الثرثرة العائلية يتمدد هادئا على صينية الفضّة، رمقت سُعاد هانم سلطان بنظرةٍ مباشرة حوّلتها في نفس الحين إلى عينيّ أمه، التي كانت تتابعها

وهي تنظر إلى ابنها، أحسّـــت سُعاد هانم بذلك الشيء الغامض يلعبُ في صدرهــا مرة أخرى، كفأرٍ له رائحة تنتشر في المكان وتفوح فيه، رغم كل معطرات الجو ونســيم العصاري الذي خبط الستارة التلّ وأزاحها، ليدخل إلى الصالة يبحث عن شيء ما وســط هذا الجمع، تأكدّت سُعاد هانم أن ســلطان وعائلته نــاس (نوڤو ريش).. ماديًا مبســوطين لكن تعليمهم وثقافتهم محدودة، وإنهم -على ما يبدو- اســتثمروا في ابنهم فخرّجوه من الجامعة وأصبــح مهندس اتصالات يعمل بشركة محمول لها وزن في الســوق، أدركت أم ســلطان وأخته هذا الأمر، لكن الأبوين ظلا يثرثران في السياسة، كانا شبيهان ببعضهما رغم اختلافهما الاجتماعي والطبقي، الذي اتضح في مفردات الألفاظ، اســتخدامات اللغة، وكذلك في طريقة حمل فنجان الشاي، شُربه، وفي وضعه جانبا بعد الانتهاء منه.

بدت نرْجِسْ فرحة مهلّلة، مُرحّبة بأهل سلطان أكثر من اللازم، أما هم فكانوا متحفظين، **من أين جاء ســلطان بهذه البنت وبهذه الأسرة، وهل سيكون مصيره معها كسابقتها، الله أعلم.**

جــاء صوت سُــعاد هانــم يقطع صمــت الفواصل بــين أحاديث المجاملة:

- خير يا باشمهندس سلطان، كان إيه بالظبط سبب الطلاق من زوجتك السابقة؟.

لم يباغت السؤال سُلطان، لأنه كان يتوقعه، بل جاء في وقته تمامًا، ردّ في ثقة وفي هدوء:

- **زي ما نرْجِسْ قالت لحضرتك بالظبط، اختلاف طباع.**

وجهت أم نرْجِسْ السؤال الثاني مباشرة لسلطان وهي تنظر في عينيّ أمه التي كانت قد اتخذت وضعا مُتحفزا.

- **وخير ماجبتوش عيال في السنة دي ليه؟.**

- **كنا مأجلين.. مأجلين بمزاجنا عشان نستمتع بحياتنا.**

- **وقاطعته سُعاد هانم واللا تحسُبا لانفصال مُرتقب ووجود طفل ممكن يعقد الموضوع ؟**

- **ممكن تقولي كده يا طنط.**

قالها وهو ينظر إلى أمّه، ربتت أم سلطان على كتف نرْجِسْ، مبتسمة في وجهها ابتسامة لها مغزى وسألتها:

- **سلامتك يا حبيبتي.. سلطان قاللي إن كان عندك بعد الشرّ عن السامعين المرَض الخبيثْ!.**

كانت نرْجِسْ تستعد للسؤال أيضًا.. غير أنها كانت قد سرَحتْ في ملكوت الهروب من بيت أبيها الكئيب البارد، كانت تحلم بالفرحة والفرجة والخروج، بالحياة اللاهية، وبالراحة في حضن رجل حقيقي.. تنام براحتها، يطلبها وتطلبه في أي وقت.. وفي كل وقت، تأكله بأسنانها، ويمتص رحيقـُها بشفاهه، رجلٌ يفهم معنى أنوثتها.. ويُحسن التعامل مع مفرداتها الشهوانية، يركز في عطائه على متعتها ومتعته دون كلل ودون أنانية، غير أن السؤال المتوقع جاء رغم توقعه في غير وقته، جاء

قاطعًا كالسيف، نافذا إلى سويداء القلب، ردّت نرْجِسْ دون تردد:

- **أنا اللي قلت لسلطان على الموضوع عشان أكون واضحة وما خبّيش حاجة.. كان عندي سرطان في ثدي واحد قبل البلوغ وخفّيت منه يعني الكلام ده عدّى عليه ١٣ سنة وعملت تحاليل وأشعات كذا مرة والحمد لله مفيش حاجة.**

انتبه المهندس سامح للحوار فتدخل للمرة الأولى والأخيرة قائلًا:

- **بنتي زي الفل، انتو اللي جايين تطلبوا إيدها، وابنكم عارف الموضوع، وعارف إنها شفيت منه، إحنا قاعدين النهارده عشان نتفق، إذا كنا هنتفق.. مش عشان نناقش جواز سلطان الأولاني ولا مرض بنتي السابق.**

ندّت ابتسامة رضا على وجه سُعاد هانم وأعقب أمين في صوت متمّكن:

- **خير الكلام ما قلّ ودلّ.**

قاطعه سلطان ناظرا إلى الجميع:

- **خللونا نقرأ الفاتحة بأمر الله.. أنا عايز نرْجِسْ، ونرْجِسْ عاوزاني.. بإذن الله كتب الكتاب الخميس.. وبالنسبة للمهر والتفاصيل.. بابا وعمي هيقعدوا مع بعض لوحديهم.**

قامت أم سلطان وأخته واقفتين، تقدّمتا الجمع، وخرجتا من الباب، ظلّ سلطان يتبادل أطراف الحديث مع أمين ونرْجِسْ، انشغل

الوالــدان بالتفاهمات، أما سُــعاد هانم فانســحبت إلى غرفة نومها في صمت.

موضوع نرْجِسْ وسلطان أخذ شهرا ونصف، من بدايته إلى نهايته، اتصلّت أم سلطان بنرْجِسْ على موبايلها وانتهت المكالمة بسؤال:

- **نرْجِسْ يا بنتي، هو فيه حدّ بيخف من السرطان.**

ردت نرْجِسْ في برود:

- **أيوه يا طنط.. تحبّوا أعملكم تحاليل وأشعة جديدة؟**

أدركــت نرْجِسْ أنها قطعت شــوطا طويلًا في إحناء رأســها، لأنها كانت تريد أن تتزوج، ولأن سلطان يملأ عينيها، لم تدرك أنها بردِّها ذلك كانت قد أضعفت موقفها إلى حدّ بعيد، ردّت أم سلطان:

- **لأ يا حبيبتي.. لا تحاليل ولا أشــعة.. هما يعني كانوا بيكشفوا أمر الله المستخبي؟**

- **لأ يا طنط.. مع السلامة.**

دارت بين ســلطان وبين نرْجِسْ مكالمات بالســاعات، أدركت فيها نرْجِــسْ ذلك الجزء الضعيف في شــخص ســلطان، ذلك الجــزء الهَشّ المتأرجِح المهزوز، كانت العلاقة بينهما تسمح بأن يخبرها بمخاوف أهله صراحة، دون تزويق الــكلام أو إخفاء بعضه، وكانت نرْجِسْ في المقابل عــلى اســتعداد لتلقّـي الضربات الموجعــة وامتصاصهــا، أكلت أذنيها عباراتٌ قاســية مثل (**ليه تتجوز واحدة.. كانــت عيانة قبل كده، إحنا**

قلقانــين، انت يا بني لســه طالع من جوازة وتكاليــف؟ هتتجوز تاني، مســتعجل ليه، مفيش أكتر من البنات، بســم الله ما شــاء الله صحة وعافيــة وجمال، الراجــل ميعيبوش إنه كان متجــوز، طالما ما عندوش عيال، وانت راجل وكسيب وزي القمر)..

كانت الكلمات تخرق أذني سلطان، لكنه كان في نفس الوقت يهتزّ لذلك، كان هو الذي أصرّ على حسم الأمر بكتب الكتاب يوم الخميس، كان هو الحريص على نرْجِسْ أسرع منه في استقبال طلبه كأمر، وكأنها كانت ما صدّقت، أصرّ كل منهما على التحدّي، لم يكن الأمر على ما يرام في بيت نرْجِسْ، لم يكن أبوها مرتاحا لأن يناسب تلك الأسرة، وكان الفأر ذا الرائحة النتنة ينشر رائحته في البيت، ويلعب في صدر سُــعاد هانم، أما أمين فكان مقتنعا بسلطان دون عائلته، وكان يرى فيه رغم وجاهته وعرضه وطوله، بعضٌ من سذاجته وطيبته ونظرته البسيطة للأمور.

اســتعدّت عائلة نرْجِسْ لإجراءات كتب الكتاب والفرح، تمّت كل الاتصــالات والدعوات، تم حجز القاعة والفرقــة والدي چي والكوافير والبوفيه، لكن مع اقتراب يوم الخميس كانت مكالمات ولقاءات سلطان ونرْجِسْ تحمل فرحة الزفاف، مشــوبة بالخوف والحذر من الفأر النتن، كانا يخرجان من مشــكلة ليدخلا في أخرى، صُمّت آذانهما إلاّ على وقع الدفــوف والطبول والزغاريد، لكن دويّ الترددّ من أهل ســلطان، زرع ترقـُبا وحذرا في قلب نرْجِسْ، كان ســلطان شاطر، لكنه كلما أقنع أهله بشيء، يرجعوا يغلبوه في أمرٍ آخر، حتى رنّ موبايل نرْجِسْ وهي راقدة على ظهرها بين النوم واليقظة، في حوالي الثالثة صباح الخميس والفجر

يطلُّ على الأبواب، جاء صوت سلطان متردّدًا يقول:

- نرْجِسْ أرجوكِ تفهميني عشان خاطري، أنا عايز أخلّي الموضوع خطوبة بس. صرخت نرْجِسْ بأعلى صوتها:

- يعني إيه يا سلطان؟ خطوبة بدل كتب الكتاب؟

رد سلطان متلعثمًا:

- أيوه... أيوه يا نرْجِسْ.

- أيوة إيه؟ خطوبة إزايّ؟ إزايّ يعني؟ خلاص الناس جايّة، واحنا مجهزيــن كل حاجة وحاجزين القاعة، وأنا.. أخدت مهري، وكل حاجة تمام على إنه (كتب كتاب).. فاهم كتب كتاب يعني جواز، مش خطوبة يا زفت.

- أنا زفت يا نرْجِسْ والله أنا نفسي قوي نتجوز ونرتاح لكن.

- لكن إيه مالك كده طرطور وهـُزؤ.. مالك كده ضعيف؟

- أنــا خايف قوي، أنا قلقان يا نرْجِــسْ.. بصراحة أهلي خوّفوني ورعبوني، فهموني إن الموضوع ده جامد قوي.

- آه جامــد. جامد يا جامد، الموضوع جامد قــوي عليك يا بُقْ، انــت مِش راجل، انت نيلة.. خرا.. ذليــل.. ابن أمك يا روح امك.. مش هينفع يا ســلطان بيه؟ يا سلطان باشــا؟.. مع السلامة يا باشمهندس.. انت من سكة وأنا من سكة.

قذفت نرْجِسْ بالموبايل فارتطم بالحائط مُتفتتًا متناثرًا متســاقطًا على الأرض، انهمرت دموع نرْجِسْ وأجهشت بالبكاء، ندّت عنها صرخة تلاها صمتٌ عميق، قامت، غســلت وجهها وفتحــت الباب لأمّها التي أتت على صرختها قالت لها:

- **كان عندك حق يا ماما.. الفار اللي في عِبّك نتن قوي.**

أخذتها سُعاد هانم في حضنها، كانت نَرْجِسْ تبكي وتقول في تكرارّ:

- **أنا فركشت يا ماما.. فركشت.. ده راجل كلمته مِش مِلكه.**

وفي نفس الوقت كانت سُعاد هانم تردد:

- **خير، كله خير، الحمد لله على كل شيء.**

سألت نرْجِسْ أمها:

- **الناس هتقــول علياً إيــه؟ هنعمل إيه في النــاس اللي جاية؟ هاعمل إيه؟**

لم تـُجب أمّها لكنها استمرت تربت على ظهرها، انسحبت نرْجِسْ من حُضْن أمها في هدوء، أمســك الاثنــان بيدي بعضهما، قالت نرْجِسْ لأمها:

- **تصبحي على خير يا ماما.**

ردّت نرْجِــسْ الباب عليها، وكانت قررت أن يتم كل شيء كما كان مرسوما له.

جاء يوم الخميس، تمتم أمين لنفسـه (**هه النهارده الخميس، اللبّ والأحـلام في كيس**)، سـاعة العصر دق جرس البـاب، فتحه أمين وكان يرتدي بذلة كاملة، قميص فرح أبيض، وببيونة لم يكن مقتنع بها، لكنها ميّزته عن أي يوم آخر يلبس فيه بدلة وكرافتة، كأيام الذهاب مع والده لأداء واجب العزاء.

لمـا فتح أمين الباب، فوجـئ بخمس بنات كالقمـر يرتدين لباس وصيفاتِ العروس، يضعـن الماكياج والبارفانات، يرتدين الحليّ ويتزينّ بالورود والزهور والإكسسـوارات، كنّ قد صففْن شـعورهن، بطريقة فيها بهْجة وفرحة وصخَب، لم يمهْلن أمين فرصة السماح لهن بالدخول، فاندفعـن في جلبةٍ محبوبة، يثرن في الشـقة جوًا شـديد الثراء، مُكتظا بالبهجة، مما أسـعد نرْجِسْ، وأحزن سُـعاد هانم للغاية؛ فلقد أدركت فداحة التمثيلية، لكنها لم تمنع ابنتها من استكمال إجراءاتها حرصا على نفسـيتها، أما الباشـمهندس سـامح فلقد كان نائمًا أو متظاهرًا بالنوم، هروبًا من جحيم ذلك الواقع العبثي.

حشرت البنات أنفسـهن مع نرْجِسْ في سـيارة متسـعة نسـبيًا، وانطلقن مع السائق إلى الكوافير.

دخلن إلى محل تصفيف الشعر وتجميله.

كوكبـة من البهجة المتصلة، باقة ورد تفوح بالسُـعادة، جلسـت صاحبـات نرْجِسْ كلٍ على مقعد، أما نرْجِـسْ فلقد ذهبت مباشرة إلى

كرسي الأسـطى المعلم محمود، تأنّى محمود وتنّهد، وتوقفت رأسه عن الاهتزاز لثواني، استجمع فيها دوائر تفكيره ثم تأمل نرجس، عندما دخلت عليه وسط ضجة البنات، رمقها بعينين كالثعبان، رحبّ بها:

- **أهـلا بالياقوت والزمّرد، أهلا بسـت الغاليـين.. إزيّك يا قمر الزمان؟**

كانت نرجس تدرك دعابات محمود جيدًا، وتعرف كم إطرائه لرفع معنوياتهـا، ومـن غيره يعرف كل أسرارها ويظل بـئرًا عميقة لا يطالها أحد، كان محمود كأبيها وصاحبها وطبيبها النفسي، ورأسها تحت يديه كانت تقول كل شيء، وهو يُجَمل وجهها ويزين الخصلات واحدة، ويثير الهواء الساخن بالسيشـوار ويدور ويلف بمسـاحيق تنظيف البشرة، كانت نرجس تستسـلم وتفتـح خزائنها له أكـثر، لتتخفف من حملها الثقيل وتزيح عن صدرها الصخرة الجاثمة؛ لتنام آخر الليل وأول الصباح دون كوابيس تذكر.

نظرت إليه في المرآة وقالت:

- **محمود أنا عاوزاك تمكيجني وتزوّقني؟ بس أنا مش عروسة.**

ضحك محمـود مجلجلًا في المحـل وظهرت ضحكتـه مرتين، مرة بنفسه ومرة في المرآة ثم سأل نرْجِسْ:

- **-ليه ان شاء الله ؟! بتمثلي مسلسل يا نرْجِسْ هانم واللا إيه ؟**

صرخت فيه:

- لا.. لا.. أنا مش بامثّل مسلسل.. الحكاية مش طالبه تريقة يا أبو حنفي، لأ أنا وسلطان خلاص فركشنا.

كان يحــكي عن بنات الناس الــلاتي يتغنى الناس بأخلاقهن، وكيف ليس لهن حظ ويعانين من العنوســة واحــدة تلو الأخرى، وكيف تبور منهــن الكثــيرات، أو يرضين بأي عريس كبير الســن أو مُطلق أو عنده عيّــل أو اتنين أو مســتواه أقل منهــن، وعن هؤلاء اللاتي يمشــين على حلّ شــعرهن كيف يتزوجن أحســن الزيجات، ويقعن من حالق على العريــس اللقطة، وكيــف إذا طلقن يتزوجن ثــاني وثالث بسرعة دون كلل أو تعب أو مجهود، وتجدهن مبتغى الرجال من كل صنف ولون، خاصة هؤلاء الذين يسيل لعابهم على البنت اللعوب بصرف النظر عن ماضيها أو تاريخها أو حالتهــا الاجتماعية، يبحثون للعريس عن البنت التي ســتدلّله، وترقص له ويكون مثــالًا صارخًا للدلال والميوعة، تكون نغشه تتمايل وتتراقص وتطبخ وتنام وتشبع وترتوي دون شكوى، تدلك له قدميه وتجعله صبيًا فتيًا في الفراش أسير سرّها وسحرها.

كان محمود أول من يعلم بقصة نرجس وتفاصيلها، لأن محلّه كان منتدى الأخبار والأحداث، وكان هو سرّ نرْجِسْ.

وكان محمود كوافير صَح، أسطى، معلم له شنّة ورنّة، تعرفه النسوة من كل الطبقات، العوالِم والراقصات وبنات العائلات وبائعات الهوى، صار مخزن أسرار، بعمره المديد ورأســه الثقيل، بشعره الكثيف المرتفع لأعلى كشــجرة لها لون الأرز والرصــاص والفضّة، رأسٌ ضخْم على عنق نحيل تبــان عروقه واضحة، وعينان تحتهما ســواد، وأثر واضح للخمر

تؤكده هزّة خفيفة تشمل الرأس كله، وبعض أجزاء العنق، ولا تمتدّ إلى اليدين اللتين كانتا تعملان في مهارة، وكأنه يعزف أجمْل الألحان.

محمــود الكوافير متزوج من امرأتين أحلى مــن بعض، ويقال إنه بالكاد يكاد يعــدل بينهما، وأن كل منهما لا تحمل للأخرى أي ضغينة، بل يقــال إنه كان صعبا تمييز الأولى من الثانية، لم تكن هناك ضرّة، ولا زوجة قديمــة، ولا أخرى جديدة، الاثنتين لحقا ببعضهما البعض بسرعة الــبرق، لما جــاء رأس نرجس تحت يديــه، كان يعرفها جيــدًا، ويعرف حكاياتهــا مع الزمان، ولما كان يعرف أخبار كل النســاء، من كل أرجاء القاهرة ويعرف حكاياتهن، فكل عروســة ولها ميزان ومكيال وحدوته، فهناك اللاتي طـُلـّقن بعد ليلة الدخلة، وأولئك اللاتي صَبرن سبع سنوات، وهؤلاء اللاتي كان لهن عشاق وهن متزوجات، وتلك التي تزوجت شهرًا ومهرها كان قليلًا، والأخــرى التي ربَطت زوجها؛ فلم يفلح في الدخول عليهــا، وتلك التي لم تدَع زوجها يخرج من غرفة النوم إلا بعد أســبوع بالتمام والكمال، اهتزّ رأســه نفس الهزّة المتتالية، التي دلّت على عدم اتزان داخلي، ســببه كثرة تعاطي الخمر في المســاء، وتناوله أول شيء في الصباح على الريق كأنه اللبن الحليب أو الماء الرقراق.

صمت محمــود الكوافير فجأة، بلع ريقه ممتعضًا وســأل نرْجِسْ مندهشا:

- **خير... إن شاء الله خير.**

- **خير يا محمود، خلاص مش هاتجوز.**

تململ محمود مكانه، كان يسأل نفسه **(ولما أنتو فركشتو لأي سبب ليه الدوشة وليه أنا، وليه أوضبّك كعروسة، أنا مش فاهم والله العظيم ما أنا فاهم).**

لم يكن محمود يدري هل يواسي نرْجِسْ أم يمكيچها، المهم انطلق محمود كالصاروخ يعمل بهمّة ونشاط، أقنع نفسه تمامًا أن نرْجِسْ عروسة، وأن كتب الكتاب بعد صلاة المغرب في المسجد الكبير، وأن الفرَح في القاعة المتميزة في الفندق المشهور، وأن المعازيم يستعدون الآن لاستقبال عروسة العرايس، وست الحسن والجمال، نرْجِسْ !

لم تعرج الناس على المسجد الكبير ولم يأتِ المأذون، لكن أقيم الفرح في زمانه ومكانه، وجلست نرْجِسْ ثابتة تبتسم، رابطة الجأش تحيي المعازيم.

قام المعازيم إلى البوفيه، بعضهم في دهشة والبعض الآخر استرسل في النميمة، أما الأغلبية فكان همّهم الأوحد التهام ما لذ وطاب من الطعام.

كان الكل فرحا بنرْجِسْ العروسة، بصرف النظر عن أي شيء، انشغلوا مع عيالهم وأنفسهم وأحوالهم، كانت البنات والمُطلّقات في رحلة البحث عن عريس، وكان الشباب والرجال يتصيدن الفرص لإقامة أي علاقة ولو بالتليفون مع غزال أو قمر زمان، أو أي بنت غلبانة تريد أن تختبئ وراء أي حائط في شكل رجل.

سرق أمين نفسه وجلس مكان سلطان، ضحكت نرْجِسْ جدًا

لِلفتتِه وأمسـك بيده، أخذ أمين صـورًا تاريخية مع أخته، وعدّل من نفسه للمصور في أكثر من وضع مُحييا الجمهور.

كان (الـدي جـي) يطلق الأغنيات الشـعبية والأجنبية في كوكتيل رائع أحيانا، وشديد التشوش أحيانًا أخرى.

انشـغل عمال الفرح ومدير الحفل في خدمة المدعوين، منصرفين لمحاولة التنصت واستراق السمع لمعرفة سرّ العروس التي بدون عريس وصاح أحدهم:

- **وحتى لو هو في بلد عـربي ومش قادر ييجي ما أعلنوش كده ليه، ده الزواج إشـهار.. طيب وكيله فين؟ رد عليه جرسـون آخر يحمل بعض الطعام إلى كبار السن الذين لم يتمكنوا من الوقوف في الطابور:**

- **الوكيل ربنا.. لا إله إلا الله.**

ولمـا انتهى الحفل، وقفـت نرْجِسْ ثابتة كالوتـد، كان تردد بينها وبين نفسـها (**سبحان مين قوّاني**) سـلّمت على الناس، تشكر حضورهم وتضحك معهم دون سلطان أو غيره.

وهما خارجان من باب القاعة من باب الفندق همس أمين في أذن نرْجِسْ ضاحكا:

- **كإنه فيلم سينما.. كإنه ترومان شو.**

- **زيه زي حاجات كتير.**

طبـع على وجههـا قبلة كلها حنان وأمـان وتأكيد، فضغطت على

يده قائلة:

- **ربنا يخلّيك ليا يا أمين.**

تحركت السيارات مرة أخرى في طريق العودة.

توقـف أمين عن التنفس للحظات بعد أن شـاهد سـيارة بورش حمـراء تمرُق بسرعة جنونية تكاد تقطـع موكب العروس، خُطف لونه وزاغ بصرُه، سألته نرجس عما ألمّ به، بلع ريقه وقال لها:

- **شفتي العربية البورش الحمرا اللي عدّت دلوقتي؟**

- **آه..**

- **بيتهيألي ان سلطان هو اللي كان سايقها.**

- **لا يا راجل ده كان على ما أخدت بالي بسرعة شكله أجنبي.**

ضحك أمين وقال:

- **ما هو سلطان شكله طلياني! انتي نسيتي والاّ إيه يا نرجس؟**

مسحت نرجس بطرف أناملها دمعتين فقط بالعدد.

دقّ جـرس هاتف أمـين، ردّ عليه وتغير وجهـه وتبدّلت ملامحه، سألته نرْجِس في لهفة:

- **أمين.. أمين.. إيه الحكاية.**

ردّ أمين في اقتضاب:

- **جدّو تعبان قوي يا نرجس.**

ومــا أن أنهى جملته الإخباريــة القصيرة، حتى انفجرت نرجس في البــكاء، امتلأت عيناهــا بالدموع، وكأنها كانت تنتظــر أي خبر مزعج، لتُخــرج طاقة الغضــب والإحباط، زمجرت بهما الســيارة لتحملهما إلى بيت الجدّ.

رَحيلِ العَزِيز

هبّت ريحٌ صرصر عاتيــة، مــن ناحيــة شرفة الصالة، خبَطــت في ألوميتال النافذة، شــقّت طريقها مُصفّرة مــن الفتحَات الخفيــة والشــقوق الجانبية، تحمــل معها بعض التراب الأحمر، وكانت الست نجية قد انتهت من تنظيف الغرفة الجانبية وتهويتها، غرفة المرحومة توحيدة هانــم جدّة أمين، الغرفــة كانت مغلقة منذ وفاتها، من ســبعة أشــهر، هبّت من ناحيتها ريحٌ زكية قاومت الريح الشمالية العنيفة، بعثت في المــكان بطراوة، سرَى معها بعض الضوء والظلّ والأصوات البعيدة، لصبيةٍ يلعبون في الشارع، مع قليل من أصوات أبواق السيارات.

اندفع أمين ووراءه أخته نرجس ناحية غرفة الجــدّ، كان نائمًــا على ظهــره، ذقنــه نابتةٌ بعض الشيء، وجهه الأبيض المُدوّر يبتســم على الدوام، كان ينظر إلى الســماء من خلال الســقف، الذي

تلته أسقف كل الأدوار العـُليا حتى الدور السادس عشر، وسطح العقار المُمتدّ المشغول بالأسلاك المتشابكة للكهرباء والتليفون، وكذلك أطباق الدِش المُتزاحمة، وبعض الدخان من السـماء، زقزقت عصافير وهربت طيور.. وهربت أسراب حمام وحطّت أخرى.

دخـل أمين مُسرعًا مـن الباب وهو مازال بملابـس الفرح: البذلة السـوداء الكاملة، القميص الأبيض الخاص ذو الياقة النحيلة والببيونة السوداء، كان وجهه متغضنًا شاحبًا مخطوفًا، وراءه كانت أخته نرجس بنفس اللهفـة، وإن كانت تبدو مضطربة بعد كتـب الكتاب المُزيّف، كانـت مازالت بفسـتان زفافها ومكياچها، تجرجر ذيل الفسـتان، ولما اختلطت دموعها بكُحل عينيها وريميل رموشـها، صار وجهها مشـوهًا إلى حدٍ كبير، وظهرت نرجِس مُخيفَة في تناقض ملامحها، الذي شـوهُه خليط الماكياج مع الدموع، وزاده سـوءًا محاولاتها لمسْحِه أو إصلاحِه، كانت نرجس تجري في ذيل أمين، وما أن اسـتقرّ أمين على جانب جدّه الأيمن، مُمسـكًا بيدِه، حـوَّل الجدّ وجهه من السـقف إلى وجه أمين، ابتسم ثم نظر إلى نرجِس، وبانت عليه علامات الدهشة.. سأل أمين:

- **هو أنت اتجوزتوا واللا إيه؟**

ضحـك أمين من بين دموعه، ضغط عـلى يدِ جدّه، طبعَ قبلةً على خدِّه وعلى جبينه، ارتعش الجد ارتعاشه خفيفة، قال أمين:

- **اتجوزنا إيه بس يا جدّو .. دي نرجِس أختي.**

ردّ الجد في تؤدة:

- **مــا أنا عارف يا أمين بــس انتو اللي لخبطتوني، إيه لبس الفرح اللي انتو لابسينه ده، انتو كنتو بتمثلوا مسرحية واللا إيه؟**

تقافزت نرجِس وهي مكانها كطفلة تُقرّ العين وقالت:

- **أيوه يا جدّو كانت مسرحية تجنن، اســمها سلطان فارس بني خيبان.**

ابتســم الجدّ مرة أخرى، ابتسامة خفيفة، عاود النظر إلى أعلى، إلى السقْف، ومنه مباشرة إلى السماء.

بدا الحضور الجليّ للموت واضحًا كشمس الظهيرة، بعد قليل دخل المهندس ســامح في خطى مُتثاقلة، راح ناحية والده من يســار الفراش، قبّله على جبينه، وقال في صوتٍ رتيب شبه رسمي:

- **سلامتك يا بابا.. إن شاء الله خير!**

ابتسم الجدّ مرة ثالثة وقال:

- **كله خير.. الحمــد لله.. عارفين ابن أدهم كان بيقول إيه لربنا سبحانه وتعالى؟**

نظر كل منهم للآخر، بعد أن انضمّت إليهم سُــعاد هانم، وصاروا كوكبة تحيط بالرجل العجوز وهو يتكلم ببطء ويتأنى فيما بين كلماته:

- **ابــن أدهم قال «اللهم أنك تعلم أن الجنة لا تزن عندك جناح بعوضة، إذ أنت آنستني بذكرك، ورزقتني بحبك، وسهّلت عليّ طاعتك،**

فأعطِ الجنة لمن شئت».

أحنــى أمين رأســه، نزلت على خــدّه دمعتين لم يمســحهما، دخل إدريس من الباب وخلفــه فارس وماجد وكثير من الأولاد حتى امتلأت الغرفة، رفع أمين رأسه ناظرًا إلى جده وقال:

- جــدّي... دي الدرجــة الأخــيرة الرفيعة، هي كانت مُشــتهى الأدهمي المُحبّ المُشتاق.

لفــت الجدّ وجهه ناحية أمين، نظر إليه في اســتغرابٍ كبير وحُب شديد، ثم رفع وجهه إلى السماء مرة أخرى، صاح فارس من الخلف:

- خــلاص عملت فيها صوفي يا شــيخ أمين؟ وبعديــن إيه لبس البلياتشــو ده اللّي انت لابســه ده؟ وأختك الزفت دي متبرّجة ولابسة فستان زفاف؟ تمثيل ده كمان والاّ إيه؟

نظرت نرجِس إليه شــزرًا، ولم يلتفت أمين إلى فارس واســتمر إلى جانــب جده، اقــترب إدريس وربَت على ظهر أمين، الــذي انتبه، فقام واقفًا من على ركبتيه، ضمّ إدريس إلى صدره، نظر الجميع إلى إدريس الذي جاء هكذا وسطهم، مُحتضنًا ابنهم، وهم لا يعرفونه، ولا هو حتى من العائلة البعيدة، نظر أمين إليهم جميعهم، نظر في عيونهم، وحدّق في عيني فارس تحديدًا وقال:

- أقدم لكم إدريس زميلي في المدرسة، أخويا وحبيبي وصاحبي.

هــزّ إدريس رأســه مُحييًا الجمْع المُحدِّق فيــه، والذي كان بعضُه

مستاء لوجود هذا الغريب من ناحية، وأيضًا لاقترابه أكثر من الجد المُحتضر من ناحية أخرى، لم يأبه إدريس لأي من ردود الفعل وقال:

- لو الدنيا دي كانت خالية من الشقا والفقر والمرض والتعب، وماكانش ختامها ضعف ووهن وكهولة، لكانت جنةً الأرض، جنّة زي الفُلّ.

صاح فارس وهو يمسح بيده على لحيتِه من خلف التجمع الدائري حول فراش الجد:

- أنها « لو.. لو المستحيل المُضمِرة».. أُمنية صعب نحققها، أمنية تدبح ملك الموت.

سرت همْهمة وجلبة، فلم يكن أحد يتحدث عن الموت رغم حضوره الجليّ، وكان الجد الوحيد في شقته قلّما يرى تجمُعًا كهذا، إلا قعدة الشطرنج تلك، كانوا كلهم حوله من كل مكان عدا رأسه، طلب بعض الماء ليشرب، شرب قليلًا، تأنّى ثم قال:

- خدوا بالكو من شجرة الدهب اللي في قلب أرض مصر، دي متمركزة في حتة تحت الأرض في عمق جامد جدًا، ومتفرّعة في كل حتة فيكي يا مصر، منّه دهب أخضر بيخش المعمل والمصنع، ومنّه دهب متضفّر مع الأرض، ومنتشر بطول وعرض مصر، من تحت جنوب أسوان لحدّ رشيد وبورسعيد وإسكندرية، وممدود بالعرض من حلايب وشلاتين وسفاجة والقصير، يعدّي النيل ويروح للصحرا الغربية.. الأرض تحتها دهب، بس ما تخلّوش حدّ من الأجانب يعرف، خدوا بالكو

من المُستكشفين والمُستشرقين واللي عاملين نفسهم بيحبّونا، دول كلهم حرامية سرقوا مننا حاجات كتير قبل كده، دهب وآثار وبترول ومعادن وجواهــر ولآلئ ودنيا ودين، سرقوا أولاد وتاريخ وحجج أوقاف، مفيش غيرنا يقدّر شجرة الدهب دي، ومحدش غيرنا هيعرف قيمتها.

كان الجــد أجهده الكلام، ربَت أمين على يــده، خفف عنه بنظرة حنونة وابتسامة مطمئنِة، نظر ماجد إلى عمه سامح وسأله:

- **فين شجرة الدهب دي يا عمّي؟**

رفع العم، ســامح والد أمين، الكاب من على رأســه وحكّ رأســه، الصلعاء، وقال دون أن يبتسم أو يبدي أي انفعال:

- **الشــاطر هو اللي يلقاها، مصر مليانة شطار، ومليانة حرامية، لما الخناقة اللي بينهم تخلَص، وشــكلها كــده مش هيخلص، إلاّ لما حد فيهم يخلّص على التاني، يبقى ندوّر على الدهب.**

ردّت سُعاد هانم على زوجها، وهي تداعب حماها المستلقي على الفراش، بغمزة عين ونظرة إعجاب بالرجل المُمَددّ وتاريخه:

- **انت كده شدّيت خيط من بكرة صوف يا سامح.**

ردّ سامح في صوت شُجاع:

- **وانتي قدّ التريكو يا سُعاد.. هتقدري تعمليلي بلوفر يدفيني في الشتا والاّ علامات الروماتويد ظهرت عليكي؟**

انزعجت سُـعاد هانم للغاية، من هذا الهجوم المباغِت، مسـحت حبات عرق من على جبهتها بمنديل ورقي، نظرت إليه في عينيه وقالت:

- **لا روماتويد ولا كسَـل.. هات الصوف انت، والباقي عليّا.. أنا لسّه بصحتي يا سامح.**

عـوي كلبٌ تحت البيت؛ فارتعد أمين، ماءت قطة عند الباب مواءً متصلًا، وكأن السـماء قد فُتحت، ونزل منها مَلَـك الموت ومعه كفن، جلس الواقفون، ضعف صوت الجدّ ثم قال:

- **أنا شـايف بحر لونه فيروزي رايق صـافي وزي البلـّور، مليان سمك كتير قوي، إدّوا السمك ده لأمين.**

تململ فارس في قعدته وقال:

- **أمين... أمين... مش هانخلص احنا من حكاية أمين دي... شوية سمك، وشوية دهب، ناقص جدّي يعيّنه ملك على مصر.**

قامت نرجِس واقفة، صاحت في وجه فارس:

- **ممكـن كفايـة بقى وتحترم المـكان والزمـان؟ مابيجيش من ناحيتـك غـير القرف، كلامك لـُكمية شـديدة في حلْقـي بتقفِل زوري وصدري.**

مـضى الماضي كلـه أمام عيني الجـدّ، بذُخره وفضائله وحسـناته وسـيئاته في شريط أمام عينيه، وكان جسـده يغترب عن الفراش، وعن المحيطين به، بدا الجسد المسجى نقيًا بكرًا مُعطرًا بنسيم الجنة، مترفعًا.

نام مبتسمًا.. توقف قلبه ولم ينطق ببنت شفة.

سرى في الغرفة وهجٌ أبيض شـــديد النقاء، جرت إجراءات الغـُسل في روتينٍ سريع ناعم، نزلوا إلى المســجد فوجدوا الإمام غائبًا، أمّ إدريس المصلّين، وكان الدفن والعزاء سلسًا هادئًا.

قــام أمين من نومه في اليوم التالي، أدرك الفجيعة ووحشـــة الدنيا من غير جدّه الذي رحل مبتسمًا، مُخلفًا وراءه ظـُلمة دهماء، في عمقها نورٌ شاهق البياض، تذكر الذهب والسمك، وضحك كطفلٍ قرير العين، وبكى كما لم يبكِ أبدًا.

التداعيات

حاول أمين أن يرتاح.. بعد كل تلك الأحداث، بعد تلاحقها وتتابعها، سرعتها.. مفاجآتها.. تنوعها وتبدّلها.

دخل إلى غرفته، شدّ الستارة الثقيلة حتى انفرجت قليلًا لتسمح ببعض الضوء، الذي انتشر وسط غرفته.

ترك أمين الستارة التُل البيضاء الشفافة مكانَها، تأكدّ من أن النوافذ موصدة بإحكام، فتح جهاز التكييف في اعتدال، ليتلقى تهوية دون تبريد مع صوتٍ خفيف للغاية.

بدّل ملابسه، وكأنه ينزع عن جسده أغطية ثقيلة، كأنه يخلع عنه معطفًا حديديًا.

رمى بملابسه على الأرض وكأنه يرمي بهمومه وغمّه وتعبه وتفكيره الذي لم يتوقف للحظة،

رماها، ألقاها، كوّمها على الأرض في كومةٍ صغيرة، وتمنى لو تخلص منها للأبد، لا لسلة الغسيل ولكن لصندوق القمامة.. نعم هدومه كلها، الخارجية والداخلية، عرقه.. رائحة جسده.. إفرازاته، وساخته.. أفكاره، ألقاها كلها على الأرض، لتأخذ طريقها وبسرعة خارج الزمان والمكان.

كان سريره عريضًا، راعت سُعاد هانم أن يكون هكذا حرصًا على راحة ابنها القريب منها والمُحبب إلى قلبها.

فرش أمين نفسه عاريًا، تذكر الرجل العاري فضحك؛ وقام واقفًا ليرتدي ملابس داخلية ويكتفي بها.

تعب أمين وانهدّ حيله، افترش السرير أمام مرآة التسريحة، أسند ظهره، فكان نصف جالس ونصف نائم مطالعًا نفسه في المرآة، نادته الحاجة إلى التبول فذهب بملابسه الداخلية إلى الحمام وأفرغ مثانته ودندن لنفسه: (**أنا.. أنا.. إبريق الشاي.. أنا بوزي كده، أبُص كده، وأصُب الشاي.. كده**).. ضحك ضحكة عالية وتساءل، بينه وبين نفسه، (**ما علاقة إبريق الشاي بعضوي الذكري وما علاقة الشاي بالبول**).

دخل مرة أخرى إلى غرفته وأوصد الباب في إحكام، افترش سريره العريض مرةً أخرى ناظرًا إلى صورته في المرآة، كانت الصورة تتحول وتتبدل وتعتدل.

تسلل نسيم العصاري من فتحة، يتيمة، صغيرة جاهدت للوصول إليه ضد هواء التكييف، أزاحت الستارة التُلّ البيضاء، لفحت وجهه، أنعشته، هزّته ورجّته في استرسال غير عادي.. أنعشت نفسه الداخلية

ببعض حرارتها الممزوجة بالبرودة البسيطة الآتية من هواء جهاز التكييف، سرح في الحياة الدنيا، في أسرته، في أمه سُعاد هانم، في نرجس وفارس وماجد وإدريس والموتوسيكل، تحسس رأسه بعدما أحسّ بصداع خفيف يناوشه.

أدرك ان ثمة جنين مجنون يرقد بينه وبين نفسه، جوهرٌ حيوي يحتل المساحة بين قلبِه وضلوعِه، تستنشق رئتاه الهواء البارد المحمّل بالذكريات، وترميه في قفصه الصدري الذي علا وهبط تحسُبًا للقدر.

كان في داخل أمين، داخل أحشائه في ذلك الجوهر، المركز الحيوي المُشتعِل الذي لا يدرك مصيره، وكأن له أكثر من احتمال وأكثر من اتجاه، وكأن بوصلته اهتزّت تروسها وفقدت اتزّانها، فعطب مؤشرها وتأرجح، فكان له التيه واللوعة والحيرة.

تنظيمه الداخلي كان يغلي كالمرجل، ليصدّر للخارج شخصية غامضة تبعث على التساؤل، وعلى عدم اليقين.

كانت هناك بذرة ما ترقد في قاع جمجمته، تتوه مع مسارات أعصابه، تسبح في كيمياء مُخه وتجذف بمجذافين، تجذف في مائه بحثا عن مرفأ.. عن شاطئ.. عن سكينة وعن اعتبار.

حاول أمين جاهدًا أن يتعامل مع نفسه المُلتاعة، حدّق في وجهه في المرآة، حرّك رجليه، لعّب أصابع قدميه، اهتدى بعد بحث إلى مدخل نفسه، تمّكن منها، وضعها في غرفةٍ داخل غرفة، حجرة في حجرة، صندوق في صندوق، محاولة قاسية صعبة حاول بها لمْلَمَة شذرات روحه غير

المستقرة، ليجمعها وكأنه يصطاد فراشات ملـوّنة، أو كأنه يطارد حبّات اللقاح مع الريح التي تذروها، آه.. ها هي البذرة، ها هو الجنين المولّد لكل الأمور العظيمة والأشياء الحقيرة... فعلًا، بجدّ ودون مواربة.

حاول أمين محاولة مُستميتة قوية، استرداد نفسه ولمّ شتاتها ووضعها في كبسولة شفافة؛ ليراها كل صباح وكل مساء، يُهنئ نفسه بمرآها، ليستريح باله ويطمئن.

بعدما قرر أمين الانخراط في كل نشاطات الحياة الدنيا، أطلق لنفسه العنان، حاول قدر إمكانه تغيير العالم المحيط به، بتغيير تحركاته وأصحابه وناسه، ولما كان من الصعب تغيير أمه وأبيه، أخته وأخيه، قرر أن يعيد النظر في كيفية التعامل مع كل هؤلاء، أن يحافظ على شعرة معاوية، أن يبعد السيف المُسّلط على رقبته، أن يخرج وللأبد من دائرة المكان والزمان.

قررّ ألاّ يكون عبدًا لدائرة وسلطان العائلة أو الحكومة أو العمل أو الظروف، فلا سيارة بورش حمراء مارقة، ولا رجل عار، ولا موتوسيكل هارلي، ولا بنيامين فرانكلين.. ولا ورقة بنكنوت بمائة دولار ولا الجن الأزرق، سيسمح له بالسيطرة عليه، أو محاولة تقرير مصيره.

أمين... وهو سارح في ملكوته، ضحك لنفسه ضحكةً خفيفة، ضحكة من القلب اهتزّ لها جسده وترجرج، تذكر ذلك الكاريكاتير المُميّز على الفيس بوك، لرجل يمثل المجلس الأعلى في زيه الكاكي، يجلس على ترابيزة صاج صغيرة، أمام رجل يمثل وزارة الداخلية بلباس الشرطة الصيفي الأبيض، وبينهما على ترابيزة القهوة الصغيرة جدًا **(اتنين شاي**

على ميّه بيضا: قال الكاكي للأبيض: شدّ حيلك، أنا عايز أسلمهم السُلطة تسليم أهالي، سُلطة عالطوب الأحمر من غير شعب).

ضحك أمين مرةً أخرى، في قهقهة عالية شـقت صدر الصمت، كان الكاكي يضع سـاقًا على سـاق (**آخر ألاطه، وآخر أنعْرَه**)، يميل برأسه في استخفاف بالأبيض، الذي انحنى مؤدبًا ينصت في هدوء عبد المأمور.

عمومًا كان أمين بين الحين والحين، يغذي روحه بتلك الأطروحات الذكيـة والنـكات العبقريـة، المدوّنـات التي تفرح النفـوس وتشرح الصدور، توازن ما بين العقل والقلب والرئتين، خطوات الأقدام وهزّات اليدين، وكأنه يطوّر نفسـه المجنونة.. نفسه المميزة، يجعلها أكثر رقيًا، نفسـه اللاسْـعة ذات الطاقة المُتفجرة المُختنقة.. الغريبة الأطوار، تلك التي تعيـش في عالمها الخاص، تطوف به كالطوافة في الصحراء الكبرى، وكالقمر الصناعي، ترصد.. ترسل.. تحوّل.. تمتلئ.. تـُفرَّغ.. وتتفرّغ.

ولمـا كان أمين لا ينجح دائمًا؛ فإنه لم يكفّ عن المحاولة.. لم يملّ، لم ينزعج، استمر في حلّه وترحاله، كيفما شاء وأينما شاء.

تحوّلت المرآة أمامه إلى ما يشـبه شاشـة التليفزيـون، فرك عينيه الحمراوين؛ فرأى الشاشـة تعرض صورًا لـ «باسـل» في البرنامج يحاور «ككي»، كان «باسـل» أنيقـًا كالأمريـكان، يرتدي بذلةً سـوداء كاملة ونظارة «نظر» عريضة وببيونة سـوداء، أما «ككي»؛ فكان حليق الرأس تمامًا (زيرو)، مفتول العضلات.

سأل «باسل».. «ككي»: **هيّ حمامتك راحت فين؟** ضحك أمين جدًا

حتى اغرورقت عيناه وغاص في سريره، سمع «ككي» يردّ في هدوء: **آهيه عــلى كتفك، وبالفعل كانت هناك حمامة بيضاء على كتف «باســل»..** بعد قليل طارت في هدوء، فقال «باســل» مؤكــدًا: **حمامتك طارت**، لم يضحك أمين لكنه وضع يده اليمنى على عضوه الذكري وكأنه يحميه.

فكــر أمين كثيرًا، العضو الذكري ذكر.. قضيب، لماذا إذن يســمّونه (حمامة).. تســميةٌ رقيقة.. خفيفة.. أنثوية، تحتمل الطيران بعيدًا... ما علينــا، تبدّلت صور المرآة التليفزيون، جــاءت المُمثلة بعد أن تحجبت في إعلان تروّج للسمن الصناعي.. «**سلسال**».. أكدت أنه مختلف، طعم وريحة، وخفة وترميلة.. «**سلســال**».. وأكدّت أن مصر كلّها ســتغيّر إلى «**سلسال**».. نعم مصر كلّها، تعجّب أمين لذلك، لكنه تأكد أن «**سلسال**» جعل طعم الطهــي أطيب، مما جعل حمادة يلُّغ ويــأكل كثيرًا، يلتهم ويملأ كرشــُـه.. (**يأنتخ بعد الغدا ويصبح مثــل البطّة**).. فتقرصه حماته مــن خدّيــه وتهزّهما هزًا فيه إمســاكة قوية للدهــن، دلالة على تميز الشعب الذي لا يأكل إلاّ سَمنة «**سلسال**».. نعم «**سلسال**».

مرّت عليه لحظات كالحُلم، رأى فيها أناسًا يأكلون لحم أخيهم ميْتا في ســندويتش، تذكر القول الكريــم (**أيحبُ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه!**)..

ɞɞɞ

أتاه بســاط الريح جنب سريره فتدحرج عليه، خرج به من فتحة الشــباك الصغيرة، من خلال الســتارة التُل البيضــاء، عدّي على مقابر وأماكــن قذرة، حدثت في الرحلة أشــياءٌ كثيرة، انتهــت بانفجار زجاج

سـيارة بورش حمراء في وجهه ولم تخرج شظايا الزجاج إلاّ باللحم، وجد أمين نفسـه يتقمص دور فريد الأطرش ويغني بحاجبيه الكثّين: **بساط الريح..جميل ومُريح... ودوايا في سـوريا ولبنان... نروح يا بسـاط على بغـداد.. على بغداد.. على بغداد، بـلاد خيرات بلاد أمجاد.. يابا يابا يابا يا باي)**

ꕥ ꕥ ꕥ

اتخذ أمين شكل الجنين وهو ما زال على سريره شبه عار، بدا وكأنه في حضن أمه ملتصقًا بثديها تمامًا، صاح في لوعةٍ.. كم أشتاق إلى حُضن أمي، وإلى حليب أمي، وإلى الرضاعة نفسـها، كم جافة هي تلك الحياة بدون ذلك الحنان وذلك الوهج، ذلك الامتصاص والارتشـاف والغياب في لحظـة فارقة، رقةٌ تفيض وتغمره من الـرأس حتى القدمين، عذوبةٌ لها تأثير الخمر والحُـب والقبلة الأولى. ودفءٌ يحمي من صقيع الأيام ومن غدرها.

ارتعش جسـد أمين واهتزّ، كأنه يتشنج، ينادي على أمه لتُغطّيه وترضعـه وتربت على كتفيه، تضمُّه وتلمّه وتحميه من خوفه، تؤكد له على طمأنينته وأمانه.. **ماما الآن مشـغولة، وأنا كبرت... وكأنها ليسـت أمي وكأني لسـت بطفلها... أنا وحيدٌ ضائع تائه مشـتاق كرضيع يتيم محتاج.. طفل..** مسألة وجوده أصبحت -بالفعل- مسألة مُحيّرة، أصبح وجـوده في تلك الحياة وارتباطه بهـذه الأسرة وبهذا البيت وبهذا البلد وبتلـك الثورة وبالمجلس الأعلى وبالناس مسـألة زلِقة، مسـألة مُربكة يكتنفها الكثير من الغموض.. يا الله.. شـهَق وتنهّد وصاح وبكى وتوجَّع

وتقلّـب... وكأنـه على جمر النـار **(أنا لا أعرف إلى الآن من أنا وسـط هـؤلاء، هل أنا الواحـد في المجموع، أم أنني المركـز وهم المحيط... يا الله... المسـألة متشـابكة متنوعة قاسـية محمُومة.. لا اتفاق بين كل هـؤلاء.. ولا حتى بين عنـاصر الجماد، ولا بالطبع مكونات الانسـان).**
تقلّب أمين في فراشه ودندنً:

(امتى اتزرعت مباني، وناس بشكل تاني،
وأدوار من غير معاني، متصورّها جناني...
مش هيّ دي المحروسة !)

أحس أمين بأن جُمجمته، رأسُـه، مخُه قد أصبح مثل قطعة الجبن السـويسري **(من برّه متلصمه.. ومن جوّه مخرّمة)**... أصبح يرى ولكن سـاعات مـا يكون الضوء مُبهـرًا فيعمى، لدرجة أنه لا يـرى... لا يرى الحقيقة ولا الواقع ولا المفروض ولا شيء...

وأحيانًا يـرى أن كل تلك الأحداث منـذ ١٢ فبراير ٢٠١١.. وحتى الآن شـحذت طبقـات ذهنـه، الذي أصبح كالشـفرة الحـادة تقطع الجرانيت وتصل إلى عيوبـه وجمالياته، أصبحت لديه خبرة ودفاعات، أصبح قادرًا على الرصْد والإدراك، انتقل بسلاسة أحيانًا وبخشونة أحيانًا أخـرى إلى الوضـوح والثبات والاتزان، لكنه كان يحـنّ، وكان يعود إلى الضيـاع والغموض والتفكك ليرتاح... كل خبراته وكل علاقاته، بطزاجتها وطراوتها وخشـونتها، كانت تدفع بـه إلى الأمام خطوتين... نعم أحيانًا كان يعـود إلى الخلف خطوة... وكثـيرًا ما كان يجري في المكان.. محلّك سرّ، هذا هـو واقعه الداخلي، يخرج منه ويدخل، ثم يخرج مرة أخرى

إلى واقعه الحقيقي، كما هو خارج تلك الغرفة وخارج هذا البيت، أصبح يواجه ويصدّ وينتقد ويعمل، ويعرف ويقدِر.

كان يكابد ذكورته وشهوته وأحاسيسه، لم يكن يدرك هل هؤلاء الثوار هم «الرجال الحقيقيون».. وهل هؤلاء العساكر هم العسس والبصّاصين، وهل هؤلاء الإخوان هم المسلمون؟...

همس أمين لنفسه وهو يتنفس في صوتٍ عال: (لا.. كلهم.. قيْد **الاختبار.. لا بدّ لهم كلهم، بلا استثناء أن يثبتوا رجولتهم خارج الإطار التقليدي، خارج إطار القتل بدم بارد، والاعتراف بأي وبكل هشاشة هائلة في عظامهم وصدورهم وعقولهم... تُرى هل كانوا في مستوى الحدث... هل زادوا أم نقصوا شرفًا أو عارًا، هل فُضحت عذريتهم على الأسفلت، أم أن جوهرهم أصبح سلبيًا فارغًا من المحتوى، هل سيتمكنون من التنازل عن المثل الأعلى المستحيل، عن الخوف والقلق وأسلحة الضعف والوهن، عن النهم إلى المثالية وعشق المدينة الفاضلة..**

هل يمكن أن يقلعوا عن ألعاب الأولاد والبنات.. أم أنها كرة الثلج، التي بدأت صغيرة هشّة، ثم جرفت في طريقها من حافة الجبل، كل السخافات المُمكنة، وكل أغصان الشجر الجافة والوساخات، لتصبح كرةً صلبة كبيرة ضخمة.. لو نزلت على رأس أحد لقتلته... باختصار عَبَر أمين خط التماس بين الواقع والخيال، وبين زمان والآن... غطّى نفسه بالغطاء واستسلم لنومٍ عميق.

يوم الوقفة ويوم العيد

صحى أمين يوم وقفة عرفات مبكرًا منتعشـًا، غســل وجهه وأســنانه وأكمل طقوس الصبــاح، توجه إلى النافذة وتنســم مــن خلالها نسيمًا عطرًا، سحب الستارة التُل البيضاء، شدّها جانبًا، فتح الشــباك، وضع إصبعيه في فمه وأطلق صفــارةً قوية، خرجت على إثرهــا ليلى تطل من شــباكها مهللة محييــةً بيدها اليمنى.. أشــار لها أمــين مُتســائِلًا عــن إمكانية النــزول والانطلاق؛ فهزّت رأســها بعلامة الإيجاب، شرب الشاي وأكل بعض المِنين واتجه صوب الباب، رأته سُــعاد هانم فصاحت:

- **رايح على فين يا أمين بدري كده؟**
- **أبدًا يا ماما نازلين وسط البلد.**

بانــت عــلى وجههــا علامــات الدهشــة

والانزعــاج، لكنها لم تعد تتمّكن من مراجعة أمين، صار مؤخرًا يفرض رأيــه، ويتحدث بلغة مُســتمدة من الشــارع والفيس بــوك وتوتير، خرجت نرجِس من غرفتها منكوشــة الشــعر، تدعــك عينيها بيديها وتقول في صوتٍ نائم:

- **استنى يا أمين خدني معاك.**

ورغم ترحيبــه إلاّ أنه كان يخشى تأخير البنــات المعتاد، غير أن نرجــس كانت قد تغــيّرت أيضًا، بدت عمليّة للغايــة، ارتدت قميصًا مناسبًا (بودي رياضي) وحذاء مرن وبنطلون جينز، بلعت في طريقها بعضًا من عصير البرتقال الطازج، وقطعتين من الكعك، وقفت سُــعاد هانم وسط الصالة تضرب كفًا على كف، جلست على كرسيها المفضل وأمســكت بأطــراف جريدتها اليوميــة المُفضّلة، بــدَت على وجهها علامات حُبٍ واعتزاز، كان زوجها المهندس ســامح مازال نائمًا، وخلال خــروج نرجس وأمــين من الباب، دخلت الســت نجيــة مباشرةً إلى المطبخ وهي تلقي الســلام ورحمة اللــه وبركاته، داعبت أمين وهي تشق طريقها قائلةً:

- **على فين يا سي أمين؟ لسه بدري!**

- **بدري من عمرك يا ست نجية رايح إخميم أدوّر على الكنز.**

ضحكت الســت نجية وضحكت سُعاد هانم التي قالت للست نجية:

- **شفتي يا نجية إزاي أمين اتغيّر.**

أطلت الست نجية من جانب باب المطبخ وقالت:

- **واللــه زي ما هــوّ، هوّ بس لمّع الخاتــم ودعَك مصباح علاء الدين وطلع المارد اللي جواه.**

ضحكت سُعاد هانم وألقت برأسها إلى الخلف قائلة:

- **انتــي دايمًا كده يا نجية تحبيّ تتكلمي بلغة الســحر والجن والعفاريت.**

- **يوه يا سُعاد هانم ما عفريت إلا بني آدم.**

تحت العمارة كانت ليلى يفترّ ثغرها عن ابتسامةٍ عريضة، كانت ترتدي تي شــيرت عليه صــورة چيڤارا، بنتاكــور أبيض وكوتشي أحمر دقيق لــه رباط أبيض، تركت قـُصَّتها على جبهتها، صافحت أمين كما يصافح الرجال بعضهم البعض في الزمن الجميل، كانت مصافحة أمين فيهــا قوة منضبطة تليق بيد بنت، وكانت يد ليلى قوية فيها صراحة الأنثى المُتحــضّرة الواثقة، ونعومة المرأة التي تفهم الرجل كما يجب أن يكون.

حَيّــت نرجس ليلى التي أخذتها في حضنها، وربَتت على ظهرها، ضمّتهــا مُرحبةً بها كرفيقة المكان والزمان، لم تســتغرب وجودها ولم تـُبــدِ أي تعليق على تلــك المفاجأة، فلقد تعــوّدت نرجس أن تغرّد خارج سرب الحيّ دائمًا، لها أصحابها ولها مزاجها ولها سهراتها، انشق

المكان عن زكي صاحب الكلاب، كان شــعر رأســه نافرًا ووجهه مليء بالنوم، وتحت عينيه ظلٌ خفيف يدل على قلة النوم، صاح في الجمع:

- **أنا جبت عربيتي... مين هييجي معايا؟**

لم يتفــق أحــد على موعد ولا اتجاه ســير ولا مكان وصول، نظر بعضهم إلى بعض، وفجأة ظهر اســحق من الشارع الخلفي، فضحكوا كلهم وصاحوا مُرحبين، اسحق ابن عم مينا جواهرجي الحيّ، الطالب في آخر سنة سياحة وفنادق، صاح زيكو:

- **أهلاااا إزيك يا عم نيوتن؟**

أشاح اسحق بوجهه وهو ينفث دخان سيجارته ضاحكًا في خبث، وردّ:

- **إصطبحنا وصبح الملك لله.. ابتدينا موال القافية والقلش.**

شدّه أمين من يده وقال:

- **إيه اللي مزّعلك بس يا اســحق.. بذمتك مش نيوتن أحســن من رابين؟**

ضحك الجميــع وضجّوا بالضحك إلاّ اســحق، الذي نفث دخان سيجارته في غضب جمّ وقال معترضًا.

- **صحيح! كله إلاّ دي... خلّيها نيوتن.**

توحد الجمع في ضحكةٍ جماعية ورددّوا في صوت واحد:

- **ماشي يا عم نيوتن.**

ظهـــر ماجـــد ابن عم أمين خارجًـــا من العـــمارة المقابلة لعمارة اســـحق، كان مازال في زيه الكاوبوي، تحسّـــس أزرار الـچيليه الفخم، وقال بصوته الجهوري:

- **صباح الخير يا جماعة، كل سنة وانتم طيبين.**

ردّوا في صوت واحد مختلف الطبقات:

- **وانت طيب يا ماجد.**

تأمل أمين المشـــهد، لا ارتباط ولا اتفاق، **(ياااااه يمكن كلمة على تويـــتر وأخرى عـــلى الفيس بوك)**، زحفوا زحفـًــا بطيئًا، مرّت عربات نصـــف نقل تحمل الخراف الحيّة، تطلُّ برؤوســـها على المارة وأخرى تحمل العجول.

ركب ماجد ونرجس واســـحق مع زكي في سيارته، بينما قرر أمين أن يصطحب ليلى إلى محطة مترو الأنفاق متجّهين إلى الميدان.

بعدمـــا دخل أمين وليلى إلى عربة مـــترو الأنفاق بقليل، نظر كل منهـــما إلى الآخر، وفجـــأة ضحكت ليلى ضحكةً عاليـــة، أثارت انتباه النسوة في عربة السيدات، نظر إليها أمين في دهشة متسائلًا:

- **إيه اللي بيضحّكك قوي كده.**

- **انت الرجل الوحيد على الأرض يا أمين..**

قالتهـا بـأداءٍ مسرحي كوميـدي؛ فنظر أمين حولـه وأدرك أنه الوحيد في عربة السـيدات، اللاتي كن قـد اعتدن على دخول الرجال إلى عرباتهن دون استئذان، واعتدْن كذلك على عدم الاعتراض وأحيانًا على الترحيب.

فتح أمين جريدته المطوية وقرأ:

- تقسـيط الخـروف في مصر والسـودان، والاسـتعاضة عنه بالدواجن في فلسطين.

ضجّت ليلى مرة أخرى بالضحك، وسط اندهاش النسوة والبنات في عربة مترو الأنفاق، لم يسـألها أمين عن سر ضحكها لكنها عاجلته بالإجابة.

- اشمعنى مصر والسودان وفلسطين اللي الخبر اختارهم دونًا عن الدول العربية كلها؟

ردّ أمين في هدوء:

- لا واشمعنى يعني فلسطين تكتفي بالدجاج؟ هما الإسرائيليين صادروا الخرفان واللا منعوا استيرادها؟!

ظلّ الشـد والجذب بين أمين وليلى مسـتمرًا لفترة طويلة، حتى خرجـا من تحـت الأرض إلى فوقهـا، كانت الريـاح خفيفة المعتدلة تلطـف الجوّ، وكانت الشـمس الرقيقة تدفئ النـاس وهم في حالة محدّدة.. هكذا كانوا دائمًـا قبل الأعياد والثورات وعند وفاة الزعماء

وبعد الزلازل.

ೞ ೞ ೞ

توجها إلى ناحية «المُجَّمع».. المبنى الحكومي الضخم، هناك على ناصية الشــارع كانت تنتظر ســيارة زيكو الصفراء الكالحة الـ ١٢٨.. حولها نرجس وماجد واســحق، جلس أمين بجــوار ليلى على مؤخرة الســيارة، بينما تحلـّق الآخرون حولهم، اتجــه نحوهم عبد الرحمن الشهير بـ بيدو.. بيدو كان ضخمًا مترهل الجسد ممتلئ، يضحك دائمًا في أواخر الجمل، حتى لو كانت حزينة، أو تحمل أنباءً غير سارة، وكان شــديد الشــبه بطفلٍ كبير، يهتزّ ثدياه دائمًا مع اهتزازات رأسه.. كان يدرس الطب البيطري في المملكة السعودية، ويعيش مع أبيه البخيل هنــاك، بيدو كان يحب مصر مــن وجهة نظره، يُحبهــا في الزيارات والأعياد والمناسبات، وقف بيدو أمام الشلة، وسحب نفسًا عميقًا من دخان سيجارته وأطلقه معفرًا الجو أمامه.. قال معتذرًا عن التأخير:

- معلــش يا جماعة.. قال إيه راكب عربيتي في أمان الله.. جِه ورايــا ونش وفيــه ظابط.. قمت أنا مخبي قــزازة الـ ID قاموا خدوا رخصي وشافوا القزازة، نزلت، إستلمني الظابط بقا وكان شكله متدين بالحق هو فيه ظابط متدين يا جماعة؟

ردّت نرجس:

- آه معظمهــم ملتزم قوي وبيأدّوا الفــروض، خصوصًا الصلاة في مواعيدها.. وماعندهمش مانع يعذبوا بني آدمين أبرياء ويتوضوا

ويصلوا.. كأن الدين متفضّل عليهم، يناسـبهم، أو كأنهم شايفين اللي بيعملوه صحّ... يعني وبعدين يا بيدو عملت إيه؟

بـدت على عبـد الرحمن أمـارات الفرحة لاهتـمام نرجس به؛ فضحك ضحكة أخرى طيّرت من فمه بعض رذاذ لعابه.. قال:

- أبدًا.. الظابط سـألني انت عارف أنـا وقّفتك ليه؟.. فقلتله لأ... يمكن شـفت قزازة الخمرة، قام قالّي لأ... ده عشـان انت حاطط نمر مزيفة مع النمـر الأصلية، حاطط يا أفندي يا محترم نمر مكتوب عليها (مصر٢٥ يناير)، أنـا حاولت أضحك معاه وقلتله دي ٢٥ يناير هيّا الأصلية.. والتانية اللي مركبّاها الحكومة هي المزيفة، حتى ارجع لحيثيـات قضية نظيف.. قام مزّعق لي وقـالي: وليك عين كمان تهزّر يـا خمورجي؟.. فأنا زعلت قوي وقلتله ده الـ ID فيها نسـبة خمرة بسـيطة.. ينفع كـده تطلق عليّا لقـب خمورجي وأنا شـايل قزازة مشروب أطفال !

هزّ اسحق بيدو من ذراعه اليمنى وسأله:

- إنما أنت ياد عايش في السـعودية طـول حياتك، مالك ومال أمّ الثورة؟

ضحك بيدو فاهتز ثدييه وجسمه ورأسه وقال:

- مـالي إزاي يعني؟ هيّا الثورة حِكر على اللي قاموا بيها؟ مش أنا مصري؟ وبعدين أنا كنت متضايق قوي وهانفجر من ظلم وفساد

مبارك.

صــاح زيكو وهو يداعب بيدو بغزّ إصبعه في بطنه، فرجع بيدو إلى الوراء مهتزًا:

- **إنما أخبار الكلاب في السعودية إيه يا لَه.**

- **معرفش أنا ليّه بسّ في المخدرات!**

صاحت ليلى بأعلى صوتها الهادئ النبرة:

- **يا جماعة كفاية كده متجرحوش نرجسية بيدو!**

نظر إليها أمين وقال:

- **يعني إيه نرجسية بيدو يا ليلى؟**

- **يعني حبُّه لنفسه واعتزازه بيها.**

ردّ بيدو مفاجئـًا متفاجئـًا:

- **بس أنا ما بحبش نفسي ولا باعتز بيها.. الغربة في السعودية موّتت كل شيء.**

ردّت ليلى بمصمصة شفاه:

- **ما أفتكرش! دانت جواك هــوس بمصر.. وبصراحة أنا باعتبر الآية الكريمة «لا يغيّر الله ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم».. اسمى حكم الإسلام.**

ضحك بيــدو فاهتزّ كله كما حدث من قبل، مرات ومرات، نظر في عيني نرجس وقال:

- **تفتكري يا نرجس أنا ممكن أتغيّر؟**

احمرّ وجه نرجس، على غير عادتها، وقالت:

- **أعتقد كده... جواك... حلو قوي.**

قال أمين:

- **شــفتوا الراجل اللي بينادي على الناس يوم الوقفة، بيقولّهم يروحوا الملاهي يوم العيد في ســاحة الأزهر، عشان يتفرّجوا على أُمّنا الغولة وأولادها السبعة.**

ضحكت ليلى نفس الضحكة الهيستيرية العالية وقالت:

- **مش ممكن... مش ممكن يا أمين.. (أمّنا)؟ انت بتقول عليها أمّنا... ماشي الغولة.. ماشي... لكن ولادها الســبعة لأ.. مينفعش لأنها عاقر.**

رد زيكو وهو يلهو بموبايله مستعرضًا صور كلاب حديثة اقتناها:

- **ممكن تبقى أمّنا الغولة عاقر، لكنها جابتنا إزاي، إزاي بنقول عليهــا (أمّنــا).. وبعدين ما هي الثورة قامت على شــكل افتراضي في الأول، يبقــى نفــترض إن أمنا الغولة دي ولاّدة، وإن ولادها الســبعة دول افتراضيين.**

هبّ اسحق غاضبًا وقال:

- لأ مانفترضــش.. مــن النهــارده مانفترضش حاجــة خالص، مينفعش الثورة تبقى نص ثورة ولا ثورة بين قوسين، السؤال دلوقتي: هــل مصر حِبلت بالثورة؟ لأ ماحِبلتش.. اتلْقحــت بيها بس.. هل بان عليهــا وَحَم؟ ماشي!.. بطنهــا اتنفخت؟ ماشي! لكــن هل فيها جنين بيتحرك؟.. لأ.. سِــمعناه ولا شُفناه بيتحرك؟ لأ.. عملناله سونار؟.. لأ.. اتولــد... ولا كان له معاد ولادة؟ لأ.. كله افــتراض.. في افتراض.. مش مُمكن يا جماعة يكون حمل كاذب!

صاحت نرجس متأففة:

- فال الله ولا فالك، متشــائم مزعج.. يااااه... سلبي.... إيه يا أخي ده.. ماعندكش أي إدراك ضمني؟ مش شايف حاجة مشتركة بين الناس؟ مش شايفنا بنتواصل عفويًا إزاي؟ فيه إيه يا أخي؟ فيه إيه؟

ضحك بيدو ضحكته الشهيرة وقال:

- حتــى وأنا في الســعودية، ولمــا جيت مصر، قبــل وبعد ما أقابلكم.. حسّيت بمكاسب على الأرض، ودي حاجة لازم ندافع عنها.

ردّت ليلى وهي تحاول إضفاء الجدّ على المزاح، قالت:

- بيدو.. «بريل» ســائل غســيل نمرة واحــد في مصر، بيحقق أحلام كل ستات مصر!

انزعج بيدو، أحس أن ثمة سـخرية منه ومن حديثه، توقف عن الضحك وقال:

- **فيه ناس مش فاهمة، ناس اتمنت إنها تفضل زي ما هيّا لحدّ ما تموت، وتصرخ وتقول ما لكُمش دعوة بيّا، أنا مش من الناس اللي عايشة متلصمة، وهتموت متلصمة.**

قام ماجد واقفـًا، عدل من هيئته الكاوبوي، متأملًا الآباء والأبناء ووراءهم الزوجات، يمسـكن بيد البنات يسرن حول محلات الملابس، يتمنّين من مطالعة الفاترينـات وأحيانًا يدخلن ويخرجن بقليل من الأكياس، قال ماجد:

- رغم ثورتكم دي، الناس لسّه فيها عايشة زي ما كانت عايشة.

ه ه ه

كان الرفاق في سـيرهم قد عرَجوا على أحد الشوارع الجانبية في اتجاههم إلى قهوة البورصة، مرّ أمامهم الناس والعجلات والسـيارات والخراف، ولما وصلوا إلى القهوة كان إدريس جالسًا على مقعد وأمامه رجلٌ يلبس كابًا يظهر من تحته على الجانبين شـعره الفضّي، استأذنوا في الجلـوس، رحّب إدريس بهـم وعرّفهم على أحمد المحلاوي كاتب ومؤرخ، كان يـأكل قطعة لحم غير كاملة الطهي، قطـَعها بالسـكين المـشرشرة؛ فبان بعـض الدم من أنسـجتها.. التهمهـا، وبلع وراءها رشفتين من كوب بيرة مشبّرة، استمر في حديث كان بدأه مع إدريس:

- المفروض أن الكبش بيفدي سيدنا إسماعيل.

همهم الجمع:

- آه طبعًا.

ردّ السيد المحلاّوي وهو يبلع اللحم المُشرَّب بالجُعَة:

- ده حصل زمان.. ومن هنا كانت الأضحية، جه عيد الأضحى، واللّي بيحصل دلوقتي مُختلف، الإنسان هو اللي بيفدي الكبش، خدوا مثلًا صدام حسين.. اتذْبَح في عيد الأضحى في ٢٠٠٣.. وأمريكا والجماعة الشيعة رتّبوا لده قَصْد وعمْد.. مات صدام وسقطت بغداد وفضْلت الكباش.

صاح إدريس معترضًا:

- ما نعممش لو سَمَحت..

- لأ مفيش تعميم.. بُصْ على الواقع المصري، هتلاقي إن الثوار فَدوا مبارك، وبعدين فدوا الإخوان، يعني اللي اتدبَح في مصر الثورة همّا الثوار. وهمّا اللي طلعوا من المولد ده بلا حمّص، صَحّ؟

علا الوجوم والدهشة وجوه الجالسين وبعض من التقطوا أطراف الحديث من الترابيزات المجاورة.

نظر المحلاوي إلى ليلى نظرة اخترقت قفَصها الصدري، سكنت أحشاءها، ارتبكت ليلى، انتفضت واقفة ملوحةً بيدها اليمنى في

الهواء، معدّلة من وضع وشاحها الفلسطيني المُرقط بالأبيض والأسود على عنقها وصدرها، صرخت في وجهه:

- **المشـــكلة مـــش في الكبش والفـــدا، واللا مـــين بيفْدي مين؟ المشكلة في التضحية المُرعبة، الثورية مش معناها إنك تعرّض صدرك للرصاص من غير حذر.... المشكلة في النَهم.**

هزّ أمين رأســـه موافقًا، تأمل إدريس ليلى في حذر وتصميم على أن يقود الحديث إلى منتهاه، قال إدريس بكلمات مضغوطة، وجملٍ محكمة النهايات:

- **النهم... إمم...**

قاطعته ليلى مصممة على إكمال حديثها إلى المحلاوي:

- **بُص، بقك مفتوح على آخره إزاي؟ ياكل جوّاه ســـبع، شـــوف نظرتك للست عاملة إزايّ، فيها نهم الجعان، عايز تقطم من كل بطة وِرك، ومن كل فرخة صدر، كلامك حلو ومتنقّي، بتصطاد بيه نســـوان ودبّان وسمك ميت بالديناميت في بركة ميّه وسْخة..**

مضغ السيد المحلاوي آخر قطعة لحم نصف مطهية نصف نيّئة، بلـــع ريقه، وبانت اللحمة في طريقها إلى معدته عبر رقبته المُتســـخة بالـــتراب والعرق، أكمل حديثه وطعامه، أشـــعل البايب، أطلق دخانًا كثيفـــًا في الهواء قبل أن يلتهم قطعـــة اللحم الأخيرة ويبلعها بالبيرة، ضحك منتشـــيًا، رجع إلى الخلف بكرسيه، اهتزّ جسده قليلًا، تجشّأ،

نظف أسنانه من نتف اللحم الممتزجة بالبيرة واللعاب، لم يراع الأدب في إدخال الخلّة بين أسنانه لتسليكها، وكأنه يقصد أن يكون مُقززًا، وكأن فظاظته تلك كانت جزءًا مكملًا لعنجهيته ونذالته وابتذاله، كمثقف مقهى من الطراز الأول.

جلسَت ليلى وهي منفعلة، نظر أمين إليها، بادرته ليلى النظرة، عاود أمين النظر إلى المحلاوي في محاولة لاكتشافه غير أنه لم يصل إلى شيء، غمز ماجد لأمين في مداعبة للتخفيف من وقع اللحظة، غمز له أمين مبتسمًا، ربت إدريس على كتف أمين وقال:

- شُفت ليلى قالت إيه، النهَم... النهم للسلطة وصلنا للثورة، ونهم إنك تكون ثوري مثالي في يوتوبيا الـ١٨ يوم، خلىّ ناس تتحول إلى قديسين، ثوار أبرار أطهار، من غير خبرة.. من غير خُبث ولا لفّ ولا دوران.

مضغ المحلاوي الفراغ، مُحركًا فمه ولسانه داخل تجاويفه دون طعام، وكأنه يجترّ وجبته، قال وهو ينفث دخان البايب في استرخاء تام وبعينين طالهما النعاس والكسَل، قال:

- صحْ هو النهَم، نهم التصريحّات، وإدمان الظهور في التليفزيون، نهم جمع المال، نهم الكيف والرغبة اللي مالهاش حدّ في المثالية، في التفوق، في انك تبقى الأول واللوكس والسوبر والبريمو، ابن كل الناس لازم يطلع الأول ويجيب فوق الـ١٠٢ في الميه، شفتوا بلد في العالم الطلبة فيها بيجيبوا فوق الـ١٠٠٪ وبعدين يخُشوا

الجامعة، وبعدين منهم اللي يسقط ويترفد ويجيب ملحق.. ويتعالج من اضطرابات نفسية؟

ضحك أمين ملوحـًا بالجريدة قائلًا:

- حلوة قوي حكاية النهم والمثالية دي، المجلس الأعلى بان للناس كلها بعد الثورة مثالي، وبعدين بقى يشحت حب الناس واعترافهم.. شفتوا (صورة الجندي المُجنَدّ اللي شايل عيّل ماكملش سنة، الصورة دي اتلقطت أيام الثورة، وفِضلت في الدرج عند اللوا بتاع الشئون المعنوية، كَبَّرها ووزّعها بدل صور مبارك في كل حتة فيكي يا مصر.. كتب تحتيها (الشعب والجيش إيد واحدة)، لكن الصورة معناها إيه.. معناها إن إنت يا شعب عيّل وانا شايلك من على الأرض، إنت قاصِر، وأنا مسئول عنك، الولاد على الفيس بوك اتريقوا عليها وخلّوا الرضيع يقول للمُجنّد: هو انا برضه اللي عيّل، هو انا برضه اللي باكدب، هو انا برضه اللي بارجع في كلامي؟

قالت ليلى مُكمِّلة:

- بعيد عن المجلس والسياسة، عن الثورة والثوار، بص شوف الناس بتاكل إزاي، بتذاكر إزايّ، بتعتِقد في إيذاء السحر والجن وبتدمن على الدجالين إزاي، نهَم تعليمي مزيف، وكمّية دروس خصوصي مُقرفة، ونسبة أمراض عضوية ونفسية تسدّ عين الشمس.

نفَث المحلاوي دخان البايب، فتتبع أمين سحابات الدخان بعينيه حتى طار دبور وزنّ، قطع الدبّور سحابة الدخان من مُنتصفها..

شقّها، دار ولفّ ولسع المحلاوي في أذنه اليمنى.

انطلقت ليلى وأمين وإدريس في ضحكة جماعية عالية مُختلفة النبرة والطبقات، تلتها أنفاس ارتياح وصرخة المحلاوي، الملدوغ، وهو لم يهضم لخْمته بعد، قاموا كلهم ما عدا ماجد الذي فضّل البقاء، اتجهوا ناحية محطة مترو الأنفاق، فتح أمين جريدته المطوية وقرأ بصوتٍ عال:

- العشوائيات في مصر، أكثر بؤسًا من عشوائيات الهند والبنجلاديش.

هزّت ليلى رأسها، نظرت إلى نرجس التي هزّت ذراع أخيها بخبطة خفيفة وقالت:

- هو أنت يا أمين هتفضل تقرالنا الجرايد كده؟

ضحك أمين وقال:

- آه... شوفوا الخبر ده كمان.. جمعة هادئة في (التحرير)... مُتظاهر وحيد ضد المحاكمات العسكرية.

صرخ اسحق في صوتٍ جمع بين الشحن والغضب:

- شفتوا التطور الطبيعي للحاجة الساقعة أدّي لإيه ! متظاهر وحيد بس ده برضه فيه دلالة.. دلالة إن حكاية الملايين والجموع دي مش مهمة قوي، المُهم إن فيه نفس وفيه روح وفيه اعتراض، فيه بني

آدم واحـــد قرّر شيء وعمله، بصرف النظــر عن الباقي مين أو بيفكّر في إيه.

كانــت ليلى ونرجس قررتــا الرحيل فلقد بدا الليــل مقتربًا من منتصفه.

ꕥ ꕥ ꕥ

وصّل الأولاد البنات وقرروا العودة إلى شوارع وسط البلد فرحين بتجمعهم، قــرر زكي تحويل دفــة الحديث إلى موضوعــه المفضّل.. الكلاب، تحلـّق الجمع حوله وهو يستعرض صورًا على موبايله وشرح:

-   دي مجموعــة صور نــادرة لكلاب الماســتيف.. الأولاني من نابــولي لــه وش ضخم كده وبق مدلــدل كبير زي ماإنتوا شــايفين.. ولســان يبلع بلد، التاني الإنجليزي فيه تحدي وترقب وحذر، أما اللي بييجي من هضبة التبت؛ فشــعره منكوش شــبه الأسد، والفرنساوي فيه رقي ورومانسية.

صاح بيدو:

-   يا عم زيكو انت عندك نهم بالكلاب.. بس كلابك دي غريبة شوية شبه ناس كتير أعرفها.

ضحك بيدو ضحكته الشــهيرة عند نهاية الجُمل، طار منه بعض رذاذ اللعاب مما أدى إلى ابتعاد أفراد الشــلة قليلًا عنه؛ فاعتقد بيدو أنهــم لا يحبونه، صمت عن الكلام ونظر إلى أمين الذي طمأنه بنظرة

حانية ثم قال:

- **يا بيدو متقلقش... عادي بقا الكلاب والناس، والناس والكلاب واللص والكلاب، أنا شـخصيًا ليّا تجربة مش حلوة مع الكلاب، وأهوه عدّيت المرحلة دي وآدي الدنيا ماشية، ماشي يا بيدو؟**

تململ إدريس في مشـيته، كانوا كشـلّة قطعوا الطرق والشوارع التي كان يملؤها البارود والدخان، نظر إدريس إلى الجرافيتي المرسوم والمكتوب أمامه:

«نَفَـسَك خروج ودخول
عنُّه انت مش مَسْئول
إوعاك ياخدَك غرورك
تهندِس المجهول»

كانت الشلّة اجتمعت حول إدريس وهو يتلو كلمات الجرافيتي كأنه يقرأ شعرًا.. شدّ اسحق زكي خاطفًا الموبايل من يده وقال:

- **هو المجهول ممكن يتهندِس؟**

ارتبـك زكي وأصرّ عـلى أخـذ الموبايل من يد اسـحق.. ردّ عليه بسرعة:

- **هو إيه المجهول؟ ويعني إيه يتهندس؟**

ردّ أمين وهو يحكُّ فروة رأسه:

- المجهول هو بكرة.. هــو اللحظة الجايه.. هو اللي هيتعاش، خِبرة مــش ممكن نقعد نحددّها ونرســمها.. نظريــة المجهول مش عكس المعلوم، المعلوم خطـَر لأن جوّاه مجهول.

ضحــك بيدو ضحكته المعهودة؛ فاهتز ثديــاه اهتزازات متتالية وقال:

- يا ماشــاء الله! هي خــلاص كلها بقت فلاســفة؟.. والله انا مــا فاهم منكم حاجة.. بيتهيألي كده كل ما بنفلســف الأمور كل ما بنفشــل، الثورة بالنسبة لي وأنا عايش في السعودية، غير وأنا في مصر، غير وأنا معاكم دلوقتي، ما تحبســوهاش في صندوق، متعملوش زي مــا أنا عملت.. أنا اختصرت الثورة في نمر عربية مكتوب عليها (مصر ٢٥ ينايــر).. أعلّقها على عربيتي وأبقــى أنا كده ثوري.. أو مُتعاطف مع الثوار.. بيتهيألي كده.

ربَت أمين على ظهر بيدو مُستحســنًا كلماته، أبطأ من خطواته وقال:

- الفــرق بين انقلاب يوليو وثورة ينايــر.. انه اتقال عليه ثورة عشــان عمل تغيير اجتماعي جــذري، لكن ثورة يناير ثورة شــعبية ركــب عليها المجلس الأعلى، الثورة معناهــا إن احنا كلنا نتغير، مش نستنى التغيير ببيان أو بإعلان دستوري، لأ.. جدّي الله يرحمه فهمّني وشرحلي كل حاجة.

كانوا وصلوا إلى قرب مسـجد السـيدة زينـب، لم يتثاءب منهم أحد، ولم يراودهم النوم، دخلوا المسـجد وتوضؤا، انتظرهم اسحق في الخارج، صلوا الفجر، كان الجو فيه لسـعة برد، وكان خشوع الصلاة يضفـي روحانية جميلة، اغرورقت عينا أمـين، كان إدريس في تأمله منهمكًا، سأله أمين على حين غرة:

- **يا ترى إيه اللي محيّرك يا إدريس؟**

مسح إدريس بكفيه على وجهه وقال:

- **بعض رجال الدين بيتكلموا بلسان القوة الدينية في المجتمع، في الشارع.. في الميدان.. في التلفزيون.. في القضا.. في البيت، في الحيّ.. جـوّه الأسرة، في المدرسـة أحيانـًا.. عندهم القدرة عـلى التزييف، وساعات يسببولك شـعور بالذنب اللي هو الابن الشرعي للاكتئاب.. عرفـت بقى يا أمين ليه معظم النـاس باين عليهم الاكتئاب والضيق والقرف.**

خرجوا من المسجد وساروا سويًا، يتأملون قاهرة المُعز قرب صلاة العيد، إحساس، مميز، أن تكون فيه في الشارع في السيدة زينب قبل صلاة العيد، سـن الجزارون سـكاكينهم، ماءت الخراف، وأنبلج ضوء الشـمس رويدًا رويدًا، وبدأت صلاة العيد في المسـاجد وفي الخلاء في أكثر من مائة سـاحة بالقاهرة الكبرى، خطب الشـيخ مؤكدًا على أن عيـد الأضحى هو أشرف العيدين، لأنـه يتعلق بالحج، والحج أفضل

من الصيام، يسبقه عيد هو يوم عرفات، ويتلوه عيد هو أيام التشريق الثلاثة، يسن فيه إظهار البهجة والفرحة والتوسعة على الفقراء وصلة الأرحام والتغاضي عـن الهفوات وتعظيم الحرمات، الحذر من البدع والضلالات والمعاصي، التذكير بتقـوى الله في السرّ والعلن، والغضب والرضا.

بـدأت الخطبـة بالحمـد، وأكثر الإمام مـن التكبـير في ثناياها وتضاعيفها، دعا للمسلمين خاصة المستضعفين، دوّى الصوت المُضخّم للجموع، تضاعفه مكبّرات الصـوت، وكأنه هدير جارف.. «الله أكبر، اللـه أكبر ولله الحمد».. **«الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً وسـبحان الله بكرة وأصيلا».**

كان جسـد أمـين يرتعش وترتعش يداه وهو يرفعهما للسـماء، دمَعـت عيناه، واهتزّ كيانه، وأحـسّ بصوت الجموع يدخل إلى ثنايا مخـه، وإلى عقله الباطن، لاحت له بعض الكلمات أمام عينيه وكأنها نـورٌ يضيئ (**إنك لسـت مجرد صدفة، إنك لسـت مجرد عنصر، لقد خلقـك الله لتكون منفردًا.. لن ينوب عنك أحد في مهمتك كإنسـان، وبدونك لن يعمل شيء فيك**).. عاد التكبير يدخل من صيواني الأذنين (**لا إله إلاّ الله.. صدق وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحـده، لا إله إلاّ الله ولا نعبد إلاّ إيـاه، مخلصين له الدين..**).. اهتز جسـد أمين مـرة أخرى واسـتعاد قول الشـاعر (**فليلسـعك الجمر ولتستمسـك بالقول الرصين**)، ولما تمّـت الصلاة انحنى أمين على أذن إدريس وقال:

- حلمــت بالأمس بمطــاردة فيها ضرب نــار، صحيت ضهري واجعني، لحدّ دلوقتي واجعني من ضرب النار.. وكإن الحلم حقيقة، وكإن الطلقة صحّتني بجد، وكإني ماشي ضهري مخروم.. مافيهوش أي أثر لطلقة ولا لضرب نار.. وآديني ماشي قدامك أهوه...

ضحك إدريس وقال مداعبًا:

- هو انت هتلاعبني لعبة الأحلام زي ما أنا لاعبتك والاّ إيه؟

ضحك أمين وقال:

- لأ بــس أنا لاحظت اهتمام الإمام بــضرورة الزينات وإظهار الفرحة!

ردّ إدريس بسرعة:

- دي ليهــا أصــل تاريخي من أيــام إبراهيم باشــا، بس احنا إزاي نعيّــد.. واحنــا مش لاقيين مفقــودي الثورة؟ الــولاد تاهوا بين المستشفيات، وتلاجات الموتى، والسجون الحربية.

تفرقت الشلّة، ولم يبق ســوى أمين وإدريس يجوبان الشوارع، وســط التكبيرات ورائحــة الدم والجلد والأحشــاء، ومنــاداة رجال الإسعاف، وآخرون ممن يشترون جلود الخراف.

هز أمين إدريس من كتفه وسأله:

- إنت ماروحتش قنا السنة دي ليه يا إدريس؟ ضحيت فين؟

قهقه إدريس عاليًا، حتى كاد يستلقى على قفاه، نظر إلى أمين في عينيه ووجهه متهلل للغاية:

- أنا اتبرعت بكارت الـڤيزا لهيئة الـ IHH

- إيه دي؟

- دي هيئة الإغاثة والمساعدات الإنسانية.. السنة دي الأضاحي هاتوصل لمنطقة كامشـاتكا، أول نقطة شروق للشـمس، وأول مكان يتأذّن فيه لصلاة الفجر!

انطلق أمين في سلسـلة ضحكات متتالية، يـضرب مرة كفًا على كفّ، ومرةً أخري يخبط على ظهر إدريس في عصبية مجنونة قائلًا:

- والنبي انت يا إدريس.. واشمعنى؟

- ولا اشـمعنى ولا اشـمعناش.. دي من أغرب مناطق العالم.. بيسـمّوها بلاد «النـار والجليد».. فيها ٤٠ بركان و٢٠ ألف مسـلم.. شتاها وعواصفها بتفضل ٨ شهور.

- مادام إنـت فلتّة كده، وكمان مـدرس تاريخ.. إحكيلي بقى حكاية إبراهيم باشا.

وضع إدريس كلتا يديه على رأسـه، واسـتغرق في تفكيرٍ عميق، أخذ نفسًا عميقًا، ثم رفع رأسه إلى وجه أمين وقال متنهدًا:

- يـاااااه... الجبرتي المؤرخ المصري أحسـن واحـد اتكلم عن

انتصار إبراهيم باشـا على الوهّابية.. لمـا ده حصَل.. نادوا بالزينة في المدينة سـبع أيام، عملـوا حاجات كتيرة منها رمـي المدافع، ودايرة واسـعة حواليها ألوف المشـاعل ملعلعة بالنار، الكلام ده حصل سنة ١٨١٨.. لمـا دخل إبراهيم باشـا الحجاز، ماكانش فيه حاجة اسـمها السعودية.

استرسل إدريس مكملًا:

- **المهـم إن «الحاكم».. اللي هو «اللاعب».. أو «المُخرج».. هو الـلي مشّى اللعبة، كان قصده من احتفـال عيد الأضحى ده بالذات، إنه يستلف.. يستعير صورة الدولة كقوة ماتتغلبش: مهرجان، أضواء، نيران، ألوان.. وأصوات.**

صاح أمين:

- **يـااااه كل ده... عمومًا أنا حاسـس إن أنا تعبان قوي عاوز أروّح...**

راح كلٌّ منهـما في اتجـاه، كان أمين يركب المترو مرة ويسـتقل التاكسي مرة، يعبر ميدان رمسـيس، ويرى الناس في زينتهم وبهائهم، يراهم وهم يخرجون من محطة مصر ينتشرون في أرجاء المحروسـة، رجال بكل الأشكال والأزياء يصطحبون نساءهم وأطفالهم..

انسـحب في هدوء وصـار في ميدان العباسـية، كانـت الدماء

المُختلطة بالمياه تسـيل في الشـوارع، تملأ رائحتها الأنوف، صار الدمُ ماءً، وصـارت المياه مُدَمَمّة وانتشرت رائحتهـا، الزفرة، في كل مكان، تخضبّت الأرض بألوانٍ آسنةٍ غريبة.

ما أن وصل أمين ناحية بيته حتى أخذت شـمس الصباح تصبغ أعالي العـمارات بلونها البرتقالي الخفيف، سـمع أمين صوت التكبير مختلطًا بصوت يغني:

« عملناكم سمنتين بيضا وصفرا
مصر كلها غيرت لـ «سلسال»
مصر اختارت «سلسال»

همهم أمين:

- **نعم لقد اختارت مصر «سلسـال».. وعليها أن تتحمل عبء ومسئولية اختيارها.**

جاء التكبير والدعاء عبر أجهزة الراديو والتليفزيون:

«... وهزم الأحزاب وحده الله أكبر ولله الحمد»..

عاد أمين إلى بيتـه منهكًا مُتعبًا مُرهقًا مُندفعًا إلى فراشـه، نام بملابسه كما هو، وسـمع صوت الصفارة تنطلق من الجهات الأربع.، ثـم جاء صوت أم كلثوم يغني «**وقـف الخلق ينظرون.. كيف.. ابني**

قواعد المجد وحدي»... ضحك أمين في هيستيرية وصاح بأعلى صوته:
«لوحدِك برضه يا روح أمك».

المُتّكَأ الأخير

انطلقت الصُفّارة، ارتفع أساس العمارة.. لكنها ظلّت على المحارة بدون سكان أو جدران أو أثاث، ارتفعت الأصوات حولها (روبابيكيا).. في نداء ساخر عالٍ (بيييييكيا) يتلوه صوت أولاد الديلفري على موتوسيكلاتهم الخاصة وخوذاتهم المُميزة، زيّهم الذي يجمع ما بين الرياضي والعسكري، يأتون كالسهام المصوّبة من كل حدَبٍ وصوب، يرشقون داخل البنايات ويطلعون أدوارها المختلفة، قارعين أبوابها وأجراسَها، حاملين أطعمة المصريين الجديدة والسريعة، الأمريكاني والطلياني والشرقي والصيني، أصوات نباح كلاب معسكر حرس الرئاسة المُتداخلة المُتزاحمة.. صفير الريح المعفـّرة العاتية الباردة، أزيز الطائرة التي أنهى بها المُغنى الأسمر أغنيته الوطنية الأشهر عن الثورة، صوت حركة المروحيات وهي تعلو

وتهبط تحمل الكهل المُتهم إلى مخدعه الطبي الوثير، صوت السيارات المارقة بسرعة، وصوت ارتطامها بأجســاد البشر وهم يتفادون عبور الشارع الطويل من النفق، ليلتقوا الموت واقفون.

حفيف الشجر، ورفيف الفراشات وتغريد البلابل.

صوت عصفور يشقشق مختبرًا وجوده في سماء القاهرة المتغيرة، صــوت أجنحة الحــداءات الجارحة الخاطفة كتاكيت الســت نجية وزينب وصباح وأم الخــير وعواطف، صوت دقّ الأحذية على الأرض في قوة، خبْط خف الجمل وحوافر البغل والحصان، كرباج العربجي، هديــر هتاف الألتراس والجموع المنظمة، صفير الرخام الكسْر، طوب الأسفلت وشــظايا الأرصفة، تشق صدر الهواء المعبأ بالغاز والدخان، الأنين.. الخرطوش منفجرًا مســتقرًا في العيون والأجســاد، نور العين وهــو ينطفئ، الجرح وهــو يُفتح لينغلق، صوت الــدَم المُنبثق على الأرض، القذائــف وهي تنطلق في الهواء، القعقعة المكتومة للســلاح الأبيض.. داخل صدر أو بطن أو ظهر.

شــهادة **(لا إله إلاّ الله)**.. ترانيم الرب لمن ودّع الدنيا مبتســمًا، قــراءة الفاتحة..الجموع الواقفة تصلي وتدعــو **(آمين)**، المجموعات الأخرى تنهي صلاتها المســيحية **(آمين)**، وأمين يســمع اســمه بألف صوت وصوت، وكأن الصوت صدى لمليون صوت، كأنه البناء للعِمارة.. التشييد، صوتٌ خرساني دفين، دخل في كل خلاياه وسكنها.

آمين.. آمين... آمين.. آمين

أمـين كالناهض من النوم، والآخرون مازالوا يغطـّون في سُـبات عميق.

روحه تصارع جسده، مُستلهمًا الصوت، كل صوتٍ.. وأي صوت، ليتغلـب على الفكرة الزنّانة الرنّانة الدائرة كالنحلة، ليقاوم التفاصيل وينهمك في كُنه إدراك وجوده، كان كأنه ينظر إلى داخله من سـحْبة عينيه، وكأنه يعلقهما إلى الخلف ليرى نفسه من جوّه، ليتأمل تفاصيل توليفتُه الفريدة، تلك ما بين الحقيقة ومعناها.. مغزاها ورؤاها، تلك التي لها ألف باب وألف تأويل وألف احتمال.

نظر أمين خارج النافذة، أزاح السـتارة التُّل البيضاء، صَدّ نسـيم العصاري، تسـاءل بينه وبين نفسـه (**هل هناك أمل في الحياة بشكل أفضل؟..**

هل ستظل الثورة كما بدأت في ذاكرة الناس الجماعية، تكوّن ولو جزءًا يسيرًا من رؤاهم وفعلهم اليومي وسلوكهم الحياتي؟.

حـين تسـتنزفنا الحياة كما فعلـت منذ أن ظهـر الجنرال المهم ووراءه الرجل الآخر.. خطّ ذلك الحدث تاريخًا جديدًا عبرنا به رحاب متسـعة.. إذن لابد من إعادة برمجتنا، لا يمكن أن تكون قوى الناس الجبارة محزومة في أقطاب هنا وهناك.

صاح أمين لنفسـه: **ما تحملـه ثنايا جُمجمتـك لم تعد ذاكرتك المألوفة، عاصرت وعشـت الصمـت والعنف والضعف والاسـتكانة والشقاوة.**

لم ترتبــط بأحــد.. هناك ظهرت الأنا الثانية لــك، جلية من وراء رأسك، تضمّك إليها.. لا تحتاج إلى سذاجة ولا إلى براءة ولا إلى حُسن نية.. أبدًا.

تمت

شُكر واجِب

للأساتذة:

أ. محمد إدريس نافع السنوسي

د. تامر لقمان، أ. دينا عبد العظيم

د. عبد الله عسكر، أ. عبد العزيز فتحي،

أ. سامى كمال الدين

د. آمال كمال، أ. عبد العزيز بدر

أ. محمد يحيى، أ. منار عمران

لمراجعتهم النقدية وإضافاتهم الثمينة

الفهرست

إهداء 7

توطئـِة .. أوراق أمين الخاصة 9

الدَبّور 13

السِتْ نَجَيّة 25

سُعاد هَانِم. 35

الصُفَّارَة 43

ليْلى 55

ليْلى وأمين 77

النباح 87

فين الدبابة؟ 95

إدْريسْ. 105

تَمهيدْ لقَعدِة الشطَرنَج 119

قعْدة الشطرنْج 129

يوم وليلة عند الجَدّ 143
الرَجُل العَارِي. 155
على ظَهر الموتوسيكل 167
الأخّ فارِسْ 181
نَرْجِس ... الأخت 197
كَتبْ الكِتَابْ 209
رَحَيِلْ العَزِيز 233
التداعيات 241
يوم الوقفة ويوم العيد. 251
المُتَّكَأ الأخير. 279
شكر خاص 283

أعمال أدبية أخرى للمؤلف:

١. الطير يهاجر إلى كون سرمدي، قصص قصيرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ـ ١٩٨٦

٢. البنت والنورس، قصص قصيرة، القاهرة، إصدار خاص،١٩٩١

٣. شادي عبد الموجود، قصص قصيرة، دار ميريت، ٢٠٠٧ ـ القاهرة.

للتواصل مع المؤلف، الدكتور خليل فاضل

٧ عمارات العبور، صلاح سالم، مصر الجديدة،
القاهرة ١١٣٧١

www.drfadel.net
kmfadel@gmail.com

Facebook:

http://www.facebook.com/groups/searchunit

YouTube:

http://www.youtube.com/user/DrKhalilFadel?ob=5

هذه هي أوراق أمين الخاصة جدًا..

ذكرياته مع مصر والناس بعدما صحى من نومه في السبت ١٢ فبراير٢٠١١، رزمٌ من الذكريات،تتكوم وتتحلق حول "أمين"، "الصـوت".. "الصفارة".. دمدمة الرصاصة.. هدير الخرطوش.. دويّ القنابل المُسيلة للدموع، وأزيز الطائرة.

أمين لن ينتهي من حـدّوتته مع انتهاء الـرواية، فهو مازال يعيشها مع جموع المصريين، يدخل بها مكتب النائب العام، وينام معها في شارع محمد محمود، تداعياتٌ حرة طليقة، مبهمة أحيانًا، وصريحـة أخرى، كأنها القـذف من أطراف الدائرة في حركة مُتعرّجة، أو في خطٍ مستقيم، ما بين هذا وذاك ألف تقاطع بالطـول والعـرض، بالميـل وبالضغـط، بالتلامس والانكفاء والانهزام والـذلة والهتاف.. بالحسرة والفرحة..

تبدو ثغرات إدراك أمين، في تفاقم الحدث وإضرابه وغليانه.. هي لحن، في عقلنا وجنوننا، وفي حيرتنا ولوعتنا!

حين تستنزفنا الحياة كما فعلت، منذ أن ظهر الجنرال المُهَم..خطّ ذلك الحدث تاريخًا جديـدًا عبرنا به رحاب متسعـة.. إذن لابدّ من إعـادة برمجتنا، لا يمكن أن تكون قوى الناس الجبارة محزومة في أقطاب هنا وهناك.

صاح أمين لنفسه، ما تحمله ثنايا جُمجمتك لم يعُد ذاكرتك المـألوفة، عاصرت وعشت الصمت والعنف والضعف والاستكانة والشقاوة.. هناك ظهـرت الأنا الثانية لك، جليـة من وراء رأسك، تضمـك إليها.. لا تحتاج إلى سذاجة ولا إلى براءة ولا إلى حُسن نية.. أبدًا.

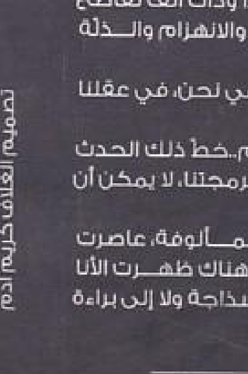

الدكتور خليل فاضل، كاتب وباحـث، طبيب نفسي يعالج بالتحليل النفسي والسيكودراما. ولد في القـاهرة وكان من رموز الحركة الطلابية المصـرية في أوائل السبعينات حيث بدأ أول نشره الأدبي، كتب للصحـافة العربيـة في الوطن والمهجر وفي مصـر منذ عام ١٩٧٩ وحتى الآن في علوم النفس والسيـاسة والمجتمع وفنـون المسـرح والسينما.

نشرت مجموعته القصصية الأولى (الطير يهاجر إلى كون سرمدي ١٩٨٦) ثم (البنت والنورس ١٩٩١)، و(شادي عبد الموجود في ٢٠٠٧).

أهم مؤلفاته: (الصحـة النفسية للأسرة، سيكـولوجية الإرهاب السياسي، وجع المصـريين ٢٠٠٨، ٤ طبعـات، ضد الاكتئـاب ٢٠١٢ ـ طبعتان، والجنس، أزواج وزوجات ـ طبعتان)

تصميم الغلاف كريم آدم

دار العلوم
للنشر والتوزيع